المجموعة الكاملة

قصص قصيرة

الكاتب

عباس مدحت البياتي

الجزء الأول

المجموعة الكاملة

قصص قصيرة

الكاتب عباس مدحت البياتي

إهداء إلى من كانت الكلمة لهم وطنًا، والحرف لهم نبضًا، إلى أولئك الذين آمنوا بأن الفكر لا يُحدّ، وأن الإبداع لا يُقيد، أهدي هذا العمل، "المجموعة الكاملة"، ثمرة سنوات من التأمل، والبحث، والكتابة، لكل من وجد نفسه بين السطور، أو ضاع فيها ليجد ذاته من جديد. إلى القارئ الذي يمنح النص حياة جديدة كلما قرأه، وإلى الحلم الذي لم يفقد بريقه رغم كل العتمات.

رحلتي مع التأليف

رحلتي مع القصص والروايات ليست مجرد هواية عابرة، بل هي مسيرة عمرٍ امتدت منذ بواكير المراهقة، حين كنت أُسطر خواطر بسيطة على أطراف دفاتري، لا تحمل من التعقيد سوى صدق الشعور. تلك الخواطر كانت بذورًا أولى نبتت في تربة الشغف، وسرعان ما نمت لتصبح قصصًا قصيرة، ثم تطورت لروايات طويلة غصت في أعماقها، أتنفس من خلالها الحياة وأعيد تشكيلها على صفحات الورق.

لم تكن تلك الرحلة سهلة، بل كانت مليئة بالتحديات، أخذت مني جهد السنين ومرارة التجربة، لكنها منحتني في المقابل أجمل لحظات العمر، حين وجدت نفسي أعيش داخل كل قصة، وأتنفس بين سطور كل رواية. لكل قصة حكاية، ولكل حكاية نبضٌ خاص، وسأروي لكم إحدى القصص التي كانت نقطة تحول في مسيرتي.

قصة "فرصة هدف"

في إحدى حصص الاستراحة، كنت أجلس إلى جوار أستاذ اللغة العربية، حسن، وهو رجل مصري طيب القلب، جمعتني به زمالة وألفة جعلته يدرك شغفي بكتابة الخواطر الشعرية. ذات يوم، جاءه أستاذ الرياضة بطلب غريب: كتابة قصة قصيرة لطفل يعاني من إعاقة جسدية، لكنه يتوق لممارسة الرياضة. كانت القصة مطلوبة لطالب من أقربائه يدرس في مدرسة خاصة.

نظر إليّ أستاذ حسن وقال: "هل تود مشاركتي في كتابة هذه القصة؟" ثم ناولني ورقة بيضاء، وبدأ يكتب ما يخطر في باله. جلست إلى جانبه، أكتب بدوري على طرف الطاولة، أستحضر مشاعر الطفل وأحلامه، وأصوغها بكلمات تنبض بالأمل.

انتهت الحصة، وكنت قد أتممت فكرة القصة. قرأ أستاذ حسن أول سطرين مما كتبت، ثم مزق ما كتبه هو، فاستغربت وسألته: "لماذا لم تدعني أرى ما كتبت؟" فأجابني بابتسامة خجولة: "لقد أخجلتني أمام نفسي، كتابتك أبهرتني، وأنت اختصاص رياضيات وتكتب أفضل مني وأنا صاحب الاختصاص."

ومنذ ذلك اليوم، صار يدرس قصتي في حصصه، يرويها لتلاميذه، ويستشهد بها كنموذج للإبداع الذي لا يعرف حدود التخصص.

قصة المتسول؛ كنت قد شاهدت مقطعا فديويا لشخص ود تجربة متسول، فكانت استجابته إيجابية، فقررت أن أكتب على ذلك المتسول مع تغيير في نمط الفكرة والعطاء.

قصة غيرة القواد؛ أخذتها من كلمة في مقطع فديوي منشور، فأحببت أن أبين ضحية المجتمع القواد الذي تصرف بإنسانية تجاه الفتيات العفيفات، فقررت أن أكتب عليه قصة.

قصة صراط القلوب استوحيتها من خطبة الجمعة لأحد الأئمة.

البصمة؛ استوحيت فكرتها خلال فترة الهجرة مع مراحل تنفيذ أكبر علم في السويد.

وهكذا دواليك كل قصة لها قصة.

في هذا الجزء دونت القصص لغاية تسلسل 31، ومن القصة رقم 31 ولغاية 100 دونتها في الجزء الثاني لتسنح الفرصة لطباعتها وتناولها بشكل سهل.

المضمون

1- عصير الرمان.
2- سمط الجنون
3- هسيس الليل
4- جمانة .
5- أنذال....
6- بقايا الكأس
7- غيرة القواد
8- البصمة.......
9- كيد العقارب.
10- الكابوس.
11- الإعصار...
12- متاهات الأقدار
13- نبع الحنان
14- فرصة هدف
15- المتسول
16- الفضولي ..
17- بياض الدم
18- الصدمة
19- الرحلة المؤجلة.
20- مدن دافئة
21 صراط القلوب
22- الصياد والسمكة..
23- مملكة النساء
24- الملك والذهب.
25- أبن آوى
26- الديك والقاضي
27- لغز السعادة .
28- حسن كاروب.
29- فروة السبع
30- الأميرة والمؤذن
31- الطرائف في استكان الشاي.
32- لغة العود والحجر
33- المقصلة

34- الوفاء ....
35- القطة.....
36- القوقعة...
37- الفندق..
38- العقربة ..
39- الكرونا...
40- الزنبقة....
41- زيارة طبيب...
42- البار.....
43- باقة ورد
44- لسعة نحلة
45- مجرد لقاء....
46- عواصف الشتاء..
47- مريم
48- كرستال..
49- العاشق والكلب ..
50- الدنيء...
51- الفراشة....
52- الصورة...
53- آخر المشوار....
54- زيارة صديق..
55- مكتب السفريات..
56- القدر ...
57- الكوب ...
58- الكرة ...
59- الانتقام ..
60- الجوهرة.....
61 - قبل ان تبدأ الحصة..
62- مباراة العراق..

مجموعة عصير الرمان

1- عصير الرمان...
2- سمط الجنون
3- هسيس الليل............
4- جمانة ....
5- أنذال.....................
6- بقايا الكأس ....
7- غيرة القواد...............
8- البصمة...................
9- كيد العقارب.............
10- الكابوس.................

1- عصير الرمان

لأول مرة في حياتي، تطأ قدماي مدينة (ج) الصينية، مدينة غريبة الأطوار: بطبيعتها، بأهلها، بقوانينها، وبصمتها. وجدتها مختلفة تمامًا عن المدن الصينية التي عهدتها؛ لا نظام، لا زخم حضاري، لا عمران بارز، ولا أسواق نابضة بالتنوع. بل خلل واضح يوحي بأن هناك أمرًا خفيا غير معلن يكتنف نظامها... كأن الدولة نفسها قد تخلّت عنها.

كانت زيارتي لها محض مصادفة بسبب تشابه الطرق والأسماء، ولجهلي باللغة الصينية، كلها عوامل حرفت مساري عن وجهتي الأصلية. فساقتني عجلة التاكسي، مدفوعة بتيه ظني، إلى مدينة (ج) النائية والمنعزلة، البعيدة كل البعد عن مدينة (خ) التي كنت أقصدها... فاستثارني الفضول لأكتشف خفاياها قبل أن أعود أدراجي.

ما إن وطأت أرضها، حتى خالجني شعور بالوحشة اللون الرمادي الذي يكسو المدينة، وجوه بائسة، ملامح هجينة، أسواق فقيرة، شوارع ضيقة، وأبنية عشوائية وكأنها تهمس لي: "أنتَ في المكان الخطأ". أين ذهبت ناطحات السحاب، والأمواج البشرية، وبريق المطاعم والفنادق الفاخرة؟ لا شيء من ذلك يسرّ العين... وكأن الحياة هنا قد بُترت، وبقيت أطرافها تتسكع في هذا الفراغ.

كان شهر آب يلفح بلهيبه، ولساني لصق بحلقي عطشًا. عندها بحثت عن قارورة ماء تروي عطشي، كما يبحث المرء عن

فرصة نجاته، فوجدت دارًا للمسنين وفي زاويتها "مُزَمَّلة" كبيرة تحيط بها وجوه منهكة. ارتشفت رشفة منها، لكن الماء كان راكدًا، مجا، مالحًا، كأن المدينة لا تعرف العذوبة. بل بدت هي نفسها عطشى، حتى في أعماقها.

الطرقات كانت شبه خاوية، لا يملؤها سوى الظلال، وعدد المارة يُحصى على الأصابع. مدينة مهجورة من المعنى، مأهولة ببعض التائهين والمنبوذين الذين التصقوا بشوارعها كآثار قديمة.

وأنا أواصل سيري في ذلك الشارع العتيق، لمحت واجهة كافتيريا صغيرة تتزين بيافطة مضيئة، وعلى رفها المقابل قوارير زجاجية براقة، تحتوي على عصير رمان قرمزيّ جذّاب، بارد، يقطر انتعاشًا.

دخلتُ المحل بشغف، طلبت قدحًا منه، فأشار إليّ البائع بالدفع عبر آلة دفع حديثة، آلية، وحين قدمت ورقة نقدية بخمسة ماوات، رفضت الآلة تقبلها، لأنها مبرمجة على قيمة السلعة فقط. كما أن العامل يمنع عليه التلاعب وتجاوز القوانين المعمول بها.

عندها عرض عليّ الكاشير "قسيمة دفع" بقيمة أربعة ماوات قيمة العصير على أن أصدقها في "بنك الخردة" المجاور للكافتيريا، ثم أعود بها ليقدم لي العصير. ورغم غرابة الإجراءات، قبلت العرض، فالعطش كان شديد ودافع لأرضى بالموقف.

خرجت أبحث عن البنك وسط شوارع خاوية لا تهتدي إليها البوصلة، وتساؤل واحد يرن في رأسي: أين ذهب شعب المليار ونصف؟ لمحت طفلًا يبدو تلميذ مدرسة، سألته، فأشار إلى رجل أسمر بدا وكأنه يتعقبني. حين قرأ الورقة طلب مني أتبعه فتبعته، قادني في دروب ملتوية، ثم تركني فجأة دون أن يرشدني، بعد أن تجاوزنا واد صغير مهجور تمر به جادة قديمة.

هناك صادفت رجل أربعينيا يرتدي نظارات سوداء وسترة صيفية أنيقة توائم لون نظارته وحقيبته، كان يبدو كفيف البصر، مستندا في مشيه على كتف شاب عشريني يرافقه، لكياسته ووقاره الدال عليه منظره؛ ايقنت أجد لديه المساعدة.. فسألته:...

- بالله أين يقع بنك الخردة؟....

لكنه بدلًا من الرد، سألني بدهشة:...

- ماذا تقول؟؟.... البنك وقع**!**...هل وقع البنك فعلا؟ متى حصل ذلك؟
- لا اقصد سقوط البنك**!**
- هل معاك حقيبة؟
- كما ترى لا احمل حقيبة، لا تؤول الكلام، تبدو غريبا الطباع، سألتك أين يقع البنك؟ والحقيقة أنا لا أعرف سر هذه الورقة، كل

من يتفحصها يندهش، كأنها بمليون يوان هي ورقة نقدية بقيمة أربعة ماوات فقط.

- كم قلت؟.... مليون؟؟؟؟ لا لا لا مستحيل، لقد شممت رائحة المليون، أأنت تحمل في جيبك مليون يوان؟ أين هي؟ أريناها.
- لا إله إلا الله، ما بك، جننت؟ عن أي مليون تتكلم؟ خذ الورقة وأقرأها لتفهم.

في البداية توقعت أساء الفهم، لكنه تقصد البلاهة، فعندما لفظت دون قصد كلمة "مليون"، تغيّرت ملامحه. تبادل الهمس مع رفيقه، وأحاطاني باهتمام مفاجئ.

أخذ الشاب يقرأ الورقة، ثم مسكني من ابطيَّ.. شعرت بنية الغدر في وجوههما، لازماني بحجة إرشادي، آثرا الانتظار في زاوية المنعطف من جهة الوادي المهجور. كانت الشمس قد تجاوزت خط الزوال، أزفت ترعش في انحدارها نحو وهدة الغروب. لازال للوقت بقيٌّ قبل أن ينث الغسق رماده في العيون...

عندما لفظت كلمة "مليون"، شعرت أنني حرّكت زغب غريزة الطمع في فكره. شك بمسعاي، وكردة فعل سريعة منه سألني: كم قلت؟ مليون؟ أأنت تحمل في جيبك مليون يوان؟..... فسر كلامي بأني لا بد أن أكون من الميسورين، وخاصة لباسي ووجهي يدلان على أني ميسور الحال. طالما أنا غريب؛ فلابد أن أحمل في جيبي ما يعينني على السفر والمشاوير. وطالما تفوهت بكلمة مليون، إذا لا بد أن املك هذا المبلغ، لأن الفقراء

لا تطفح على ألسنتهم هذه الكلمة بتاتا، وأن طفحت ستطفح كبارقة رقمٍ في تصريف عدد، وليس كقيمة نقدية، لكني بسذاجتي حرّضت النية في أنفسهم، كشفت لهم عن غربتي وجهلي. ففي اللحظة التي كانا بها يبحثان عن الفرصة، كنت قد صنعتها لهم بتفوهي وعبثي الغير مقصود، ولابد من اقتناص أنصاف الفرص، لأن الفرص لن تكرر ذاتها... كأني حين كنت أسأل عن البنك، كشفت لهم عن هويتي ومخزون جيبي. لأن الفقراء لا يتعاملون مع البنوك. هكذا بثُ في نظرهم صيدًا ثمينًا دخل الشباك برجله.

في حقيقة الأمر كنت أحمل في جيب سري مبلغا لابأس به. حدسهم الشفيف كان في محله.. لذا طلب من الشاب ملازمتي، وهو الذي يظهر عليه من ذوات الخبرة في قطع الطرق وجز الجيوب، وقد بان لي محترفا في شخصيته.

بان الشاب جلدا، قاسٍ الملامح، ناشف الوجه، حاد النظرات، صفاته تنم عن طابع غدر تطبع به. فيما ذو النظارات كان يرمقني بعينيه المفلطحتين بنظرة شزرة، كأنه بشاربه الهتلري المرسوم كابتسامة شيطانية على وجهه كان يقول لي: "لن تخرج حيًا". كان يبحث في وجهي عن كلماتي الأخيرة، عن ثمن حريتي. شعرت بأنني أدركتُ أجلي. كان خشنا، قويا، يحمل تحت أبطه حقيبة صغيرة سوداء تحتوي على مستلزمات العمل، فيما كان الشاب يعلق على كتفه الأيمن غرارة من الخيش تحمل أدوات حادة..

سرعان ما وجدت نفسي محاصرًا بين الاثنين. في يد الشاب مطواة حادة، عندها أمرني بالجلوس. استندتُ إلى جدارٍ طينيٍ قديم نخرته الأمطار، مُوشّى بثقوب كعُقر العقارب والأفاعي. جلس الرجل ذو النظارات السوداء إلى يميني، بينما تمدّد الشاب بيننا على ظهره، واضعًا رأسه في حجري، وساقيه مثنيّتين بزاوية حادة. كان يرتدي قميصًا شفافًا بلون الحشائش، وبنطال جينز أزرق غامق.. عندها أخرج قلمًا أبيضا غريب الشكل، أشعل طرفه لينبعث منه دخان خفيف، فيما كان طرفه الثاني يحتوي على نابض (زمبلك)، أشبه بمحاية قلم الرصاص بلون النيكل. ثم ناولني إياه آمرا أياي أن ادخن....

- خذ، دخّن...

خوفًا منه وضعتُ رأس الزمبلك على لساني. سائل غريب انساب في فمي، كزيت الخروع أو مخدّر الأسنان. أنتشر قيح ذلك الزيت في فمي، هجست إلى جانب لسعته فيه برودة منعشة وعطر أنتشى في فمي برائحة النعناع المنعش، هجست بحالة انتعاش انسابت في الذهن والجسد لبرهة. خارت قواي، تهدّل جسدي، شعرت بنفسي تتلاشى أمام اللحظة. شعور غريب راغت به النفس لم أجربه من قبل.. عندها عرفت بأنَّها سيجارة الكترونية تحتوي على نوع من المخدرات أدركت أنهم يحاولون تخديري، فتمالكت ذاتي وتظاهرت بالقرف كي لا أُعيد تجربتها.

هجست بصداع خفيف، الذهن مشوش، والبدن خائر القوى. وأنا قابع بين ذئاب لا يشغل بالهم سوى نهشي. بتُ أترقب

الفرصة المتاحة لأنسلت من قبضتهم، أبحث عن الزلة بين طيات الزمن، أعيش حالة تجاذبات وشد وعناء نفسي بارتباك، متأملا أن أخلق الفرصة لنفسي من واقع الظرف لأتمكن من الهرب.

بت أفكر في استغلال لحظة الغفلة، بأن أغرز القلم في عين الشاب، لكن يدي لم تسعفني، قواي خائرة. الرجل ذو النظارات بدا وكأنه وحش، يرى فريسته تعذب بأنفاسها. في خضم تلك الحالة احتضرت إرادتي، هجست بنهايتي قد أزفت على يد هؤلاء. أصابني شعور بالانكسار والهلع، وأني لن أسلم على روحي إذا ما تجردت مما أملك، لأنهم سوف لن يتركوا لجريمتهم أثر يتبع خُطاهم.....

راودني يقين بأن القرار الصائب بعد السلب هو التخلص من جثتي، لتطمس بصمات جريمتهم في الظلام. وبين لظى السخط، وحيرة الفكر أمام الموت الزاحف وسكون الأجواء، ارتجيت رحمة السماء تحل العقدة الملتفة حول عنقي، كنت ألمح في نواياهم قبحًا يفوق جرأة الأيدي على الجيوب.

وما هي سوى لحظات حتى شقت صفوفنا عاصفة هوجاء، اُختلقت من وسط ذلك السكون فوضى عارمة، فتلت ضفيرة عصفها فوق رؤوسنا. صار كلٍ يشرع في معالجة أمر ذاته، رغت الغبرة في فمه وعيني الشاب، صار يسعل، يبصق وهو يفرك جفنيه براحة يديه. فيما ذات النظارات السوداء ما أن جفل؛ وقف على قدميه، خلال وقوفه سقطت نظاراته، ودون أن يقصد دعس عليها وحطم زجاجها، صار يدور في مكانه

أشـبه بالنــاعور، لا يســتدل إلــى منفـذ، ولا ماسـك بناصـية أمـره.. فـي تلـك اللحظـة مـرّت شـاحنة أمامنـا. وبوثبـة القـط تشـبثتُ خلفهـا كمـن يقفـز إلـى الحيـاة مـن قلـب المـوت، وتعلّقـت بهـا وهـي تغـادر دائـرة الخطـر متجهـة لجهـة الكافتيريـا. منقـذا نفسـي مـن بـراثن الأيـدي الأثيمـة، كـأنَّ يـد الله كانـت حاضـرة فـي ترتيـب سـناريو المشهد، فعدت إلى الجهة التي قدمت منها.

اهتــزت ثقتــي بنفســي، قــررت تجنــب عــادة النقــر علــى العلــب الفارغــة، يجــب أن أكــف التفــوه عــن أي معلومــة تخصــني. ســاعتان مــن المجازفــة لــم أدرك بهمــا بنــك الخــردة. الشــمس لازالت تمسك بذوائب النهار.

عــدت أدراجــي إلــى الكافتيريــا، بنيــة إعــادة الورقــة للكاشــير، أحسســت بأنــه الوحيـد كـان صـادقا معـي... لكـن المفاجـأة كانـت قاصــمة:- الرجــل الاســمر الــذي أضــلني يجلــس علــى كرســي الكاشـير**!** خرجـت مرعوبًـا، تائهًـا. شـككت بهـم عصـابة، يبـدو الكـل جـزء مـن اللعبـة. فلـم أعـد أثـق بمحيطـي، قـررت أن أعـود من حيث أتيت.

أوقفـت عجلـة تكسـي لتقلنـي إلـى المـرأب، وإذ بـي أتعـرف علـى صــاحب التكســي، أنــه ذاتــه الكاشـير الـذي سـلمني ورقـة الأربعـة مــاوات..... توقــف يمينــا وبــات ينظــر إلــيَّ بعــين فيهــا ســخط، أرتعبتُ منه، لن أجرؤ على الاقتراب منه.

تركتــه وأنــا أهــف بخطـوات مسـرعة نحـو المـرأب وهـو يتبعنـي بعجلتـه علـى رواء، شـعرت أن المدينـة بأكملهـا تلاحقنـي، فيمـا أنـا

أبحث عن مخرج في وجه رجل عجوز صادف يكون في طريقي. كان أنيقًا، وقورًا، تبدو على هيئته الهيبة التي لم أجدها في الآخرين. وددت أن أستنجد به علّه ينقذني من كماشة اللصوص الدائرة حولي. قلت له

- بالله يا عم أشعر بأن عصابة تلاحقني، وأنا غريب هنا، أود أن أخرج من هذه البلدة، هل لك أن تساعدني وترشدني إلى طريق المرأب؟

أجابني بكياسة وهدوء منقطع النظير قائلا:...

- أشرح لي ما هي مشكلتك وماذا جرى معك كي يمكنني مساعدتك؟

أخبرته بكل شيء. وبعد أن صمت للحظات، قال:...

- يا أبني لقد دخلت المدينة الخطأ. لا يوجد بنك هنا، ولا عصير طازج. يجب أن تعلم بأنه لا يوجد شريف هنا، هذه المدينة منفى للمجرمين والقتلة واللصوص، الجميع نصّاب أو مجرم. لذلك تراها مهملة من قبل الدولة لا أحد يهتم بها، لكنها تعمل وفق نظام دون تجاوزات. وبما أني بصفتي رئيس هذه المدينة. فأطمأن، لا تبتأس فأنت في أمان.. لكن مسألة خروجك مرهون بين يديك؟
- كيف يا عم؟ ألم تقل أنت الرئيس، هل ممكن أن توضح لي أكثر...

- نعم يـا أبنـي، هنـاك قواعـد مبنيـة عليهـا هـذه المدينـة لا أسـتطيع مخالفتهـا، وهــي؛.... عليـك أن تـدفع نصـف مـا فـي جيبك حتـى تسلم علـى روحـك، ولـو كـان مـاوا واحدا. هذه هـي القاعدة التـي نتعامـل بهـا مـع الغربـاء. ونحــن بهــذه المبــالغ نــدير شــؤون المدينـــة ومســاعدة العــاطلين والمرضــى والعــاجزين عــن العمــل. لأن الدولــة منعــت عنــا المســاعدة، وقــد آوتنــا إلــى هنــا لتـتخلص منـا ومـن جرائمنـا. فـان لـم يكـن هنـاك نظامـا حازمـا يـدير شـؤون النـاس؛ سـوف تحـدث فوضـى، بحيـث الأخ يأكـل لحـم أخيــه... نحـن نعمـل كجماعـة ولــيس كــأفراد- الــذي أعطــاك الورقــة عرفــك علــى العصـــابة بانـــك غريـــب، وأراد أن يشـــهرك بـــين المجـرمين.. والـذي أضـلك؛ ود أن ينقلـك لجهـة التنفيـذ والسـلب.. وهنــا صــدمتك شخصـية صــاحب التكسـي، والحقيقــة هــو ضــابط أمــن المدينـــة.... صـــدقني لـــن تسـتطيع أن تخــرج مــن هنــا دون هــذا الشــرط، ربمــا يقتلونـك ويسلبون كـل مـا فـي جيبـك، ومـن ثـم يرمـون جثتـك علـى المزابـل تنهشـك الكـلاب، حيـث لا قـانون يمـنعهم مـن ذلـك، ثـم يحـولن نصـف مـا يسـلبوك إلـي لإدارة شؤون المدينة.
- مــاذا تقــول! أنــه منفــى، لصــوص ومجــرمين؟ وهــل ألأنت منهم؟
- أنــا كبـرت علــى القتـل والأجـرام، أصـبحت بـلا قـوة، لــن أسـتطيع أن أعـين نفسـي، لـذا انتخبـت مـن قـبلهم

رئيسا للبلدة لأدارة شؤونها، ولن ينفذ عمل فيها إلا بعلمي، هؤلاء لو سرقوك لأودعوا نصف المبلغ في خزينتي.

- طيب يا عم أنا موافق، والمبلغ الذي معي هو الفي يوان ومائة وسبعون ماو. هذا كل ما أملك.
- إذا حصتنا هي الف يوان وخمسة وثمانون ماو تدفعها الآن لي، وصاحب التكسي لازال ينتظر أن يقلك خارج البلدة.

لم يكن أمامي سوى الرضوخ لشرطه لأنجي نفسي من الغدر. وما أن أستلم المبلغ مني حتى همس لي قائلا:

- بالسلامة يا أبني أصعد مع التكسي ولا تروِ له قصتك.. والآن تفضل مع السلامة.

ركبت مع الرجل الذي بدأ ككاشير، ثم ظهر كلص، ثم كضابط أمن المدينة. سارت العجلة في طرق وعرة مملوءة بالأشجار المتشابكة حتى وصلنا لوادٍ سحيق. هناك، أوقف عجلته فجأة، ثم التفت إليّ مشهرًا مسدسه.

قال ببرود:

- ما تبقّى في جيبك هو من نصيبي. وإلا أأخذه بالقوة.

صرخت:

- لكنّ الرئيس قال النصف فقط!

ضحك بسخرية:........

- لا وجود رئيس لهذه المدينة، إنها غابة وحوش. الجميع يعمل لنفسه. هذا الذي أدعى بأنه رئيس هو أكبر مخادع وأستاذ كبير في النصب والاحتيال، تمكن في لحظة ودون أن يبذل أي جهد، من أن يسلبك نصف ما تملك.... أنت الذي اختصرت المسافة بينك وبينه وعرفت نفسك عليه. نحن نتبع الفرص، أو نصنع الفرص بالجرم والشعوذة والتخطيط. وأنا الآن... آخذ نصيبي.

فعلا لا يوجد شريف في هذه المدينة، كنت أحسب الكاشير شريفا، إلا أنه خيب ظني، توقعت صاحب النظارات شريفا، بان لي ذئبا من لحظة لقائي به، حسبت العجوز شريفا فظهر ثعلبا، ماكرا، رغم اعترافه لي بذلك. ولكن غافلني وسلب ذهني ومالي بخبرته..

- وكيف أضمن نفسي من أن لا تغدر بي وتسلمني لآخر؟
- أنت معي في سيارتي، بيدي فرصة قتلك أو إنقاذ حياتك، والدليل أنظر في الورقة التي أعطيتك إياها، أنها مكتوب فيها أسمي، فأي شخص يفلح بسلبك سيضمن حقي بنصف ما يسلبك.

أخذ ما تبقى في جيبي دون رحمة، ثم واصل السير حتى مشارف قرية صغيرة. عندها سألته آخر سؤال:....

- يا ترى؛ ذلك الذي في القوارير كان عصيرا أم مخدرا؟
- أنه عصير طازج ولكن الكافتيريا ليس مكانا للجريمة. الآن أذهب لتلك القرية أنت في أمان.

عندها خرجت من المدينة منهكا، مفلسا، جائعا، عطشا، وبقي طعم ذلك العصير يدور في فلك نفسي..

2- سمط الجنون

لم يكن جميل سوى أنسان بسيط أذكته مباهج المناصب، فأنبثق في رواق الصمت كشمعة وضاءة، بدد عتمة الطريق أمام نواياه المعلقة ببارقة أمل، ثم تتبع حوافر أحلامه بيقين الواثق، فأضحى بين ليلة وضحاها سيد قومه، ومصدر إلهامهم.

سبقت فطنته توقعاته، فلم يتكئ على هواجس الظن كما فعل أقرانه، بل فاض ذكاؤه حتى طفح، فأغرق من حوله من منافسين، أولئك الذين شاركوه ماراثون المناصب والتأهيل والنجاح. ثابر في دراسته، فثبر المستحيلات بحدة ذهنه، ونال أرفع الدرجات والأوسمة، مقامًا ومكانة. بلغ القمة بيسر، وتلذذ بطعم المفاهيم كما يتلذذ المرء بشوكولاتة فاخرة، حتى تلونت كلماته بلون الثقة والحكمة، وتوشحت بمحبة المسؤولين، فامتلأ صحنه بجدية الأعمال وعبقرية الآراء.

واصل تأملاته بعيدًا عن ضجيج المنافسة، في ظل إعجاب المحيطين به، حتى أولئك الذين نافسوه لم يجدوا إلا أن يجلّوه. كرس ثورته الفكرية في الإبداع المبتكر، في شؤون المفاضلة والمقارنة والإسهاب والتحدي، فكان قنوعًا، صبورًا، ملهمًا حد التخمة، في فك العقد وتسليك الطرق، وتمكن من تمليس الظروف المعقدة لصالحه، حتى طغى سحره على أدائه، وأتقن تمثيل الأدوار المناطة به ببراعة لا تُجارى.

لم يتبع الظن في اختياراته إلا حين تعلق الأمر بقلبه المتعطش لعاطفة دافئة، تشفي غليله وتروي ظمأه. كان مدركًا لقدراته، فتعامل مع محيطه بعقل علمي، ومنهج عملي، ورؤية واقعية، في كل ما يخصه ويخص مجال عمله من شؤون شخصية وإدارية عامة. كان شديد الدقة، قوي المراس، كثير الهلوسة الفكرية، حاد الإحساس، وقد منحته سماته دافعية لا تلين، فاعتمد على ركائز قوية سندته، وشدت وثاقه إلى حقل التجديد والإبداع المستمر، حيث لا مكان للجمود، ولا وقت للتكرار.

ولأنه كان ناجحًا في عمله، لم يكن من المستغرب أن تحيط به المعجبات من كل صوب، ينسجن حوله خيوط الإعجاب بصمت، دون أن يجهد نفسه في البحث عن شريكة حياة. فقد شاء القدر أن تنبت زهرة الحب في قلب إحدى موظفاته الحسناء، تلك التي طالما تأملته في خيلائها، تراقب خطواته بثبات، حتى بعثرت فرص سعادتها أمام قدميه، فتعثر بها دون قصد، وانتبه فجأة إلى أريج فتنتها وسحر بريقها.

تفتحت نوافذ أحلامها على مصراعيها، وتلقفته بشباك حسنها في أول طلة له أمام نوافذ أشواقها الرهيفة، فاستفاق هو على جمرة الآهات التي نشبت في حشوة قلبه، واستكان على قبسٍ من الود والنجوى، تجربة لم تعتريه من قبل، ولم يتذوق مرارة عذاباتها، إذ كانت مختلفة تمامًا عمّا تحجر عليه ذهنه من تطلعات غارقة في دهاليز العمل والمناصب.

كانت تجربة فاصلة، لا تشبه سواها، فصلت بين ذاته وعمله، بين رتابة الأيام وومضة الإدراك. نفضت غبار الروتين عن

فكره، وأزاحت ستار الجمود عن روحه، فغدا كمن استيقظ من سبات طويل، يحدق في الحياة بعين جديدة، ويستنشق عبيرها بشغف لم يعرفه من قبل.

أبهرته لآلئ التوباز وشفق العقيق المتناثرة حول فتنة حبيبته، فغدا قلبه مرآةً تعكس وهجها، وعقله مسرحًا لرقصات حضورها. لم تكن مجرد علاقة عابرة، بل كانت ولادة جديدة لذاته، انبعاثًا لعاطفة طال كبتها، وانعتاقًا من أسر الجدية الصارمة التي طالما حكمت أيامه. كانت أول تجربة له، أول مرة تلسعه نحلة الحب، حينها شعر بألم غزها، وبحلاوة شهد عسلها. ذلك الألم الذي لا توصف همساته، ولا يُفكّ شيفرة صمته، ولا يُطفأ سحر سكونه.

غص في هيامه، تذوق لسعة الأشواق، حتى احترقت زغب مشاعره بنار الصبابة ونار الجوى. لم يعد يحتمل ذاك العصف الأهوج المنبثق من جوفه، ومن مفاتن سحر فاتنته، ذلك الذي عبث بمقدرات حياته، فاستسلم صاغرًا لهواها، رفع الراية البيضاء أمام سيل موجها الهادر، لم يحتمل قسوة لاحظة هند، ولا جمرة عقيق شفتها، ولا قنديل سمير وجناتها. مثلما احتار في بريق أنفها البلق، احتار في شعلة قوامها الباهر الرشيق، خضع لاستمالة مشاعره، لما أضفتْ على قلبه من صِرر وتأتأة شغاف لم يحتمل غيثه.

تلك اللهبة من الأشواق دفعته إلى أن ينظر بجدية لخارطة مستقبله الجديدة، أن يفكر بإمعان وبثقة تجاه من فطنته على ذوائب الحب، أن يغير من سلوكه ومن مراكب أبحاره تجاه

ذلــك المرفــأ. أن يصـــارح ســلوة هــواه ومبتغـــاه بحقيقــة مشـــاعره المتدفقــة، أن يكســر حـــاجز الصــمت الزجــاجي أمـــام عبثيــة الــود العــارم واصــراره الــذي يجتــاح كيانــه. عســى أن يجــرف مخلفــات النســيان، وفضــلات الــذات، وأهــوال الفكــر وأحوالــه المركونــة فــي طرقـــه. عســـى أن تســـتقر بـــه الـــذات الملهوفـــة، والأنـــا المســـتبدة، علــى قامــة صــبره، فقد طــوِقَ بسيل مــن الــود المهــول، فرفــع عاليًــا صــواري أعــلام رغبتــه فــوق كــل المراتــب، متجــاوزًا كــل حــدود التردد.

فــي المقابــل، النــار التــي كانــت تبــدو هادئــة فــي أركــان هنــد، لــم تكــن كــذلك فــي ذاتهــا؛ غــدتْ جمــرة متقــدة، أخفتهــا فــي ديجــور ســرها، لتوقــد بهــا صــبابتها. ذرت رمــاد الصــمت فــي العيــون، وظهــرت بـــين المــلأ تفاحـــة ناضـــجة، يشـــتط دخـــان ســـحرها مـــن أبخـــرة المعــارف المجــاورين لهــا، ينتشــي أريــج الحــب فــي أروقــة العشــق بشيء من رعاف الشوق، ليزيدها ألقًا وبداعة واهتمامًا.

كانـــت النـــار تبـــدو زرقـــاء، لاســـعة، مجنونـــة، أحرقـــت جوارحهـــا، ضــوّرت فتنتهــا فــي أعماقهــا، ألهبــت فكرهــا، شــغلت قلبهــا، جعلتهــا تلـــوذ بحيرتهـــا فـــي بحـــر مـــن الصـــمت والســـكون، وذلـــك بعـــد أن جلــدتها الوحــدة، ممــا أدى إلــى عشعشــة الغيــرة الجامحــة فــي لفــائف أعماقها، فبانت كزهرة الصبح، جذابة أمام الفراشات المارقة.

بتقربــه منهــا، كأنــه كشــط طبقــة الرمــاد عــن ذلــك الصــمت القــابع فــي وجـــه رجائهـــا، كأنـــه تحـــرش بهـــا تحـــرش الـــريح بـــالزهرة، فبانـــت تــرقص فــي ذاتهــا، تميــل فــي مشــاعرها ميــل الغصــن، حتــى أدرك هَبـــة النـــار المشـــاطة مـــن جمـــر أصـــدافها. عنـــدها اتقـــدت حـــرارة

الأشواق على ضفاف الوجد، فاشتعلت اللحظة، وتوهجت الأرواح، وذابت المسافات بينهما، ليغدو كل منهما مرآة الآخر، وصدى نبضه، وامتداد شغفه.

وعلى منصة الود، استسلم لها، استسلمت له- فشظ النور الساطع من فتنتها على أرجاء فكره وقلبه.

كانت تلك المفارقة التي حملتها صدفة اللقاء كإبرة تخدير، تسللت إلى أعماقه فأنسته همومه ومشاكله، وأيقظت فيه توقًا جديدًا نحو المستقبل. لم يعد يلتفت إلى الخلف، بل صبّ جلّ تفكيره في بناء سقف من المحبة يظلّل حبيبته، ويحتضن أحلامهما المشتركة. غدت فرص اللقاء فسحات دائمة، تتجدد وتزهر، تبهج حياته وحياتها، وتغذيهما بفيض من الآمال والسعادة. وما لبثت تلك اللحظات أن نضجت إلى زواج ميمون، مقرون برغبة جامحة من الطرفين، محفوف بفرح الأهل والأصدقاء، كأنما القدر نفسه بارك هذا الاتحاد.

زوجته الحليمة لم تكن امرأة عادية قط. جمالها وسحرها الأخاذ كانا مجرد مدخل إلى شخصية مثالية، صقلها والدها الوزير منذ نعومة أظفارها، فغرس فيها مفاهيم العلم، وأروى فكرها بفيض من الدراية والمثابرة. حصّنت ذاتها بالدين والعلم، وارتدت ثوب الثقافة والأناقة، حتى غدت مثالًا للكمال والرقي. مهندسة ناجحة في مجالها، متألقة في حضورها، متزنة في فكرها، جعلت من بيتها محورًا لا يُغادر، ومن زوجها رجلًا لا تستهويه مغريات الدنيا ولا سهراتها، بل وجد في دفء بيتها ملاذًا وسكينة.

أمـا هـو، فكـان كالنبتـة المجنونـة مـن المتسـلقات، كالسـرخس واللـبلاب، يتسـلق منـازل المناصـب بعزيمـة لا تلـين، مخلفًـا وراءه رغبـات زملائـه، متقـدًا بنشـاطه، متزنًـا فـي هدوئـه، راسـخًا فـي رزانتـه. زاحـم الظـروف الماجنـة فغلبهـا، واجـه العواصـف فاسـتكان فـي برجـه دون أن يتزحـزح قيـد شـعرة. شـغفه بالعمـل كـان وقـوده، ومغرياتـه كانـت زاده، ارتـدى ثيابهـا حتـى دقّ مسـامير صـبره فـي ألواحهـا، ورسـم جـداريتها بإتقـان، دون أن ينحني أمام صعاب الحياة.

كـان يمشـي واثـق الخطـوة، متمالـك الـنفس، يعـرف إمكاناتـه، يحـلّ عقـد المسـائل اللفيفـة بيسـر، يبسـطها، ويجعلهـا كمـا لـو لـم تكـن مـن ذوات العقـد. كآلـة حاسـبة، جعـل الحلـول رهينـة بـين يديـه، وضـب متطلباتـه، ورتّـب جـداولها ليسـهل عليـه المنـال، فكـان النجـاح حليفه، والتقدير رفيقه.

هكـذا تـدرّج فـي المناصـب حتـى بلـغ قمـة الهـرم التـي تأملهـا، وتـوّج مسـيرته مـديرًا عامًـا لشـركة بتـرول الوسـط المرموقـة. أصـبح مسـؤولًا عـن قطـاع غنـي ومهـم، يـأتمر تحـت ظلـه كوكبـة مـن المهندسـين والعمـال المتميـزين، بثقافـاتهم المتنوعـة وأعمـارهم المختلفـة، رغـم صـغر سـنه. كـان قائـدًا بـالفطرة، ملهمًـا بالخبرة، ورمزًا للنجاح الذي لا يعرف التوقف.

كـان خفيـف الظـل، حسـن الوجـه، سـريع البديهـة والنكتـة، لا تفـارق البسـمة ثغـره، ولا تغيـب البهجـة عـن حضـوره. أينمـا حـلّ، حلّـت معـه الألفـة، وانفرجـت الأسـارير، كأنمـا يحمـل فـي طلعتـه مفتاحًـا للفـرح. لـم يُعـرف عنـه يومًـا أنـه شـكا حزنًـا أو عنـاءً، أو

أنه عانى مأساةً تُذكر، فالعقد تنفر من طباعه، والمآسي لا تجرؤ على ملامسة روحه. كأن الله قد جنّبه عذابات الدنيا، وإن مرّ بها يومًا، فإنه لم يمنح الحزن فرصةً ليترك أثرًا على وجهه أو نبرةً في صوته.

في ليلة رأس السنة الميلادية، أقام احتفالية بهيجة، تزامنت مع مناسبة تسنّمه منصب إدارة الشركة للعام الجديد، بعد عامٍ حافل بالإنجازات. لم يكن الاحتفال مجرد مناسبة عابرة، بل كان كرنفالًا حقيقيًا شارك فيه جميع منتسبي الشركة، حيث وزّعت الهدايا والجوائز التقديرية، ومنحت الترقيات للمتميزين الذين بذلوا جهودًا استثنائية في خدمة المؤسسة.

كان يمكن للاحتفال أن يمرّ كأي مناسبة رسمية، لولا براعة السيد جميل، الذي خطف الأنظار في طلّته على المسرح، وأبهر الجميع بما امتلكه من مواهب براقة. اسمه لم يكن مجرد لقب، بل انعكاسٌ لوسامته وسلوكه، فكان جميلًا في هيئته، راقيًا في حضوره، متألقًا في حديثه، حتى غدا فقرةً رئيسية في الاحتفال، رغم تنوع فقراته.

في طلّته، لمس قلوب المتميزين الذين نالوا نصيبًا وافرًا من التقدير، كما لمس حقد الحاسدين الذين أضناهم البؤس، وأعماهم الغلّ. حين وقف على المسرح، كانت العيون تترقّب منه كلمةً تقليدية، إلا أنه شعر بأن بعض الحضور، ممن هم أقدم منه وأكثر خبرة، يضمرون له الاستياء، لا يروق لهم أن يتسنّم منصبًا رفيعًا في هذا العمر.

ومع ذلك، لم يفكر في خصومتهم كندّ، ولم يفتح بابًا للمنافسة المغرضة، بل آثر أن يكسر مجاديف أفكارهم السامة بلطافته، أمام الملأ، وبذكاءٍ يختزل قدراتهم والزمن معًا. لم يكن الردّ صداميًا، بل كان راقيًا، يحمل في طياته رسالةً مفادها أن النجاح لا يُقاس بالعمر، بل بالإرادة، وأن القيادة لا تُمنح، بل تُكتسب.

كلمة قصيرة... لكنها أضاءت القلوب

شرع بأسلوب جديد، كسب به ودّ الجميع، وأطلق كلمته القصيرة في مستهل الاحتفال قائلًا:......

"هذه الدنيا ستزول بما فيها من مناصب. والحمد لله أننا عشنا لهذه اللحظة ورأينا أول يوم من السنة الجديدة. لذا علينا أن نتقبل الواقع ونتعامل معه كصديق، عسى أن يساعدنا الحظ على تجاوز محن الغد بيسر. أرى نور صبحه قائمًا بيننا في وجودكم، رغم أن البعض لا يلمسه، إلا أنني أراه يتلألأ في وجوهكم."

كان حديثه أشبه بنداء روحي، يدعو إلى مصادقة الزمن، وتحويل البؤس المتقوقع في النفوس إلى سعادة دائمة، ترفد الأفكار وتنعش الحياة. وصف ذلك الصديق المسالم بأنه هدية، وأن علينا أن نتصف بالفرفشة، نلهو بمشاعر جياشة، ونزيح هالة الحزن والكآبة عن محاجر العيون. فالبهجة تسحر القلوب، وترمم السعادة، والضحك من القلب هو مفتاح العلاقة التي جمعتهم بودّ في تلك اللحظة الفريدة.

قال إن اللحظة الواحدة تحمل كمًّا هائلًا من البهجة، وكمًّا مماثلًا من الحزن. دعونا نختار الفرح بشوق، لنطفئ شواظ النار العابثة في قلوب من لا يشعر بها. ففي اللحظة ذاتها، تتنفس الألوان، وتفسح في ربوعنا، فلنختر منها اللون الشفاف البهيج، لتلوين ظرف البعض الأدهم، حتى تروق لنا اللحظات القادمة.

شبههم بصيادي سمك، يمخرون عباب البحر، يتأملون الرزق، لا قائد لهم سوى المصلحة المشتركة. وسألهم: كم سيكون نصيب الرئيس من نصيب العامل إذا ما عصفت الأمواج وغرق المركب؟ وأجاب: النصيب سيتوزع بالتساوي. ومن هذا المنطلق دعاهم إلى مسح الضبابية التي توهم البعض، لرؤية الحياة بشكل أوضح، وأفضل طريقة لذلك هي تصفية النفوس والضحك الصادق، لأن الضحك علاج لكل داء عضال.

الضحك... رياضة القلب وسر الحياة

حثهم على ملء لحظات الحياة بالفرح، أكسوها بالأمل، أطربوها بالضحك، وجردوها من هالة الحزن، فالصحة والعافية هما الأهم. وأكد أن الشخص الواثق من نفسه تميّزه ضحكته، وقال إنه يتمنى سماع تلك الضحكة ليكون فخورًا بقيادة الواثقين من أنفسهم. دعاهم ليكونوا رؤساء لأفكارهم المفيدة، وأن يطلقوا العنان لذواتهم، فالثقة هي مفتاح النجاح في كل المجالات.

ضحكة واحدة... قلبت الموازين، بعد كلمته، ساد صمت رهيب لثوانٍ، ثم فاجأ الجميع بإطلاق ضحكة قوية عبر الميكروفون: "هههههههه"، هزّت القاعة، وزرعت البسمة على الوجوه. كانت ضحكته غير متوقعة، لكنها كشفت عن أسلوبه، فكانت ردة الفعل قوية، وضحك الجميع من أعماق قلوبهم.

دعاهم لإطلاق الضحكة مرة أخرى، لكن القلة فقط استجابت استحياءً. فأعاد الطلب قائلًا:....

"لا لا... أريدها قوية جدًا، تخرج من حشاشة القلب، حتى يلفظ القلب سمومه. أول سيدة تطلق ضحكتها بقوة، لها هدية ثمينة، قبلة من خدي، أو تختار مكانها... ههههههههه."

ضحكوا بعفوية، دبّ المرح في الوجوه، وسعدت بعض النسوة بكلامه اللطيف. قال:...

"هيا استعدوا: واحد – اثنان – ثلاثة... ههههههه."

تضاعف عدد الضاحكين، لكنه أراد المزيد، فقال:...

"هناك من أصابه الخجل وسكت، لكن الضحك ليس له عمر ولا شكل. لنُعيد الكرة، لا نريد مريضًا بيننا، فالضحك رياضة للقلب، يخفف الضغوط، يخفض ضغط الدم والكولسترول، يعزز المناعة، يسكن الألم، يزيل القلق، يريح الذات، يساعد على التئام الجرح، يطيل العمر، يشجع التواصل، يلهم الإبداع، ويرسّخ المحبة بيننا. دعونا نحب بعضنا... دعونا نضحك."

قال: "هيا استعدوا للمرة الأخيرة... واحد – اثنان – ثلاثة..." فانطلقت ضحكة جماعية هائلة "ههههههههههههه"، راقت استحسان الجميع. عندها اختار امرأة كبيرة السن، وقال لها:...

"أنتِ يا أمي، لمحتك كنتِ البادئة بالضحك، تعالي وخذي هديتك من خدي... هههههههههه."

رغم أنها لم تكن البادئة، لكنه أراد شدّ انتباه الجميع إليه. وعندما قبلته، سألها:...

"بالله خبريهم، كيف وجدتي القبلة؟"

فأجابت ضاحكة:...

"ألذ قبلة مرت عليَّ. هههههههههههههه."

ضحك الجميع، خاصة النسوة، ثم قال:

"هناك مقولة لو أعرف من قالها لأحرقت جلده ضربًا."

فسألوه: "ما هي؟"

قال: "يقولون الحب أعمى... هههههههههههه."

ضحك الجميع، ثم تابع:

"أي غبي أطلقها؟ الحب عنده خمسين عين، يبحث عن الصغيرة قبل الكبيرة، لا يترك شعرة إلا ويدرك جذورها. الحب له مخارج لا يشعر بها إلا من تعلق بكفافه. الحب ليس

لــه شــكل ولا لــون، إنــه هلامــي يتكــور مــع الرغبــات، كالضــباب والهضـــاب، لا يُمســـك ولا يُتجـــاوز. الحـــب كـــائن حـــي، لـــه لـــون وصـــفات وحيويـــة وبراعـــة وطرافـــة وخفـــة دم. لـــه مجموعـــة عيون. بالله عليكم، هل الحب أعمى؟"

فأجابوا بصوت واحد: "لا لا لا لا لا."

"أتحـدى كـل النســاء إن لــم تكــن لهــن رغبــة دالــة فــي شخصــي الآن. لكني حزين جدًا!"

سألته إحداهن: "لماذا؟"

فأجاب:

"لأنـــي لـــن أســـتطيع الـــزواج مـــنكنَّ، سأشـــبع ضـــربًا مـــن قبـــل زوجتي، الغيرة مرة، والذي لا يغار... حمار."

فضجّت القاعة بالضحك، ثم سألت إحدى العجائز بعفوية:

"تزوجني يا أستاذ؟ هههههههههههه."

فأجاب:

"إن كيدكن لعظيم. ههههههههه."

كـان فصــلا يعـد درسـا فـي القيـادة... وضـحكا لا يُنسـى... فصـلًا مـن الضـحك قـلّ نظيـره، مـع مـدير شـاب عـرف مـن أيـن تؤكـل الكتـف. بتلـك الملاطفـة، قـصّ أجنحـة أعدائـه، وبأسـلوبه السـلس،

قدّم درسًا مجانيًا للأزواج ثقيلي الدم، ليعرفوا كيف يتعاملون مع الجنس اللطيف بعفوية وابتسامة.

****

من طبيعة الإنسان أنه لا يستقر على رزق، ولا يرضى بالركود؛ فحب المغامرة والتجربة يسكن أعماقه، يدفعه لتغيير نمط حياته، لكسر حاجز الروتين الذي يرافق السكينة والظرف. وخلال مسيرته، تعرّف على شلّة من الأصدقاء، وجد فيهم نكهة جديدة للحياة، شعر معهم بنفَس مختلف، أكثر بهجة وحيوية، كأنهم نسمة حرية هبّت على واقعه المتقوقع بعد الزواج.

كل فرد في تلك الشلّة كان يحمل طابعًا مغايرًا لطابعه، مختلفًا كليًا عن مسلكه وتأملاته وتطلعاته، وعن القيم والمبادئ التي تربّى عليها. اختلافات طبيعية، نشأت بفعل الظروف والبيئة المحيطة، فالله لم يخلقنا متشابهين. ومع ذلك، أضفت تلك الصحبة على حياته ألوانًا رنّانة، صنعت له أجواءً من المرح وسط عقد الروتين، جردته من ملل البيت وجدلية الوظيفة، وانتشلته من الإهمال والكسل الذي تراكم بفعل الجهد الفكري المبذول.

وجد نفسه بحاجة ماسّة إلى تغيير نمط حياته، إلى مسايرة جميع الأطياف، لتتعمق أفكاره بمثيرات الحياة المتنوعة، وليكون أكثر حصانة أمام مغرياتها، يتعلم ويتسلق

خصوصياتها، عسى أن تزيده خبرة ومعرفة في العمل والتعامل مع الناس كافة.

افتتن بهذا التغيير، وسُرّ بالسعادة التي أضفت عليه نشاطًا روحيًا ونفسيًا، فأصبح صاحب دعابة ونكتة دائمة، وانعكس ذلك على سلوكه وتصرفاته بشكل إيجابي. ومع تعمّق الصحبة، بدأت تدغدغ أطراف سره، وبفرط ثقته بنفسه، كان يظن أنه قادر على تجاوز عقد الحياة متى شاء.

لكن سهراته وسفراته مع تلك الشلّة بدأت تتجاوز الحد، ومع تكرارها، تولّع بها شغفًا، وزادته ألقًا وهوسًا بالنشاط، سواء في العمل أو في علاقته الزوجية. رفدت سلوكه بحقنة من كلوروفيل الشوق وأوكسجين الرغبة الدائمة، ليستنبط مكنوناتها من تلك النوابع الجديدة في حياته. ومع إفرازات تلك الصحبة، التي تطبع بطبائعها، حافظ على نجوميته المتلألئة في سماء الشركة.

ولكن...

أعين الأعداء لا تنام. تسرق الومضة من خيوط الشمس، وتنفذ إلى الهدف بسهامها، تتشبث بكل ما للحقد من سنن، كي تدرك مآربها. تربصت له، نصبت شباكها في طريقه، وعدّت فرصها لصيده. لن يهدأ لها بال حتى يسقط في المحال وتبلغ غايتها.

فالإنسان ضعيف بطبعه، خطّاء، يهفو من حين لآخر، حتى وإن كان يعيش زهوه ونشوته. أحيانًا يدفعه فضوله لخوض

تجارب تسيء لذاته، وتودي به إلى متاهة، فتكون حلقة وصله ضعيفة بين "الأنا" والغاية، بين ممارسة التجربة وحب الاستطلاع. فضول تسلّط عليه كسلطان الكرى، جره من واقعه، ليتكيف ويتلذذ بتلك اللحظات الخاطفة، العابرة لموانع فكره.

عندها، شعر بذاته تتراجع إلى موقعها الأول، بعد أن تشبّع من ذلك الفضول، ليكتشف قرف قيح النتن المنبعث من التجربة، ويعود إلى ذاته متأملًا، نادمًا، متسائلًا عن الثمن الذي دفعه مقابل لحظة عابرة.

وجميل كان قد سمع عبر زملائه الجدد عن العلاقات الجنسية عبر مواقع النت، فحاله حال بقية الشباب، ود أن يستطلع ويتعرف على شكل هذه النماذج التي تلسن بها أفراد شلته وما نوعها؟ ما خواصها؟ وماهي حجم المتعة التي سينالها؟.. أنها مجرد إهواء وتسلية لا أكثر.

في تجربته حاول التعرف على خفايا النت، بحيث يكون ملما بكل صغيرة وكبيرة من ما تحتويه من أسرار، كي لا يُحرج من قبل زملائه بمعلومة لا يعرف أسرارها وخفاياها، فأوعز تلك الممارسات خارج نطاق الموبقات، كونها علاقات غير مباشرة عبر الشاشة، دون اتصال بدني بين الجنسين.

وكان قد أرتبط بعلاقات وتشعبات عميقة وكثيرة في برامج التواصل الاجتماعي، كالفيس بوك والتويتر والأسناب شات والانستكرام والواتس آب وو.....الخ، مع معظم موظفي

الشـــركة. إضـــافة لعلاقـــات أخـــرى خارجيـــة تضـــم معارفـــه ورؤســـاءه وعـــدد آخـــر خـــارج حـــدود العمـــل مـــن معـــارف وأقرباء....

أحيانـــا الأنســـان لا يســـعى خلـــف تلـــك العلاقـــات الســـرية المشـبوهة، أنمـا تفـرض عليـه مـن خـلال الاعلانـات التجاريـة التـي تبـرز أمامـه صـدفة، فتقـدم نفسـها وتحتـك بكـل متميـز، بـل أحيانـا تكـون مدسوسـة مـن قبـل شـلة الأعـداء الحـانقين عليـه، لغـرض التجسس والإشهار والابتزاز بشكل مدروس.

وفـي أحـدى المـرات رنَّ هـاتف النـت علـى حاسـوبه الشخصـي فـي برنـــامج طلبـــات صـــداقة، وقـــد كانـــت اســـتجابته طبيعيـــة لفـــتح الحـوار، ربمـا يكـون المتصـل قـد أتصـل لأمـر هـام أو يكـون مـن ضـمن المعـارف.. الـخ.. لـم يتـوانى فـي فـتح صـفحة الفيـديو حتـى سـقطت عينيـه علـى وجـه حسـن، جميـل، لـم يتعـرف عليهـا مسـبقا، تـنعم برشـاقة الجسـد، بزغـت بوجـه كوجـه الشـمس، كانـت بـدفئها وألقهـا، جردتـــه مـــن واقعـــه المـــثلج. جســـد يمتلـــك فتنـــة الحريـــر النـــاعم الملمـــس، الســـحر يتســـلق طبقـــات المحاســـن فـــي معانيهـــا، تمتلـك هيافـة فـي أنوثتهـا، وطيبـا فـي كلماتهـا، ورقـة فـي حـديثها وطراوة في طبعها.

شـابة بعمـر الزهـور، محزمـة بأسـلحة الأنوثـة الفتاكـة، بزغـت لـه كحوريـــة خرجـــت مـــن جـــوف الأنترنـــت كقمـــر تهـــادت وســـط الغمـام، حركـت زغـب مشـاعره.. حوريـة شـقراء، جذابـة، ناعمـة المعـالم، واسـعة العينـين، كرزيـة الشـفاه، بارقـة الصـدر، كقطـة شبقة.

أخـذه الفضـول فـي تتبـع غوايتهـا، وإذ بهـا ترسـل لـه قبلـة هوائيـة ملئهـا عذوبـة وأنوثـة، أراقـت نبضـه. مـا أن أنبـرت حتـى خلعـت حاضـنة الثـدي، لتبـرز جـزء مـن سـحر جمالهـا المخفـي، أغرتـه بطراوتـه وتكـور ثـديها، بانـت صـدفية اللـون، ورديـة الحُلمـة، كلآلـئ تبـرق بلونهـا الزئبقـي. ثـم عـرت لـه السـاقين الملتـويين كـأفعى كشـفت لـه عـن ثـأدة الفخـذين مكتنـزين بثـورة الشـبق، لغـر الجسـد وفتنتـه تمكنـت مـن الاسـتحواذ علـى مجانتـه، أن تنفـذ بهـدوء لفكـره، أن تـنقض علـى عفويتـه، أن تشـيع فوضـى عارمـة في قلبه. هكذا أوثقته بحسن معالمها، أوقعته بشباك مباهجها..

مـن جانبـه ود أن يكسـر تلـك الحـواجز التـي تمنعـه مـن الوصـول إليهـا. ليغـور فـي أعمـاق تلـك المبـاهج، علـه يكتشـف أسـرار تلـك الصـدفية المنزويـة فـي قيعـان البحـر، أن يغـرف نظـرة مـن لؤلؤتهـا. ربمـا يصـل معهـا لعلاقـة وطيـدة مسـتقبلية، يـؤم بجنانهـا وتـوؤم ربيعـه، لـذا شـجعته، طلـب منهـا المزيـد. ودهـا أن تخلـع بكينهـا (لباسـها الـداخلي)، ليشـعر بحـرارة الشـمس!! لكنهـا اشـترطت عليـه أن يسـتجيب لغرائزهـا هـو أيضـا، أن يريهـا عمـود النـور، فهـي أيضـا محشـوة بالرغبـة والشـغف مثلـه. قالـت له:...

- أنـت وسـيم جـدا، لاطفنـي مثلمـا ألاطفـك، ألا أسـتحق منـك الإطراء؟
- مثلما ترغبين، حقا أنت جميلة أغريتني بحسنك.
- هيا؛ دعنا نخلع سوية.
- قد لا أعجبك؟

- دعني أشعر برعدة قضيبك أمام مباهج انوثتي، هيا نخلع معا لأريك فرجي وشرجي.
- هيا..

تسابقا في الخلاعة، ما أن نض لباسه وأظهر محسوباته الخاصة، حتى تعمق ذلك الفضول من طرفه، فغاص في وحل تلك الملاطفة دون أن يدرك. ففي اللحظة التي غشي بتلك المفاتن، كشفت له طراوة زهرتها، فأستقام قضيبه، ما انفكت؛ انقلبت على البساط كثعبان لتبرز له التضاريس جسدها، طلبت منه تقليدها...

هكذا وقع في الشرك؛ حتى زاغ جميل بإستمناءه على وقع إغرائها... لم تدم العملية سوى ثوان معدودة، ومن ثم قطع الاتصال الفديوي لتسأله....

- ما رأيك هل نستمر؟

لم يستجب لها، شعر بأنه قد غص في الوحل، أحس بأنه كان تافها في تلك اللحظات، جرفته تيارات الفضول إلى مستنقع الرذيلة، جردته تلك الآفة من قيم الأخلاق ومبادئ الدين التي أتصف بها، توسخت ورقته البيضاء بسواد عمله. أستفاق على عجل ليستدرك كرامته التي تلطخت بوحل تلك الغانية، استطاعت أن تعبث بمشاعره، أن تلوك وسخها بقيمه، حتى نسي كرامته ومكانته أمام تلك الثعبان، أنساه الشيطان حكمته وأنسته هي بشيطنتها قدره.. حين بحث عن أسمها المزور في قائمة الأسماء، لم يجد لها حضورا ليحضرها..

حينها جاءته رسالة على موقعه الخاص، تفييده بأنه قد أصبح صديقا لنفسه، لقد هكر موقعه وسرقت كل ملفاته ومعلوماته وأسماء أصدقائه. كما أرفقت مع الرسالة مقطع الفيديو المسجل لتلك الواقعة المتبادلة بينهما. تفييده الرسالة بأنه وقع في الفخ، وهم على استعداد للتفاهم معه مقابل مبلغ كبير من المال يدفعه لهم أو القبول بالفضيحة. أنها عملية ابتزاز واضحة...

لم يرد على تلك الرسالة، ألغى حسابه الرسمي من عالم الفيسبوك، لكنه لم يستطع أن يلغي حسابه الآخر الذي بات بحوزتها وحساب معارفه معها..

تلك العملية أدخلته في صراع نفسي شديد، تأزم نفسيا، انكدرت طاقته أصبح أشبه بالنبتة الذابلة لا رونق فيها، صارت جذوره تبحث عن شربة ماء تبلل ثغره، صار يبحث في أعماق الفكر عن منفذ ليهرب منه لواقعه الحقيقي، أفترسه الندم، أنهار سقف طموحاته، همد نشاطه. أضحى لا يجرء على التحدي قط...أين المفر، أنه مهدد بالفضيحة أمام كل معارفه ووزارته، الموج أعتلى أشرعته، الكدر صعد وتيره، فباء كمن يسعى لنجاته بموته.

في اليوم التالي لم يذهب للعمل، لكن صوره سبقته، فلم يتمكن من أن ينكر الحالة إطلاقا. محبيه لازموا الصمت، فيما أعدائه وشوا بالفضيحة وطبلوا لها بين الملأ، باتوا يطالبونه بالاستقالة...

بالفعل تم رفع تقرير أخلاقي لمجلس الوزارة، ومن ثم تم إحالته إلى التقاعد، مع وضع تحته أسمه خط أحمر ضمن الملاحظات، سيمضي معه لنهاية العمر.

أما زوجته التي كانت تنظر له بعين الاعتبار، اشمأزت منه، شعرت بأنه ليس جديرا بها، لذا فترت العلاقة، ثم بترتها.. فتحول ذلك الطائر البهيج إلى عنصر غامض، معقد، معزول، مبجل بالحزن والكآبة مسطول في الشوارع.

3- هسيس الليل

أرقٌ بليغٌ أسهدَ الذهنَ

أندى خيالا في الحدق

أسكنني في باطنَ الظنِّ

حيثُ لا يقينَ ولا شفق

لستُ على ما أنا

منذ أن رهقَ الودّ قلبي

منذ أن دنا الصمتُ من خاطري

خقَّ الفؤادُ فيضِ من التعب

×××××

كثيـرًا مـا شـكتْ ذاتـي الهائمـة، وأرّقهـا طيـف الحبيـب ونـار الجـوى، تسـتنجد بالقـدر ليعينهـا علـى بـلادة صـبرٍ مـرٍّ شـقاه الهـوى. تمسكتُ بخـط العنـاد طـويلًا، حتـى لهـث الشـوق مـن جـور

النـوى، تبـع أثـر الحلـم فـي دروبٍ فـي دروب عقيمـة، بـين شـكٍ ويقينٍ يردع جماحي بمن أهوى.

ران فـي داخلـي هـاجسٌ خفـي، حـرّك نوافـذ الغـيّ وأوقـد جمـر الأرق. بـتُّ أسيرُ كـالمجنون خلـف مسـاءات الهـوى، طفـلًا يشـهق بالشـوق والشـبق، أبحـث عـن صُـرّة فجـرٍ بـين أزقّـة العتمـة، عـن الحبيب الغافي في ظلال الحدق.

أطرقـتُ بعيـدًا، حتـى ماجـت ذاكرتـي بصـورٍ شـتّى، شـممتُ عبـق الجنـون، ورائحـة الـودق. فأسـرجتُ الفـلاة بفتيـل قلبـي، حيـث لا أبـالي خطـرًا، ولا جلـدًا، ولا غسـق. رغـم أنـي لـم ألـتمس اعتبـاراتي الحقيقيـة، لكنـي بقيـتُ سـليلَ ظـنٍّ وقلـق. إلا أنـي وحيـدا خضـتُ عبـاب البحـر، دون أن أخشـى بـلادة الغـرق. تركـتُ كـل شيءٍ من أجل الهوى، حتى أغشتني غبرةُ الشيبِ والأرق.

وفـي سـعيي، بقيـتُ ألـوذُ لـوذَ الحمـائم بـين الجفـن والحـدق، أسـيرُ وحيـدًا فـي دربٍ مهجـور، كـأنني أقتفـي أثـر المجـانين، أبحـثُ فـي عهـدتي عـن سـرّ الهجـود، عـن عشـق الأشـجار فـي البسـاتين. أسـيرُ ومعـالمُ الطـرق تميـدُ بـالنوى، طـرقٌ لـم تطرقهـا قـدمي مـن قبـل، وكـأنّ قـوةً خفيّـةً تقـودني لاكتشـاف أسـرار الـدروب والأفـق، عصـفُ شـبقٍ يرشـدني إلـى حيـث نـار الهـوى، رغـم المصـاعب والقلـق. كـادت أن تزهـق أنفاسـي لـولا الوجاهـة التـي طافـت فـي ذلك النزق.

لأول مـرة لا أمسـك بزمـام أمـري، ولا أشـهد سـحر الرجـاء ولا أسـمع صـوت رنـيم الـودق، لأول مـرة أتخـبط بوحـل الظـن، بـين أن أنجد ذاتي أو أتبع هالة الشد في الشفق.

تأوهــتُ، تثاءبــتُ، كأنمــا الــروح لا تحتمــل جوفهــا، تائهــة فــي دوامـةٍ مـن سُـدُمٍ لا تنقضـي. أهجـس بالأشـجار تخلّـت عـن فتنتهـا، تجـردت مـن طابعهـا وظلالهـا، تتـرنّح تحـت خفـق ظـلامٍ دامـس كأشـباحٍ تعيـق مسـعى الـذات فـي تلـك العتمـة، تهـزّ الخـواطر بسحر الخوف والأرق.

كنـت أسـير علـى وهـج النجـوم المتلألئـة، أسـتند فـي خطـوي إلـى سـذاجة الـروح المنهكـة ونـار الجـوى، فتـراءت لـي قناديـل ثـورةٍ مبتهجـة، تشـتدّ أنارتهـا حـين يشـتدّ نـزق الـريح. أخالهـا تتـأرجح مـع صـخبٍ داخلـي، وخـوفٍ مشـاطٍ فـي الأعمـاق، كأنهـا تتنـاغم مـع حجم العناء الدائر في خلدي.

اقتربـت مـن الأشـجار، فـإذا بهـا متعرّيـة، ضـخمة كأنهـا معلّقـة بسـقف العتمـة، كشـياطين تحـرس الـدروب مـن الحمقـى والعبـث، تشـكو الوحـدة، والـريح تعصـف بهـا كأنهـا تواسـيها. لـم أسـتطع تفسـير مـا حـولي، مـا إن أسـمع أنينهـا، حتـى يعـود إلـيّ وجلـي وشـرودي. بـتُّ أترقّـب الخطـوة، وهـي تمضـي نحـو هـدفٍ غامض، لا أملك تحييده، ولا أجرؤ على تجاهله...

فـي متاهـة الخطـى، حيـث يتـواتر الصـمت وتتهـامس الأرواح، هجسـتُ بـذاتي تصـغي لصـدى الأنـا، ذاك الصـوت المرتـد مـن

أعمـــاقٍ غارقـــة فـــي عربـــدة الخـــوف، يتخلـــل خشخشـــة أوراق الشجر المبعثرة على الطرقات كأنها رسائل من عالمٍ آخر.

رأيـتُ، بـأمّ عينـي، خيـالًا هلاميًـا يطـوف حـولي، لا يسـعى إلـى إيقـافي، بـل يرشـد خـواطري نحـو هـدفٍ غـائر فـي دماسـةٍ لا تُـرى، كأنـه نـداءٌ مـن الغيـب، أو صـدى رغبـةٍ مدفونـة فـي جـوف الصمت.

ومـع مـرور الـزمن، زادت الحلكـة حلكـة، كـأن الأشـجار المبثوثـة قـد عسـت الـدروب، فصـبغتها بشـجونٍ داكنـة، وألقـت فـي قلبهـا العتمـة فزادتهـا دماسـة. تـراءت لـي عـن بعـد كالجبـال شـامخة، كأوتـاد شاخصـة، كعـاهرات الليـل يجـذبنّ المسـتظلين إلـيهنّ، لا رغبـةً فحسـب بـل هروبًـا مـن الوحـدة اللعينـة والخـوف الـدائر فـي الطرق المجهولة.

لـم يكـف شـفيف الحـف، ولا عبـث الـريح المجانـة، عـن تمزيـق السـكون، حتـى دفقـت الوحشـة تخـزق خضـم ذلـك الهـدوء، كـأن الصـــوت آتٍ مـــن عمـــقٍ مجهـــول، تدركـــه غـــايتي وإن غابـــت ملامحه.

تخيلـــت الأشـــجار أشـــباحًا طريـــدة، طناطـــل مـــن الجـــن تتبـــع هواجســي، تــارةً تسـير برفقتــي، وتــارةً ترشـدني، تبـدو كمــأوىً حـين أحتـاج، ورفيقـةً حـين أضـل، مـلاذًا مـن أنيـاب العتمـة التـي تفترسني دون أن أشعر بذلك، لعدم امكانية هضم محيطها.

هـــذيانٌ عجـــن مشـــاعري بالتيـــه والغربـــة والغرابـــة، بـــالخوف المبـرر وغيـر المبـرر، كـأني قاصـدٌ وسـطًا مجهـولًا لـم اكتشـفه

مسبقا، متسرنمٌ بالليل، تتحكم بي الأهواء، مارقٌ في صرة زمنٍ تتنافى مع توقعات الظن.

أهجس بها حالة هستيرية، عسرت ولادة مآربي، فعشتُ بين انفصامٍ وتردي، متبعًا حسن الظن والنية، كمن يبحر في بحرٍ لا يعرف له شاطئًا.

تراءى لي الخوف ككائنٍ أسطوري، يتبع قدري، يرافقني في كل لحظة، يولد معها ويموت معها، لكنه لا يختفي، بل يستقر في سرمدية الذاكرة. اللحظة التي تموت، تعيش فينا، بينما المزاج حين يتغير، لا يعود لجذوره، كأنه غريبٌ عن ذاته. حين نسترجع الماضي، نستذكر اللحظات المارقة بتأنٍ، كلحظات الطفولة التي بقيت عالقة، بينما المزاج كصبغةٍ تتأثر بالظرف، تتغير خواصها مع الزمن، فلا تعود كما كانت.

اللحظة احسبها ككائنٍ أسطوري، تموت حين تولد، لكنها تستقر في جينات الذاكرة، تُشيّد بروجا فينا، تلون السماء بلون رغباتنا ونياتنا، تمر كجذاذةٍ تجرح، أو كعبق وردةٍ يريح الأعصاب ويغري القلب... هجستُ باللحظة العابرة كأنها غزت ذاتي بوشم الحبيبة، رسمت لي فرصة حياة، تلونت بصفات الحب، رغم أنها قطرة في فضاء الزمن، إلا أنها تمكنت من استغاثتي، هجست بها بحرًا تقل مراكبي. بولادتها تمر علينا وجوهٌ جمة، تسرق من جذوتهم صفاتهم، تنشرها في سماء الكون، فتنعكس ظلالها علينا، فيكون لها وقعٌ إيجابي أو سلبي، كأنها ترفق إلينا بتأثير الأبراج، لا نعلم إن كان قدَرًا أم انعكاسًا لرغباتنا.

أحيانًا لا يدرك الفرد أهمية زمنه الآني، لبطء استيعابه، فتهرب الحقبة من بين يديه، ويسقط كحجر صوان في دوامة التيه، لا يعرف كيف يبدأ، ولا إلى أين ينتهي.

في تلك اللحظة التي هجست فيها بانفصال ذاتي عني، شعرت وكأنها سقطت في بركة زمن جديد، زمن لا يشبه ما ألفته من قبل. تتبعت صوت سقوطها، فارتقيت بكياني، وبدت لي حقيقة وجودي السامي تتجلى في سماء من أحب. حينها، تلمست وجهي، قدمي، أطرافي، وشعرت بهبة شوق تتدفق من وجنتيّ، وزفير ينفث من شدقيّ. لامست قلبي، فوجدت وثاقه مشدودًا بخيط من خوف، ينبض بقوة، يطمئنني أنني ما زلت حيًّا في دائرة الوحدة، لم أبتعد عن ذاتي كما أوهمتني ظنوني، والدليل أنني أرى الأشياء من حولي وأميزها.

لكنني افتقدت ذاتي في لحظات انسيابها فوق تلك البسيطة... أين أنا؟ إلى أين اتجهت؟ لا أستطيع تحديد مسارها وهي تتأوه في دهاليز العتمة. هجست بها كالثعبان ينزع جلده، يتجدد، يتبع التجديد، حتى تحولت إلى كائن هيولي، لا أشعر بوجودي كحقيقة، أبحث عن كيان غائر بين كومة الأشياء، عن "أنا" أغشت حدقي وهي تتخبط في دهاليز الذاكرة، وسط تلك العتمة دون أن أدرك مأربي.

مضيت أتبع ذاتي بين زحمة الأدغال وشعث الأشجار، أجاهر بقدري بين العتمة والوحشة، غاربًا إلى متاهة مغمورة في

أعماق النفس الشريدة، حتى لاح لي ضوء ينبعث من صومعة قديمة، مهجورة وليست مهجورة... تبعت خيط ذلك الضوء، أبتغي إدراك مرامه وجنونه في تلك الليلة العقيمة من ليالي الخريف الباردة. كنت أتتبع حالتي كذاكرة أسجل عليها ملاحظاتي.

وفي اللحظة التي ظننت أنني أدركت مرفأ الظن، وجدتني أقف على أعتاب اليقين، أمام باب معبد قديم. من بعض المارة عرفت أنه مسكون بالجن، ومع ذلك وجدت أناسًا يؤمونه، يتقصّدونه، يتبعون أدعيتهم وأمانيهم داخله. فغايات الناس ومآربهم لا تُدرك. ربما جاءوا يبحثون عن ذواتهم التائهة، أو يستكشفون ما خفي منها، باحثين عن لغز فتن إرادتهم، ليحيدوا عن الموبقات، جاءوا لينسفوا هياكل مشاكلهم وعقدهم هنا.

كثير من البشر يخفون في بواطنهم قروء مشاكلهم، يختلفون في السلوكيات والغايات والنية، بعضهم لا يدرك مأربه إلا حين يصطدم بالواقع، وقد يكون واقعًا مريضًا، مليئًا بالشعوذة والخرافة، أضابير من الضياع يتيهون بها في أولى خطواتهم.

وأنا، كأنني أصبحت واحدًا من هؤلاء الشواذ من البشر، أبحث عن أنصاف الحلول لعقد حياتي في ذلك المعبد. رأيت الكثير من الناس يتقصدونه، رغم إدراكهم لما يحتويه من غرائب وعجائب قد تكون مهلكة، لكنهم يتعنّون إليه لقضاء حوائجهم، وترسيخ عقائد عباداتهم فيه.

المعبد بدا كأنه مسجد أو كنيسة قديمة قدم البشر، لكنه حافظ على هيكله في تلك البقعة من الصحراء القاحلة، كنقطة استراحة تتقصّدها القوافل الراحلة نحو البيت الحرام، فنسجت حوله الأساطير التي أطرقت مسامعي من قبل.

دخلت الصومعة بين خائف مرتعد ومضنوك، حيث الخوف في الداخل يوازي ما ارتسم على وجهي، وما شعرت به خارجها. لم يكن يفصل بين الموضعين سوى جدار هلامي، لكثرة الكوات المخزومة فيه، وقد يكون فاصلاً حقيقيًّا بين الشك واليقين.

بدأ الشك يخزق ذاكرتي كضوء منبثق في السدم، يتسلق اللحظة التي أبتهج بها، يتحول من صيغة لأخرى: من هدوء لافتعال، لفوضى، لسكون، لملامة. جعل تركيزي يشذ عن رأسي كخيط دخان، لا ألتمس مخرجًا للعُقد المتشعبة في ذهني. الرعب خلخل ذرات أثير النفس، استلّ حواسي، شعرت بسواد أشعث، أنيابه عاجية، يلهو بفكري، بل نفذ إلى داخلي، إلى أحاسيسي ومشاعري.

خطواتي بدت مربكة وهي تجتاز محراب الباب، مرتعدة، وجلة، شريدة في داخلي، أود الاسترخاء لدقائق، لأطرد هاجس الوسن والوجل عن ذهني. وما إن اجتزت العتبة حتى سقطت عيناي على ألواح خشبية مرمية إلى جانب الحائط الأيمن خلف الباب. بحلقت بها، فإذا بها توابيت مركونة مع جدار السور، هجست بها تتحرك، كأنها استندت على أحد طرفيها، شاخصة بجبروتها تراقبني. تركت في جسدي رجفة

زمهريرية، أدرت مقود فكري وعيني بفعل الرهبة، تخيلتها معبأة بجثث موتى. هجست بصراخ مع صرير الريح، صفير يخترق أذنيّ، يخترق شباك القلب، يزيده خترفة وهيافة.

دخلت باحة المعبد وأنا أتبع الداخلين، وإذا بشخص طويل القامة يستقبلني بابتسامة عريضة، مرحبًا بي. مد يده إليّ محاولًا مصافحتي، رغم أن المسافة بيننا تزيد عن عشرة أمتار، إلا أنه كاد أن يمسك بي، شعرت بكف يده تكاد تمسك بتلابيب ثيابي لطول ذراعه.

حينها عرفت أنه جنّ المعبد، يرتدي بدلة رمادية وربطة عنق برتقالية. من سلوكه التمست طبعه المسالم، ربما يكون من المؤمنين بالله كما أشيع لي من بعض المارة خارج الصومعة. كأنه خازن المعبد.

حاولت أن أسايره، أن أبتسم له، رغم الخوف الطاغي على مشاعري والارتعاش الدائب في ساقيّ، فلم أستطع مجاراته. تمكنت من التملص من بين يديه، أفلت نفسي بحركة لولبية كسمكة صدفية تفلت من قبضة الصياد، لأجد نفسي أدخل دهليزًا ضيقًا يؤدي إلى صومعة المعبد.

حينها اطمأن قلبي، وجدت نفسي أركن إلى جانب قلة قليلة من البشر، لا يزيد عددهم عن أصابع اليد. هدأت جوارحي بعد أن عرفت أن هذا الجن مسالم، مؤمن، غير مؤذٍ. زال الوجل عن قلبي، على وقع مشاهدة هؤلاء الرحالة داخل المعبد.

كانت أرضية المعبد مفروشة بسجاجيد خضراء ناعمة كفراء القطن. ما إن أنهيت صلاتي بعد أن أخذت قسطًا من الراحة، حتى شعرت بظمأ، فبت أبحث عن شربة ماء. خرجت مع الخارجين، مارًّا في دهليز ضيق يؤدي إلى الباب الخارجي. وما إن خطوت خطوتين، حتى وجدت قطة أليفة، جميلة، ممتدة على محراب غرفة مجاورة في ذلك الدهليز، وكأنها غرفة الخازن.

كان الباب مفتوحًا، وفي الداخل سرير مفروش بفرش غاية في الأناقة والنظافة، مغطى بملاءة حرير من الاستبرق. جذبتني القطة بجمالية فرائها، فراء هادل، ناعم، أطرافه بيضاء، تخترق رأسها خطوط نحيفة سوداء كقلنسوة، وظهرها مغطى بلون البنفسج من أزاهير اللافندر، أشبه بسجادة قديفة لطراوتها.

كانت تنظر إليّ وهي قابعة في محراب الغرفة، لسحرها ورقة جمالها ونضارتها، أجبرتني على مداعبتها. انحنيت عليها، وما إن لامست ظهرها حتى تحولت إلى فتاة غاية في الرقة والجمال والأنوثة، فيها شبه من حبيبتي. ارتعبت منها، تجنبتها رغم سحرها الطاغي. حسناء ترتدي فستانًا من الحرير الفيروزي، تخترقه خطوط صفراء وبيضاء، تهجس بها كبدر التمام.

ارتعبت منها، تيقنت أنها جنية المعبد، بت أردد البسملة مرارًا: "بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ". حين التمست مخاوفي، كشرت بوجهي، نظرت إليّ نظرة ازدراء،

أظهرت في فحواها حنق وزعل شديدين، عبست، تمددت على السرير المركون في الغرفة، المغطى بلحاف أبيض من كتان بإزار أخضر من الستن اللامع. كأنها أصيبت بالعناء حين وجدتني افزع منها.. هَمّتْ بالنوم، كاشفة لي عن ساقين ممشوقتين، ممتلئتين رقة وحيوية، موشحتين بالعذوبة والنضارة والبياض الناصع.. الخوف الذي تقمصني جزل عني الرغبة، شده فكري، شتت انتباهي، فقررت أن أنجد حالي. يا إلاهي جنية تود الاقتران بي.... لا أذكر كم من المرات رددت البسملة، كنت أشبه بالغريق يتأمل طارئ خارجي ينتشلني من الهوان... وعلى وقع الصخب الذي كان يعتريني امتدت لي يد المعونة، حيث هجست بالسكينة مع انتهاء أحداث ذلك الفلم المرعب على يد زميلي النائم معي في غرفة الفندق مناديا:.......

- أصحى يا كريم ... أصحى لقد اقلقتني، ماذا دهاك؟؟. حينها جلست وأذ بي أعود للواقع الحقيقي بجسدي وفكري وتفاصيل شخصيتي في ذلك الفلم الذي تقمصت به شخصية البطل دون وعي، فوجدت ذاتي ممتدة على سريري. حينها علمت كم أنا بعيد عن ذكر الله وكم أنا مقصر بعبادتي..

4- جمانة

منذ أن تعرفت على الفاتنة هدى، تلك التي أسميتها "اللؤلؤة"، وضعت نفسي تحت مجهر الأعين المتلصصة، وتحت ظرف لا يُحسد عليه. جعلتها تعيش في قلق دائم، منشغل البال، ولم أصغِ لنصيحة صديقي شاكر قط.

منذ أن سقطت لاحظة عيني على ملامح وجهها، فقدت السكينة التي كانت سمة دائمة لحياتي. تغير كل شيء، وانفلت شرودي، وصرت أحنّ إلى زمنٍ مضى، إلى أيامٍ كانت السكينة فيها منتشية في القلب. لكنني الآن ملتزم بخط الهوى، لا أستطيع العودة، فقد تجاوزت حد الرجوع، وما عليّ سوى إكمال المشوار.

تلك الفاتنة قلبت موازين حياتي رأسًا على عقب، زرعت الفوضى في مفاصل أيامي، وأوهنت قلبي بنار الحب. جعلتني إنسانًا مختلفًا، لا أشبه أحدًا، ولا حتى ذاتي. تبدلت مفاهيمي وقيمي، وتغيرت مواقعها في فكري وشخصيتي. بتُّ لا أعرف حقيقة نفسي، ولا ينفك عن خيالي طيفها الساحر.

وفي ليلةٍ من ليالي السكينة، سجى بي الشوق إلى أطلال الفؤاد المعنّى، قدحت قناديل الحنين، واستنارت أنوار الحلم، وتراقصت عنادل الود على ضوء القمر، تتبع طيف اللؤلؤة المستدام في خيالي، عبر نفق استهوى شرودي. تفتحت نوافذ الود أمام حقيقة استهجاني، وبدت الروح مزهوة بطوق فرح، وهي تستهوي ذكر الحبيبة هدى.

فـي تلـك الليلـة السـاهدة، جنحـت نحـو حقـل الهـوى، ركبـت مركـب الشـوق وشـتات الصـور، وانحـدرت نحـو منـازل الحلـم وخلجـات الوسـن. وطئـت موجـات الظـن والحقيقـة، واقتحمـت أسـوار الصمت والسكون الـدائر فـي خلـدي. تبعثـرت الأفكـار كحالـة عقـم بـين مـدٍّ وجـزر، ومعمعـة جـدل وجنـون. طافـت أعمـاقي كهسـيس الشك، وهي تلهث باسم اللؤلؤة.

طيفهـا اسـتهام قلبـي، طـرق بـاب الـود كشـمسٍ دافئـة، ارتعشـت أوصـالي، وغسـلت شـمائلي ببـروق ذلـك السـحر. ابتسـمت لـي، فانحنيت لدفئها، وأرفقت هوسي بمصافي قدرها.

الحلـم طـاف أروقـة الـذهن، واسـتباح أبعـاد العـين وشـغاف القلـب بـذلك السـحر المشـع مـن فتائـل الحسـن. انتشـت نشـوة فـي فضـاء الـروح، وكـدت أغـرق فـي سـدم العصـف والخـوف، لـولا أن جـنح بي القدر إلى واحة من الهدوء والسكون، عبر طرقٍ مدلسة.

كنـت وحيـدًا فـي رحلتـي، أطـرق رواق الفكـرة، مـارًّا بمزرعـةٍ واسـعة، يكتنـف أجواءهـا هـدوءٌ تـام. كانـت الشـمس قـد غفـت فـي جحـور العتمـة، فانتشـى الغسـق فـي الأفـق. بقيـت سـاهدًا، أتبـع نشـوة هـدوءٍ ماجـت فـي حشـا القلـب، أحـفّ الـدروب المبهمـة دون يقـين، ماضـيًا فـي رواقٍ قـديم، تعرفـت علـى خفايـاه منـذ القـدم، وكـأنني مـررت بـه يومًـا مـا، متـذكرًا تفاصـيله، كأنهـا مخطوطـة قرأتها في زمن الطفولة.

رواقٌ بهـيج رغـم حلكـة الظـلال، زادنـي شـوقًا وهيامًـا لاكتشـاف أسـراره. تتبعـت رغبـة ملحّـة فـي تلـك الممـرات الدهلـة، بشـيء مـن

الجنـون. كـان هنـاك إصـرار داخلـي يـدفعني لتخطـي حالـة العجـز، يحثنـــي علـــى المضـــي قـــدمًا فـــي ذلـــك الســـراط، لاكتشـــف لغـــز الـــرواق المهجـــور الـــذي أغـــواني. أردت العـــودة للماضـــي، راغبًـــا في تذكر المعالم التي عصت على الفكر.

وأنـــا ســـائر بنشـــوة، هجســـت بـــذاتي الهائمـــة، وكأنهـــا تتعقـــب شـــعلة ضـــوء دون إرادة، هجســـت بنشـــاط زهـــري يتـــدفق فـــي الفكـــر، يهـــز البـــدن، يرهـــف كيـــاني. كـــأنني ألـــتمس مصـــداقية ظنـــي فـــي ذلـــك الطريــق المتشــعب. فحــوى ســعادة ذائبــة فــي الســكون العــائم مــن حـــولي، عبـــقٌ لامـــس القلـــب، تـــراءى لـــي كحقيقـــة تـــبطن هـــاجس الخيال، كنخلة باسقة تبهج الريح فتغازلها، فتنثر أطيب الثمر.

بـــدت الآفـــاق سلســـة، مرنـــة، واســـعة، تتجـــاوز أزمـــة العلاقـــة، تتبـــع هاجسًـــا مـــن يقـــين. أشـــعرتني بتواجـــد جمانـــة فـــي زاويـــة مـــن ذلـــك الـــرواق. كنـــت ســـعيدًا وأنـــا أبحـــث عـــن الغايـــة، رغـــم الشـــقاء والمثـــابرة، رغـــم المســـافة والعتمـــة التـــي تفتـــرش الطـــرق. مضـــيت فـــي ســـري، أهجـــس بظـــلال الأشـــجار ترافقنـــي كشـــياطين وطناطـــل، عبر الطريق نحو غايتي.

أذوانـــي العطـــش وأنـــا تائـــه فـــي تلـــك الـــدروب، دون اســـتعداد للمفاجـــآت. لـــم أحتمـــل لاذعـــة الظمـــأ، ولهثـــت فـــي واقـــع صـــمتي، أشـــدّ علـــى الصـــبر بعـــد أن اكتـــوى عـــودي تمامًـــا. حينهـــا أدركـــت بصــيص إنــارة يخفــق بــين ظــلال الأحــراش، كنــبض نجمــة بعيــدة، كوَمضـــة فراشـــة صـــادرة مـــن بيـــت زجـــاجي مركـــون إلـــى جانـــب طريق خفي.

اتجهت نحو ذلك البيت، وكلي أمل أن أسقى شربة ماء أُجيل بها ظمأي. ماضٍ دون وعي، في سرنمةٍ تتبع هاجسًا خفيًّا يقودني إلى المجهول، يحثني على التحري عن اللؤلؤة في متاهة الزمن. أتبع بصيص النور في العتمة، عسى أن أجد ذاتي الضائعة بين أفانين القدر.

كلما تقدمت خطوة نحو ذلك البيت، زدت ظمأً وحرقة، وانتشى العبق في المحيط، كأنّ العطر يندح من صدره. وما إن أدركت الدار، حتى وجدت نواسيه تضيء ممراته وما حوله. طرقت الباب، فانفتح على مصراعيه، بان خلفه ممر فضي ضيق، يلمع تحت شبكة من أضواء القناديل.

وفي قمة ورعي واندهاشي، لمحت فاتنتي تفك صرّة العقد، تنتشلني من هوة الحيرة. إنها اللؤلؤة، إنها جمانة!

ذهلتُ حين رأيتها تتقدّم نحوي بشوق ولهفة، فاتحة ذراعيها لتحتضنني، وجهها مسرور، ونفسها منشرحة. وما إن عانقتني، حتى ذوى العطش من على ثغري، واستكانت الروح في وهدة الشوق، وخلا القلب من اضطراباته.

استفسرت منها متعجبًا: –....

- من أرى؟ هدى؟! أأنتِ تعيشين هنا، وأنا أبحث عنك بين الأروقة والدروب المحيّرة؟ كيف دخلتِ إلى هذه المتاهة؟

أجابتني بابتسامة هادئة: .....

- أنا أقطن هنا، هذا بيتي. لا تتأبط العجب، تفضّل بالدخول.

دخلتُ بقدمي اليمنى، متفوهًا بالبسملة، وإذا بالأضواء تحاصرني من كل جانب، من فوق وتحت، عن يميني وشمالي، ترشدني في وهدة الممر نحو غرفة نومها، ذات الأضواء الوردية الخافتة، والمطلة على حديقة واسعة من الورود الساحرة: جوري، فل، ياسمين، كادي، نرجس، قرنفل، كامليا، شقائق النعمان، جلنار، أوركيدا، وتوليب، كباقات تحيط بمسبح دائري لطيف، زلال مائه يتدفق بنقاء، حتى أنني رأيت الأحجار الملونة والأسماك وهي تسبح في موجه.

دخلتُ غرفتها التي بدت لي دائرية الشكل، ترتكز قاعدتها على أعمدة مغروسة في عمق البحيرة، فيما يشكّل سقفها فسيفساء تشتعل بهجة تحت بهرجة ثريا من الكريستال الملون. يتوسط الغرفة سرير دائري من عظم العاج، مفروش بقطن خالص، ومغطى بشراشف زهرية من حرير السوسن والاستبرق، معلّقة بأعمدة السقف عبر بوصلات رفيعة من الأستيل المذهب.

كان سقف الغرفة أشبه بقبة رصد فلكية، أو مزارٍ مقدّس، مرصّع بأختام نجوم لامعة وتوابع من أحجار كريمة منوّعة، مصفوفة بشكل فسيفسائي جذّاب، يزخر وسطه بزخرفة إسلامية براقة من عقيق وفيروز وتوباز وماس، وأحجار

أخرى لا أعرف لها أسماء. شعرتُ بنفسي وأنا أتجوّل وسط تلك الدهشة كعنصر غريب، شاذ، لا يليق بتلك البقعة المبتهجة.

بدت هدى تتحرك بين الأضواء كحورية، ترتدي ثوبًا من حرير شفاف، يتدرج بين أصهب فاقع وزرقة فيروزية تشهق بالبهاء، توائم بؤبؤ العين، موسومة بالحدة، تزيد الأجواء بهجة وأناقة. كأن الأضواء تستمد طاقتها من رقتها ونعومة بشرتها الملداء.

بان جسدها تحت وهج الثوب يتماهى كالضوء، يتخلل ديباجها المخملي البراق، ينعكس على ثنايا الغرفة، وكأن البيت يمتص إشعاعه وألقه من ذلك الجسد. وجدتُ نفسي مرهونًا بقيد سحرها، منقادًا خلف ذلك الحسن المشع والجسد الأهيف.

انحدرتُ نحو منبع الفتن لأستشعر سحرها، هجستُ في ملامستها شوقًا أغواني، احتضنتها برقة الملهوف، تحسست دفئها وفيض عطرها، تبعثُ غياث الشبق المنفوش من شهقة الأنفاس. لم أشعر بذاتي حين طوّقتها بذراعي، وحين غرست شفتي في جمار شفتيها، حتى امتزجت الآهات برضاب شدقيها، ونفذت الروح إلى جميل روحها. عندها هجست بها وقد صارت كخيط دخان يلتف على بدني بصحبة اللهاث المتراقص من لدنها.

غارقًا في حضنها، تأملت مفاتن الجسد وشطآن الغواية، تنقلت كالفراشة من زهرة لأخرى، أبحث عن الشهد بين ثناياها،

أتحلى بالقبلات، أُهيّج حراشف الفتن، أتبع سطع النور وفيض النبض، أتنقل على وقع الشد والجذب بين مباهج الوجه والجسد، متأملًا شموخ الأنف وسعة العينين. هكذا مضيت، أنساب كنمير فوق رواق الشفتين والصدر، أجنح هنا وهناك كذبابة تستمتع بالحلوى، خلتُ سرتها جوهرة تسبح في موجات البطن، امتدت يدي إلى دبق العجيز وثأدة الأفخاذ، تراخت بين يدي وهي تتبع غايتي، هجست بها تجذبني لفردوس جنتها.

غسلتُ ذاتي من الأرق بوهج ذلك الحسن المزدان، امتزجت المشاعر، تداخلت الأهواء، تلاحمت الأنفاس في بوتقة شبق، ونحن نتقلب على وثير الفرشة بنزق الحب.

وبعد تلك العجة التي عصفت بنا، ارتقى الوله قمة الجنون، جنحت النفس لفض عقدة الشبق، شعرت بجسدها قد تراخى بين أضلعي، تماها كالثلج وهو يسيح بين يديّ، يجلي نار الصبابة من حشا القلب. أصابها سهم الشوق كما أصابني، خرت كفتنة جذلى أمام عصفي، أسطلت بنار شوقي وهيامي. في نهاية المطاف، كان لا بد من ارتداء تاج العرف، بعد أن أوقدت الأنوار في جُعَبِنا.

وأنا منشغل بالشغف والهيام، انصبت عيناي على شاخص عمود الكهرباء المركون وسط حديقة الورود، إذ توهج وهجًا غير طبيعي. وقبل أن تتحكم هواجسنا برغباتنا، شظيت منه شرارة قوية أغشت الموقع وأعيننا، تحرك العمود عن موضعه، اتجه نحونا، سطى ضوؤه على إنارة البيت، كأن طاقة إضافية شحنت مصابيحه فتوهجت كوهج الشمس،

صحب ذلك البريق هدير مرعب، اهتزت له الجدران، وبوهجه تعطلت مصابيح البيت عن بكرة أبيها، إلا من نور خافت بقي ينسل من جسد جمانة.

اختفت البهرجة من حولنا تمامًا، اختنقنا بظلال الخوف، شعرت بالفزع يتخللني وأنا ناحل الجسد في قمة الهيام، زاغ خوفي على حبيبتي من أن يصيبها مكروه، كأنّ يهوى بنا سقف البيت أو يحترق عن بكرة أبيه.

تمعنت فيما حولي، لم أجد ما يثير الانتباه، جال صمت في رواق البيت، غطى على هوس أشواقنا، هدأ الوضع لبرهة، قبل أن تستتب قرقعة وسط ذلك الصمت، حتى استولت جلجلة صاخبة على تفكيرنا، تلاشى الصمت أمام حجم الفزع، جلجلة أقدام غليظة تطرق مسامعنا، تدك محيط الغرفة.

استدرت نحو العمود، وإذا به قد تغير شكله، بان أشبه بوحش ضخم، طويل القامة، وفي وجهه ابتسامة استهزاء صفراء. حينها تجمدت عروقي، ارتعشت الروح، كأنها تود أن تنفذ من الجسد. حاولت أن أتدارك أمري، أن أهرب من المكان باختطاف اللؤلؤة، أن أنبهها لما يجول في خاطري، هجست بها وقد ذوت بين ذراعي كخيط دخان، انسلت وسط دياجي الوحشة المحيطة بنا.

كل شيء تغير من حولي بسرعة البرق، تحولت تلك اللؤلؤة إلى وسادة ناعمة بين ذراعي، وأنا أشد عليها بقوة شرودي وفزعي، خوفًا عليها من المجهول. أصابتني رعشة الخوف،

وأنا أنظر إلى ذلك الشبح الذي بات يخترق الحاجز الزجاجي لينال منا. تخطى الحاجز كضوء مستطير، شظيت صورته في أرجاء الغرفة، عبر الانعكاسات والانكسارات التي أحدثتها مرايا الجدران، حتى بت أراه ينفذ إليّ من كل زاوية.

تراءى لي شكله قبيح، مخيف، منخر مسطح، أنياب طويلة بارزة كأنياب النمر، عينان مبيضتان، شعر داكن متطاير كاللهب، أصابع أطول من الساعد، جسد مكسو بشعر كثيف، له مخالب كمخالب النسر. شبهته بالشيطان أو زومبي الأفلام الأمريكية المرعبة، أو كما وصفته لي جدتي حين كانت تقص علينا قصص الخيال في أيام الطفولة بالطنطل والسعلاة.

بدت أرتجف وأرتعش وأنا مغشي أحتضن الوسادة، فيما هجست نفسي تقف على وهدة دهمة، عميقة، بانت لي كحفرة قبر مفتوح دون أن أعلم...

مع تغير الموقف صرت أصرخ بكل ما لي من طاقة ليصل صوتي لأبعد مدى، عسى أن أجد من يسعفني وينقذني من مأزقي، زادت الرعشة في جسدي مع دقائق الزمن، هجست بفخذي تبللتا بماء دافئ، وكأني قد أرقت البول دون إرادة، تصبب العرق من جسدي بغزارة.

حاولت أن أجر ذاتي وأبتعد دون أن أستطع تحريك جسدي الأجدب عن موضعه، حاولت الزحف بكل ما لي من طاقة دون أن أفلح بذلك، تكبلت اطرافي بالخوف، كأني أصبت بشلل عام وخمول وجمود وفزع..

رغم قوة صياحي أكاد لا أسمع صوتي، ولا أهجس لصداه أثر، يكاد الصوت لا يتجاوز أسوار كياني، كتم أنفاسي دون أن يحاول ذلك المخلوق من أن يؤذيني أو يفترسني وهو واقف كجبل فوق رأسي.

شعرت بنهايتي قد أذنت، الهوة سحيقة، جاهزة لابتلاعي..

أستمرت حالتي على تلك الوتيرة، فاقدا إحساسي بذاتي، فلم أشعر إلا على وقع طرق شديد على باب غرفتي... تلك الطرقات أيقظتني، أعادتني من عالم التيه لواقعي، أعادتني إلى عالمي الملموس من جديد، أعادتْ السكينة إلى قلبي الذي اشرف على التوقف لسرعة نبضه.. هممت متثاقلا لأفتح الباب، وإذ به آمر الفصيل ينبهني إلى ضرورة التجمع لأمر هام.

- أصحى يا أمجد جاء أمر انتقالنا للخطوط الأمامية؟
- حاضر يا سيدي خمس دقائق أجهز...

قلت له ذلك دون أن أزيد، حيث عيناي لا زالتا مغمضتين، ثم أغلقت رتاج فكري لتهدأ وترتاح جوارحي..

لم أكن على ما يرام، بقيت مجهدا أعيش الحالة برمتها، القلب يخفق والقلق يلاحق وجسي ككلب مسعور، تلمست فخذي وملابسي فلم اجد تغييرا فيهما، حمدت الله واستغفرته، ثم قرأت آية الكرسي والمعوذات، برحت أغسل وجهي لأعيد التوازن لجسدي المهلهل.

5ـ انذال

في حضرة الخذلان: حين تفضح المواقف ما توارى خلف الأقنعة

طوال مسيرة حياتي، مررتُ بمواقف وصدمات كشفت لي عن حجم النذالة المدفونة في نفوس من كنت أعدّهم رفاقًا، بل أقرب الناس إلى نفسي. لم تكن تلك الصدمات مجرد لحظات عابرة، بل كانت كاشفة، فاضحة، عرّت وجوهًا كنت أتوهم فيها النقاء، فإذا بها تنضح بالخبث. والأدهى من ذلك، أنهم قابلوا طيبتي بتعابير تنمّ عن قلة الذوق، وسلوكٍ لا يمتّ للأخلاق بصلة. وكما يقول المثل: "يجيك البرد من الرجلين"، فإن الطعنات جاءت من حيث كنت أظن الأمان.

لم أكن أتوقع أن أشمّ زنخ النذالة من أناس حسبتهم أقرب إليّ من حبل الوريد، جمعتني بهم علاقات مجتمعية، وصحبة طويلة، وذكريات لا تُعدّ ولا تُحصى. كنت أظنهم عمود النور الذي أستضيء به في عتمات الطريق، وأتوشح بهم أمام الآخرين بهاءً وفخرًا. لكنهم، ويا للأسف، لم يكونوا سوى أشباه رجال، سلوكهم الجلف شينٌ التصق بهم، وثوبهم الأبيض اتّسخ بما لا يُغسل، وعبثوا بصورتهم حتى التصق وسخهم بذاكرتي إلى الأبد.

لقد عرّت المواقف نواياهم، وكشفت سواد نياتهم، وكانت تصرفاتهم بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير. أخلّوا بقيمهم، ونسفوا صبغة الاحترام والتقدير، وهزّوا أركان

تقييمهم في أعماقي الثقافية والدينية والأخلاقية. جردوا مفاهيم الأخلاق من معناها، وصاروا نموذجًا قذرًا حشرهم الظرف في حياتي كعارضٍ ضارٍ، جمعتني بهم الصدفة على مقاعد الدراسة أو الجيرة أو العمل، فكانوا خردوات كراكيب المعرفة، لا أكثر.

الزمن، كعادته، لا يُخفي الحقائق، بل يكشفها، وقد كشف لي معدنهم الدنيء، وزيف أخلاقهم المنتنة. لقد عرّوا أنفسهم بأنفسهم، أو لعلّ الله أعراني حقيقتهم لأحذر منهم. طفحت أعمالهم كنقاط سوداء في صفحات معاملتي البيضاء، لاكوا الطفولة والعشرة والزمن بسواد المواقف، وخرطوا صفحات الماضي بمشارط أنانيتهم.

آهٍ... كم كانت عيني مغشاة بضبابية السحب، كأنني كنت مصابًا برمد العيون والعجب، ألهتني عن فطنتي طويلاً. لم أمعن النظر في تلك الشوائب إلا بعد الاحتكاك والتجربة. وبقدر ما آلمني سلوكهم المشين، فرحت باكتشافي أصل معدنهم الرخيص، لأتجنب غلّهم وتعاملهم في المستقبل. تركوا لكاكهم على ثوب العشرة شاهداً عليهم، لا يُمحى.

(جمال عباس - حسين درويش): خيانة الرفقة في الغربة

بعد شهرين من تواجدي في صنعاء كمدرّس، وصلت بعثة تدريسية من العراق، ضمّت ثلاثة من زملائي المقربين. استقبلتهم بحفاوة، وضيفتهم قبل أن يتم توزيعهم على المحافظات. نُسب أحدهم إلى محافظة إب، فيما بقي (جمال

عباس، وحسين درويش) في صنعاء. كنت دليلهم في المدينة، وعزمتهم على مأدبة غداء، وكنت أعمل بعد المدرسة في ورشة إصلاح الأجهزة الكهربائية، مكتفيًا ماديًا، راضيًا بما قسم الله.

ومع مرور الأيام، اندمجوا في شلّة جديدة من زملائهم، وصارت لقاءاتنا تحكمها الصدف، فاترة، نادرة، كأننا لم نكن من بلدة واحدة، ولا زملاء مرحلة. شعرت أنهم أصيبوا بزهو التعيين، وتغيّرت ملامح العلاقة، وتبدّدت الألفة.

ثم، فجأة، صاروا يبحثون عني، يلحّون أن أشاركهم السكن، بحجة جمع الألفة، وتخفيف وطأة الغربة. وصفوا لي السكن بالمريح، وأقنعوني، فنزلت لرغبتهم، ووافقتهم. دخلت الدار مساء الخميس، وفي صباح الجمعة كنا قد فطرنا معًا، ثم خرجت للتبضع بعض الحاجات الضرورية كبراد الشاي وصابون الغسيل ...الخ. عدت قبل الظهر، فوجدت الشقة خاوية، كأنها مهجورة، لا صوت، لا حركة، لا حياة.

دخلت غرفتي، فوجدت أغراضي كما تركتها، لكن قصاصة ورقية كانت على مخدتي، كتبها (جمال عباس) بخطٍ مستعجّل، تقول: "نحن كمجموعة نعتذر منك، انتقلنا إلى سكنٍ جديد، ونأسف لأن السكن الجديد يستوعب خمسة أفراد فقط وأنت سادسنا."

يا للوقاحة! يا للبجاحة! قبل ساعتين فقط كنا نفطر معًا، ولم أفرض نفسي عليهم، بل هم من توسّلوا بي. أية صيغة هذه التي تعاملوا بها معي؟ أية خسة ونذالة وقذارة؟ لقد احتقروا

أنفسهم دون أن يدركوا حجم الإذلال الذي نصبوه لذواتهم. كشفوا عن أنفسهم بسلوكهم المشين، الوقح، قليلي الذوق، عديمي الوفاء.

لم أشاركهم السكن سوى سويعات، لكنها كانت كافية لأكتشف حجم النذالة التي يتحلون بها. ما أغاضني أكثر هو أن نيتهم للانتقال كانت سابقة لدعوتي السكن معهم، وكان من الأولى إبلاغي، لا تركي في شقة خاوية، بورقة اعتذار لا تسمن ولا تغني من جوع.

نحن أبناء بلدة واحدة، وزمالة وظيفة، أما من عرفوهم فهم أصدقاء صدفة، غرباء، زملاء ظرف عابر. من في دمه فيروس خبث، لا يُرجى منه خير، وابتسامته دومًا صفراء. أما أنا، فلن أتحسف على نعلٍ تقطع في قدمي.

وبعد أسبوع، التقيتهم صدفة، فاعتذروا، وألقوا اللوم على قائدهم المصلاوي. لكن هيهات، فالاعتذار لا يصلح ما كسره الدهر، ولا يُرمم ما تهدّم في القلب.

\\\\\\\\\\\\

➻ راضي عساف و(م.ص): بين الخديعة والخذلان

بعد انتهاء السنة الدراسية الأولى في اليمن، استلمت راتبًا قدره 2500 دولار، عن عام دراسي ناقص ثلاثة أشهر. كانت تلك السنة حبلى بالتجارب، وأهمها تعرّفي على الأستاذ راضي

عساف الفلسطيني، مدرس الجغرافيا في مدرستنا، القادم من الإمارات برفقة صديقه العراقي شاكر.

كان شخصية آسرة، محبوبًا من الجميع، يملك ثقافة واسعة، وابتسامة لا تفارقه، وروحًا مرحة تجعله قريبًا من القلوب. شعره الأشيب كان يزيده وقارًا، وصوته الهادئ ونبرته الرزينة منحاه هيبة لا تُشترى. كان لبقًا، ذا قدرة مذهلة على الإقناع، يتقن فنون التعبير، ويجيد التلون كالحرباء، يتعايش مع الجميع، علمته الغربة كيف يتجاوز الصعاب، وكيف يلبس لكل حال لبوسها.

رغم كل ذلك، كان يحمل في داخله تناقضًا صارخًا، فبين البرجوازية الظاهرة على ملامحه، وبين واقع التشرد الذي فرضته عليه جنسيته، كان يخفي دهاءً لا يُستهان به. أخبرنا أنه أُبعد من الإمارات بعد حرب الكويت، بسبب موقف القيادة الفلسطينية المنحازة للعراق، لكنني حين دخلت الإمارات لاحقًا، رأيت أعدادًا كبيرة من الفلسطينيين والعراقيين يعيشون دون عقود، مما جعلني أشك في روايته، وأرجّح أن إبعاده كان نتيجة أعمال مشبوهة.

فتح راضي وشاكر مكتبًا في شارع هايل، تحت مسمى "الاستيراد والتصدير"، لكنه في الحقيقة كان مكتبًا للنصب والاحتيال. زرته مرتين، ولم أجد فيه سوى بعض الكراسي وجهاز كمبيوتر يعمل بنظام "دوز"، كان حديث العهد حينها، بطيئًا لكنه يمنح المكتب هالة من الحداثة والتطور. لم أرَ

بضائع، ولا زبائن، ولا أي نشاط تجاري حقيقي، مما زاد من غموض طبيعة عملهم.

في إحدى زياراتي، استغل راضي وجودي، وعرض عليّ مشاركته في المكتب. قال لي:

"ما رأيك يا أستاذ ياسر أن تدخل شريكًا معنا؟ لمحبتي وتقديري لك، أقترح عليك ذلك. ستستفيد بقدر ما تدفع."

رأيت في عرضه فرصة لفهم عالم التجارة، والتعامل مع الكمبيوتر، وتغيير نمط حياتي. كنت أبحث عن متنفس خارج الوظيفة الحكومية، عن عمل حر يعيد لي طعم الورشة التي كنت أملكها قبل مجيئي لليمن. وافقت، وقدّمت له 1500 دولار دون نقاش، ثقةً به، ورغبةً في التعلم.

بعد ثلاثة أيام، التقيته صدفة في شارع جمال، فقال لي:

"أنا آسف يا أستاذ، أود أن تعتبر المبلغ الذي قبضته مني سلفة، لأني أمر بضائقة مالية."

صُدمت! كيف تحولت الشراكة إلى سلفة؟ أين المبادئ التي كان يتغنى بها؟ أين الأخلاق؟ لكنني، احترامًا لوقاره، قلت له:

"لا عليك يا أستاذ راضي، دع ألف دولار عندك، وأعد لي 500 دولار، فقد أحتاجها في العراق."

أعاد لي المبلغ، شاكرًا تقديري له.

خلال عودتي للعراق، شاءت الأقدار أن أتمم نصف ديني، وتزوجت دون تخطيط مسبق. صرفت كل ما لدي من مال، وكنت بحاجة إلى مبلغ بسيط لتغطية نفقات الطريق من بغداد إلى عمان إلى صنعاء. لجأت إلى أقرب أصدقائي، الأستاذ (م.ص)، ابن محلتنا، وصديق الطفولة، ورفيق الدراسة، والذي كنت قد أسديت له معروفًا كبيرًا خلال حرب إيران، حين توسّطت له عند أخي لنقل أخيه من جبهة القتال إلى مدينة بعقوبة ليكون تحت أمرة أخي انضباطا.

ذهبت إليه بثقة، وقلت له: "عزيزي (م)، أنا بحاجة لمساعدتك. صرفت كل ما لدي على الزواج، ولم يبقَ معي شيء. أرجو أن تسلفني 100 دولار فقط، وسأعيدها لك فور وصولنا صنعاء."

لكن رده كان صادمًا:

"آسف، لا أسلفك!"

ظننت أنه يمزح، فألححت عليه، لكنه قال:

"والله لو تطلب مني درهمًا واحدًا لن أسلفك إياه!"

يا للخذلان! كيف نسي المعروف؟ كيف تنكر للجميل والصداقة؟ قلت له:

"قبح الله وجهك يا ناكر الجميل، ألم تتوسل بي لأتصل بأخي من داركم؟ هل نسيت اتصالي به أمامك؟ آسف عن العمر الذي قضيته معك، أنت مجرد صعلوك."

تركني مذهولًا، لكن جرحه بقي ينزف في ذاكرتي.

استلفت من الطيب عزيز 100 دولار دون جهد، وعدت إلى اليمن بصحبة زوجتي، وسكنت مؤقتًا في دار أبو فادي، الذي أفرغ لنا غرفة الأطفال، وتحملنا أسبوعًا كاملًا حتى يفرغ السكن الذي بجوارهم. لن أنسى فضله ما حييت، فالإحسان له وقع لا يُمحى.

في اليوم التالي، ذهبت إلى راضي، وشرحت له ظروفي، فدفع لي 100 دولار، ثم صار يقطّر المبلغ كل شهر 50 دولارًا. لامه مدير المدرسة وأبو فادي وآخرون، لكنه كان يطبق نظرية مكيافلي: "الغاية تبرر الوسيلة". المهم أن يقضي حاجته، ولو احترق الآخرون أمامه.

\\\\\\\\\\\\

ثالثا : **عدنان جهدية النجار**

الزئبق الذي احترق في ذاكرة الجيرة

كان عدنان أقدم نجار في جلولاء، وأكثرهم مهارة وخبرة، يكبرني بخمسة عشرة سنة على الأقل، ابن أقدم جار لنا وصديق أخي الأكبر. دارهم كانت تقابل دارنا، جمعتنا الجيرة لأكثر من عشرين عامًا. في طفولتي، كنت أرافق والدتي إلى دارهم لمشاهدة التلفاز، إذ كانوا الوحيدين في المحلة ممن

امتلكوا جهازًا في الستينات، وكان ذلك حدثًا استثنائيًا في زمنٍ شحيح.

بعد أن التحقت بالجامعة، انتقلوا إلى دار أخرى، وانتقل عدنان إلى بغداد، ومنذ ذلك اليوم انقطعت رؤيتي له، قرابة خمسة عشر عامًا من الغياب.

وفي أحد أيام عام 1994، بينما أتجول في شوارع صنعاء، التقيته صدفة في شارع جمال، كان يعمل ديكورًا لأحد المحلات. تبادلنا السلام والأحضان، وكان برفقته شابان كرديان من السليمانية، محمد وسيروان، مهندسا ديكور يعملان معه كمجموعة. أشار لي إلى مكان عمله الدائم، ووصف لي محل سكناه في شارع هايل، أطول شوارع صنعاء، الذي يلتف حول المدينة كهلالٍ يبدأ من الحصبة شمالًا وينتهي بشارع حدا جنوبًا.

شاءت الصدفة أن ألتقيه مرة أخرى، هذه المرة برفقة امرأة ادعى أنها زوجته. كانت قبيحة الشكل، غارقة في مكياج صارخ، أشبه بغواني الغجر. بدا لي مستقرًا في عمله، يكسب جيدًا، ويعيش حياةً لا تخلو من مظاهر الرفاه.

كنا، نحن المغتربين، نرتاد المقاهي بعد انتهاء الدوام الرسمي، أو نتجول في ميدان التحرير، مركز المدينة وملتقى شوارعها. وفي أحد عصاري الأيام، باغتني عدنان بإغلاق عيني براحة كفيه، جلس بجانبي، وتحدثنا عن العراقيين وفكرة الهجرة إلى أوروبا وأستراليا ونيوزيلندا.

تكررت لقاءاتنا في المقاهي، في شارع جمال، في باب اليمن، في كل زاوية من صنعاء، حتى صار حضوره مملًا، كظلٍ لا يفارقني. لم أكن أعلم ما يضمره، كان بابًا مغلقًا، ومفاتيحه التي منحني إياها كانت مزيفة.

في آخر لقاء لنا، التقاني في مقهى التحرير، كنت أجالس وحدي، فجلس بجانبي وقال:

- سامحني، والله مشغول، اليمنيون يتأخرون في دفع الأتعاب، حتى بعد إنجاز العمل لا يسلمون المبلغ كاملًا.

قلت له:

- لماذا لا تفتح ورشة خاصة بك؟ أنت ماهر ومعروف في السوق.

رد: ...

- أحاول، لكن السيولة لا تكفي. هناك فرصة عمل فيها ربح عشرون ألف ريال خلال يومين، أحتاج أربعة آلاف ريال فقط، وسأعيدها لك مضاعفة خلال أسبوع.

لم أستطع أن أرفض، فالجيرة القديمة، والصداقة، واحترام السن، كلها دفعتني لمد يد العون. أخرجت المبلغ من جيبي، وسلمته له دون تفكير، ثم عانقني وغادر.

لكن عدنان، كشيطانٍ يعرف من أين تُؤكل الكتف، سلب المبلغ واختفى. غاب عن وجهي، عن الشوارع، عن المقاهي، عن الوجود. بحثت عنه أربعة أشهر دون جدوى، حتى استفسرت عنه من صاحب الورشة التي عمل بها، فقال لي:

- هذا نصاب معروف، فاسد، خمار، زاني، مطلوب للشرطة، لا يستقر في مكان، يسمونه الزئبق.

كان لغزًا، كأنه تبخر، كأنه لم يكن. حتى جاءت الصدفة بلقاء محمد وسيروان في شارع جمال، فسألت سيروان:...

- هل تعرف أين يعمل عدنان؟

رد فورًا: -

- هل أخذ منك نقودًا؟

أجبته:..

- نعم، أربعة آلاف ريال، قال إنه سيعيدها خلال يومين، لكنه اختفى من اربعة اشهر.

قال:...

- هو نصاب، لا محل له، لكنه موجود، تعال معي إلى مقهى اليمن في شارع هايل.

وفي الطريق، شرح لي سيروان عن أخلاقه المنحلة، عن حالات النصب التي مارسها، حتى مع أقرب الناس إليه. قال:...

- عدنان مريض نفسيًا، يمكنه أن يصنع ذهبًا بيده، لكنه وضيع، خسيس، منحل، يعتصر الفساد كما يشربه.

وصلنا المقهى، وسألنا عنه، فقيل إنه مختفٍ منذ يومين. قال محمد:...

- لا تهتم نجده، انه خمار، قمار، فاسد، يصرف كل ما يحصل عليه على الخمر والزنا. رأيته مع فتاة عراقية، قال إنها زوجته، لكنها قحبته من بغداد.

وأضاف:

- لو عرف كيف يمسك يده، لكان أغنى رجل في اليمن. يسمونه الزئبق لخفة يده ودقة عمله، رغم أننا مهندسان، إلا أنه يتفوق علينا.

قال سيروان:

- لا تهتم، تحت يدي عمل بمئة ألف ريال، إن لم يعيد لك المبلغ هذا الأسبوع، لن أرسي عليه المقاولة.

وفعلًا، بعد يومين، جاء عدنان برفقة محمد وسيروان، سلمني المبلغ، معتذرًا، ناكسًا رأسه. قلت له:

- سأغلق فمي احترامًا لهذين الأخوين، لكني لا أريد أن أرى وجهك ثانية.

بقي صامتًا، لم ينبس بشفة، وودعت محمد وسيروان شاكرًا.

ما يغيظ في الأمر هو النصب على القريب، على الصديق، على من منحك الثقة. فهؤلاء، مهما بلغت مهارتهم، يطفئون كل شذرات التاريخ برمشة عين، ويمحون أنفسهم من الذاكرة، فلا يُذكرون إلا باللعنة.

شكراً لأولئك الذين علموني دروسًا ثمينة في الحياة، وشكرًا للآخرين الذين نلت منهم الويل. فالنذالة تأبى أن تفارق أهلها... بها يولدون، وبها يشيخون.

6- بقايا الكأس

فيما مضى كانت الدعارة ككار منتشر في مراكز معينة من أرجاء البلد، على قلتها كانت تفي بالغرض المبتغى للعازب، هذه الأماكن مرخصة من قبل الدولة، للحفظ على نظافة المدن من التشوه والقبح، معلوم إذا ما وضعت الخلايا الخبيثة بجوار النظيفة السليمة؛ ستنقل إليها ماهيتها. فالنفس أمارة بالسوء، ومعظم اللاتي يعملن في الدعارة هنَّ من أصول غجرية، وقلة من اللاتي انحرفن وسلكنَّ طريق الرذيلة والزنا.

حينها كان قد هفا بي الشوق لزيارة أحد أوكارهن، لأستمتع بجسد انثى للحرمان الذي كنت اشعر به، لأتلمس أنوثة فاتنة عن قرب وحرية، كنت أهجس بذاتي كالنبتة الجافة ابغي إروائها من جانب، ولأدرك قدرات ذكوريتي من جهة أخرى. كنت لازلت في ريعان الشباب، في بداية سن البلوغ، دخلت دارا من الدور المشتبهة بها في منطقة الميدان، قادتني الصدفة اليه، حينها كنت اتبع قافلة من المهزومين، المهمومين، الغائرين في عقدهم والجانحين بهوسهم، بيوتات بالية خربة، آيلة للسقوط، مهجورة، استغلها عدد من القادية في جمع مجموعات من النسوة البغاة في تلك الدور لتسليك عملهم ومنفعة جيوبهم. عندها كانت لي رغبة جامحة بممارسة التجربة مع أي مومس في تلك الأوكار العفنة لأطفئ نار الشبق في اعماقي.

ولجت في فرع من الفروع خلف بعض الوجوه البائسة التي ترتاد هذه الأماكن العفنة باستمرار، انحدرت مع تلك الوجوه

العابسة، التائهة، الضائعة، الغائرة في شجون ذكوريتهم، وجوه مفلسة من نعم الله وهي تروج في تلك الأمكنة كالدبيب، تبحث عن غواها ومناها في تلك الأماكن الرطبة، الموبوءة، بعيدا عن الفضائح، لتطفئ نار الغريزة المتأججة في دواخلها بنفاضة عاهرة والتي هي أكثر بؤسا وشجنا منه. تبحث عن الذات التائهة والمنحرفة بين أجساد ذابلة، مصفرة، شبعت آثاما ومهانة وانحطاطا.

كنت أحد هؤلاء الدبيب اتبع العارفين وذوات الخبرة، أبحث عن لغز الأنثى ولون السحر المغروس في منابت الشهوة، عن التاج الذي به أتوج ذكوريتي بشكل من أشكال الكرنفال والوله قبل أن أدخل فردوس الحياة، كنت أتبع اللحظة بشغف وجنون، أن أبرد الرغبة الملتاعة في جوفي، أن أعين الأنا المريضة، متبعا دروب الغريزة المحتقنة في أعماقي كالأعمى، لأروي ظمأ النفس العطشة للجنس، تلك كانت تجربة جزلت بها إرهاصاتي وقومت بها رشدي..

في الحقيقة كنت أبحث عن بلسم صبر أنعم به خشونة شبابي، أزيل طفح الإرهاصات الشائبة والمتأججة في أنفاسي، أبحث عن صيدلية إغواء ودواء في جسد فاتنة. وددت أن أنتشل غايتي المرهقة والمريضة من عجز كنت أشك به قائم في جسدي، أو بالأحرى وددت أن أبحث عن ذاتي بين تلك الأفخاذ المكتنزة، لزرع ثقة في النفس المتزعزعة بقدرات رجوليتي، لكشط عث الخجل عن غشاء النفس الملتحفة بالعفة، حتى أني

كنت فيما مضى أخجل من أن أستميح النظر إلى وجه فتاة تعجبني.

وقفت في مدخل أحد الأبواب المفتوحة على مصراعيها، حيث يقفن في فنار البيت مجموعة مومسات بين خمسة إلى سبعة فتيات شبه عاريات، تتراوح أعمارهن بين العشرين والأربعين سنة من العمر، متراصفات في نسق أمام الداخلين للدار، كنت حينها أبن العشرين سنة من العمر، كل منهنَّ تود نثر ودها على قدمي، تحاول استمالتي لشاطئ رقتها المضطرب. تحاول أن تسرق جوهرتي بعملية أغرائي بمفاتن جسدها، لقد عرضنَّ عليَّ بضاعتهنَّ دون خجل...

كنَّ خليطا من البغاة يؤممن تلك الاوكار من عاملات وموظفات وفنانات وغجريات وربات بيوت...الخ اجتمعن على الخسة، يبتغين كار البِغاء من أجل المادة والمتعة.

على أية حال اجتذبتني أحدى الفاتنات ذا بشرة رقيقة مشبعة بخمرة السمرة الشفيفة، ناعمة الملامح، رشيقة القوام، متوسطة الطول، واسعة العينين، كرزية الشفاه... أخترتها من بين المجموعة للجاذبية التي وجدتها في سمرة البشرة ولنعومة ملامح الوجه. كانت هادئة، غارقة بابتسامة لطيفة، رمتني بسنارة عينيها فتعلقت في حشاشة القلب، تعلقت الروح بخيط واهٍ من سحر مدفون في وجهها البشوش، هجست بها أكثرهن رواقا وهيجانا وعذوبة، هجست بها كجمرة ملظة لامست عصف الريح، فسال الرضاب على طراوة الشفاه بسر

النضـــارة الذائبـــة فـــي البشـــرة، لتمـــوج تلـــك الجاذبيـــة فـــي قدحيـــة العين.

حــين مــددت أليهــا يــدي اخــذت بــي كالضــرير، قــادتني لغرفــة جانبيــة، إلــى حيــث موقــع النــزال فــوق فرشــة مطروحــة علــى الارض، حاضــنة حقــوي بيــد وبيــد تضــع راحتهــا براحــة يــدي وكأني رفيقها وعشيقها...

حين لمست ضياء وجهها براحة يدي، أتقدت أنـاملي مـن شحنة الــدماء المتقــدة بفتنتهــا، الهبــت أشــواقي بســحر تلــك الــوجنتين، طفقـت عـاطفتي تخفـق، ارتعشـت أوصـالي، لقـد همـتْ بـي قبـل أن أهـم بهـا، فالتصـق الجسـد بالجسـد كتطـابق الألـواح علـى بعضـها، تماهـت الـروح بـالروح، خـار الجسـد تحـت وقـع الـدفء المشـع مـن ثناياهــا، ذابــت انفاســي بأنفاســها، تلاطمــت أمــواج البحــر، رمتنــي على شواطئ الأنوثة كسمكة لا تحتمل شمس الغريزة لشدتها..

قبلتهــا مــن خــدها الناصــع، شــعرتُ بخــدر لاح حراشــف الشــفة، تكهربــت بــوميض بريــق ســمرتها. بحــذق مــن ألــق نضــارتها ونعومتهـــا، ســـرى وهـــج الشـــغف فـــي ثنايـــا الشـــهوة، انتبـــرت عـــواطفي كشـــمس فـــي ســـماء النشـــوة، بانـــت تشـــع وجـــدا وشـــوقا وحنينـــا ومـــودة فـــي جســـدي، توهجـــت شـــمعة ذكـــوريتي بتـــوهج زهرة أنوثتها على طاولة الرغبة المشاعة في أعماقنا.

نضــت ثوبهــا المخملــي مــع نــض ثيــابي، كانــت ترتــدي جلابيــة شــفافة صــيفية صــفراء اللــون، كشــفت عــن بقــاع العشــب وصــفاء المعـــدن التـــي تغويهـــا، بـــان جســـدها المتناســـق اللطيـــف تحـــت

الضــوء الخافــت ككهــرب مضــاء لصــحراوية المفــاتن، أرتمــت علــى الفرشــة كقطعــة أثريــة ســاكنة أمــام هيــاج الــريح لــيكش عنهــا غبــرة الغريــزة، طربتهــا موجــات اللطــف حــين لامســت الشــغف المــدفون فــي أعمــاقي، داعبــتُ مواضــع الشــهوة والحنــين. عبثــتْ بصــور عــواطفي، بــدت تتلــوى فــي مكانهــا، كــأفعى الاناكونــدا تحــاول أن تلتــف علــى جســدي. عنــدها وجــدت بــين الحلمتــين الــورديتين مسرى لأنفاسـي، رميـت عليهـا شـبكة الرغبـة. بـت أشـم عبيـر رواقهـا، بيـدي أداعـب ثـديها، وبفمـي أشـتد وثاقهمـا، فاشـتد بهمـا الألـق، أهتـز غصـنها مـع شـدة عصـفي، تمسـكت بـي، شـدت جسدها إلى جسدي.

لــم تكــن بدينــة، ولــم تكــن نحيفــة، لهــا صــدر متــدفق بحيويــة، وصــرة ضــامرة فــي مســاحة الــبطن تشــبه دوار أمــواج متعاكســة، تبــدو كقمــر يتهــادى وســط ســحب ســمحاقيه تزيــد الجســد فتنــة وبهــاء.. كــان يطغــي علــى حقوهــا وبطنهــا ترهلات بســيط، أثــر حمـل قـديم شـهد عليهـا، أضـحت الخطـوط البيضـاء راكـدة تحـت محـيط الصـرة. فيمـا تهجـس بــ ثـأدة الفخـذين مكتنـزتين مشـبعة بالنشــوة، مســحوبين بدقــة مــن الكاحــل لمحــيط الأرداف بتناســق مبهر.

دخلــت لوكرهــا أشــبه بالأســد المفتــرس، راغبــا أن ألــوك مبتغــاي فــي صــحنها بعطــش المراهقين، حيــث كلمــا لامســت طرفــا منهــا؛ زدت هيامــا بهــا. بمفاتنهــا حثــت أعضــاء جســدي علــى الاتقــاد والانــدفاع بمجانــة نحــو لآلــئ مفاتنهــا، غزوتهــا بــطاقة تفــوق القدرات المكنونة في جسدي....

كما أن لرقتها وعذوبة لسانها، وهوس جنونها بي، ولسعة الشهوة الداكنة في ذاتها، التي بها واجهت غريزتي وأوقدت شمعة ذكوريتي؛ كان لها الفعل الحسن في تأجيج الشهوة في داخلي. رغبتها القوية بي حملتها على مداعبة موضع الشهوة في جسدي، فهي لا تقل عني شغفا ورغبة أطلاقا، وجدتها كالفرس الجامحة متأنقة برشاقة حركاتها في ميدان وجدي، تحركت بلهفة مجنونة حول الرغبة الجامحة في أعماقي، كهربتُ بشرتي، لسعتني، أفرغت سمومها في جسدي، فلذعتُ بوهجها المصطلي.

سايرتها، دخلت معها لعالم الغيبوبة؛ حتى ساح ريقي على ثنايا الجسد في ظل صمت تسيد الأجواء، ترطبت شفاهي ومحياي وفكري وذاتي بـ ريق عذوبتها، حملت نفسي على فك عقدة الشبق الغائرة بين مناكب الجسدين.

ألجأت الرغبة في صرة الشوق؛ حتى انفلجت نوافذ الشبق، حتى تشبعت ثناياها بزلال عصفي وإرهاصاتي، حتى تراخت بقايانا وانفلتت جوارحنا ليفترش بساط الصمت أمام أعجاز فيضي والنشوة الدائرة بيننا، ذلك ما طغى على عالمنا لبرهة زمن بعد أن التصقت هواجسنا وتطابقت أعضائنا واهوائنا على بعضها كتطابق الاشياء.

فبعد أن قطعنا شوطنا بنجاح، بعد أن عبرنا الحواجز والعوائق التي واجهتنا ونحن نجهد ونجتهد في تذليل العوائق النفسية بتعاون منقطع النظير، للارتقاء بالشبق لدرجة الوله، تشبعت مناهلنا ورغباتنا المكبوتة، حتى توجت ذكوريتي بتاج

زهرتهـا... لقـد وجـدتها قطـة أليفـة، لـم تبخـل بعطفهـا ودلالهـا بكرنفال احتفالنا..

معـروف علـيهنَّ أنهـنَّ منزوعـات العاطفـة والرغبـة، نتيجـة التكـرار والـروتين التـي يـرافقهنَّ فـي كـارهنَّ، لـذا تفقـد الشـهوة واللـذة والرغبـة الحقيقيـة، نتيجـة روتـين الممارسـة، فهـنَّ لا يشـعرن بـالجنس إلا مـا نـدر، أنمـا غايتهـا المـادة والابتـزاز و البزنس فقط...

وقبـل أن أودعهـا كنـت قـد سـألتها وهـي لازالـت مغمـورة بسـيل عـواطفي، نائمـة تحـت جسـدي مفروشـة الفخـذين تحـت رغبـاتي، مغشي بأنوثتها في ملحمة قل نظيرها، فقلت لها مستفسرا:.....

- أرى على بطنك خطوط حمل، هل أنت متزوجة ؟
- نعـم! أنـا أم لطفلـين، وفـي نهايـة كـل شـهر أشـكي لزوجـي فـاقتي ومتطلبـاتي، حتـى استولي علـى نصـف مرتبـه. أنـه مسـكين لا يُمـانع فـي إرضـائي، ثـم أتـردد إلـى هنـا بـين آونـة وأخـرى، لأجمـع مـا أجمـع مـن مـال، فـالمرأة لا تشبعها خزائن الدنيا.
- هل تحبين زوجك؟
- أنه أبو أطفالي، وهو طيب.
- وما ذنب زوجك؟ -- أليس من وضع ثقته بك؟
- بـلا وهـو يظـن كـذلك، وللعلـم أنـا موظفـة!... لا يكفينـي مرتبـي، ومـا أأخـذه مـن زوجـي ومـا أحصـل عليـه هنـا، كـل ذلـك لا يسـد طمـوحي ورغبـاتي، فهنـا أجـد ملجـأ لملـذاتي الجنسية والمادية، النقود تغريني.

بقيت صورة تلك المرأة الزانية معلقة بجدار ذهني، جعلتني أعمم سلوكها على كل نساء الأرض، جعلني أكره الزواج..

بعد فترة شهر من تلك الممارسة، بدأت تظهر تقرحات وحبوب على قلف وجلد قضيبي، فيها حرقة وألم، أيقنت بأنه عقاب رباني على جريرتي لإصابتي بمرض زهري أنتقل منها إليَّ.

7- غيرة القواد

لم يكن لداود يدٌ في اختيار مهنته، كما لم يكن له يدٌ في اختيار أمه أو موضع ولادته. جاء إلى الدنيا مكبلًا بسلاسل الخسة، محاطًا بسواد البخت والمصير، مرتديًا ثوب العار دون رغبة منه، وكأن القدر قد قرر أن يكون ديدنه في الحياة هو السقوط، لا النهوض. لم يكن كالثعبان الذي يخلع جلده، بل ظل حبيسًا في جلده الملوث، سقط حظه العاثر كحجر صوان في بركة الرذيلة، فغرق فيها حتى النخاع، وتجرد من كل هبات الدنيا الجليلة.

ولد على الفطرة، لكن فمه كان يلوك ملعقة الفساد، ليكون طُعمًا لفم الزمن، متحملًا قسوته وشقاءه. سقط قبل أن يولد، قبل أن يدرك الدنيا، قبل أن يعرف أن هناك عقابًا ربانيًا قد يطال من لم يقترف ذنبًا. داود، ذلك المسالم الذي لبسته الذنوب وهو بريء منها، حاصرته الظروف فألبسته تاج الخسة وأسمال الثياب، ونُسبت إليه الآثام دون أن يختارها، كان مسيرًا في ظرفه، لا يملك من أمره شيئًا، ولد والحبل السري للعار يقمط جسده.

لم يعرف أباه، فقد جاء إلى الدنيا كطفل غير شرعي في بيت تفوح منه رائحة الدعارة، التصقت به صفة الرذيلة منذ اللحظة الأولى، لا لذنب اقترفه، بل لأن أمه كانت مومسًا، مارست البغاء مع رجالٍ لا تعرف أسماءهم، فحبلت به، وولدته في

ذات الــوكر الــذي شــهد لحظــات خزيهــا، دون أن تمنحــه حــق الاختيار أو حتى اسمًا يليق بإنسانيته.

كبـر وكبـرت معـه الكراهيـة، تـدرجت أمـه مـن مـومس إلـى قـوادة، علمتــه مهنتهــا، فشــب فــي ظلهــا، وذاع صــيته حتــى عُــرف بــين المــلأ بــداود القــواد. ورث عنهــا وكــرًا للرذيلــة، ووســع نشــاطه، حتـــى ارتبطـــت علاقاتـــه بسياســـيين وتجـــار ومنحـــرفين، أولئـــك الــذين يخشــون علــى ســمعتهم، فوجــدوا فــي وكــره مــلاذًا يخفــي هويــاتهم. كــان يوفــق بــين الزبــائن والعــاهرات، ويــؤمن لنفســه موقعًــا ونفــوذًا لا يُضــاهى، حتـــى صـــار لا يقـــف أمـــام رغباتـــه شيء، وتمكن من السيطرة على أصحاب القرار والنفوذ.

ولـد بـين الأزقـة المشـبعة بالرطوبـة، كبـر وهـو ابـن كـارٍ فُـرض عليــه، عــرف البــذخ والفســق والســكر وزيــغ النســاء، تشــبعت أفكـــاره بالموبقـــات، أدمـــن المســـكرات، ومـــارس الرذيلـــة قبـــل أقرانـــه، حتـــى مســـخته الظـــروف عـــن قـــيم المجتمـــع ومبادئـــه. كشـطت عنــه الغيـرة، وسـلبت منــه العـزة والكرامـة، حتـى نسـي ذاتــه وقـدره، عــاش وحيـدًا فــي زنقتــه، لا يعـرف مـن الـدين سـوى اسـمه، لـم ينتبـه لمنـائر المسـاجد، ولـم يسـمع صـوت الأذان قـط. لـم يعـرف مـن ألـوان الحيـاة سـوى الأسـود، ولـم يسـلك طريقًـا سـوى ذلك المظلل الذي سلبه من المجتمع.

عــاش شــبابه كــالأعمى، لا صــديق، لا حبيــب، لا رفيــق، لا خيــار ســوى عصــاه التــي يهــش بهــا العــاهرات. الكلمــات التــي يســمعها تكـاد تكـون غريبـة عليـه، لا يميـز بـين الشـرف والخسـة، إلا بعـد أن شــابت ذوائــب رأســه وابيضــت لحيتــه. الأســماء لا تعنيــه، فهــي

مجرد كلمات في قاموس اللغة، لا تحرك فيه شعورًا، ولا تثير فيه معنى. امتزجت المعاني في ذهنه، واختلطت الأمور، حتى بات يعيش في عالم لا يفرق فيه بين ألوان الطيف، كلها تجسدت في لون داكن واحد.

وحين هفا بي الشوق لزيارة أحد أوكار الدعارة، كان داود مديرًا لها. دخلت أحد أوكاره برغبة جامحة، أود أن أجرب فروسيتي في ميدان الوله. رأيت خليطًا من العاهرات: عاملات، موظفات، فنانات، غجريات... وقعت عيني على إحداهن، ادعت أن اسمها بثينة، وهو اسم مستعار، اكتشفت لاحقًا أنها راقصة في الفرقة القومية للإذاعة والتلفزيون، ثم أصبحت فنانة مشهورة.

سألتها بعد أن مارست الرذيلة معها:

- تبدين من ذوات الأصول، ما دعاك إلى هذه الأماكن الضحلة؟
- وما دعاك أنت؟
- التجربة.
- دعتني المادة، أنا مطلقة ولي طفلة عمرها أربع سنوات، الحياة لا تطاق، مرتبي لا يكفيني...
- لماذا لا تعودي لزوجك؟
- مفلس لا يملك شيئًا.

تركتني كلماتها فريسة للشك، كنت حينها فتيًا يافعًا، لم أستوعب حقيقة انحرافها، لما تملكه من فتنة وقوام رشيق،

بقيت صورتها معلقة على جدار ذهني، جعلتني أعمم سلوكها على كل النساء. صرت أراقب أمي، أشك في بنت الجار التي أعشقها، أتخيل جسدها، يراودني طيفها في المنام، تفرض عليّ حالة الاستمناء في خلوتي، حين يشتط الذهن لحلاوة جسدها.

تركت تلك المومس خارطة الرذيلة في ذهني، جعلتني أسمع صوتها يتردد على مسامعي، كلماتها تجلجل ذاكرتي، طيفها ينبثق من وسادتي. لكنني أتذكر أيضًا تلك العفيفة التي زجرت عماد كشخه حين حاول معاكستها، انفجرت بوجهه، رمته بحجر الفضيحة، كسرت شوكة غروره، لم يعد ينظر إليها إلا بعين الانكسار والندم.

بعد أن عدت من الأسر، بعد خمس سنوات من الحرب مع إيران، لم أدرك حجم الخسارة التي نالت من عمري، رجعت أحاول الانسجام مع المجتمع، أبحث عن لقمة العيش، وعن فتاة أحلامي. تجاوزت الثلاثين ولم أحقق شيئًا، هربت من واقعي إلى كلمات تلك المومس، التي حشرتني بين فقري وديني وخيانة الزوجة.

لكن الله لا ينسى عبده، اقتنعت بزوجة عفيفة، ساعدني والدها على اقتناء سيارة أجرة، صرت أعمل بها ليلًا ونهارًا، أبحث عن رزقي، أحاول أن ألحق بركب الأيام التي خسرتها، لأمحي جزءًا مما رسمته تلك العاهرة في ذاكرتي.

وفي يوم، جمعت مبلغًا جيدًا، وضعته بين يدي زوجتي، تهلل وجهها، قبلتني من جبيني، شعرت بعفتها وكرامتها،

احتضنتني، لوت قامة الشك في ذهني، صرت أغرم بها يومًا بعد يوم، أضحى الجمال يأخذ منحى آخر، جمال الروح والطيبة والذوق. ومع ذلك، بقيت نغصة الشك التي زرعتها تلك الغانية تغز الفؤاد، لم أستطع أن أمحي صورتها وكلماتها من الذاكرة.

وفي أحد أيام الصيف القائظ، كنت أتنقل بعجلة التكسي، أوقفني رجل خمسيني، طلب أن أوصله إلى باب الشرقي، جلس إلى جانبي، يمج دخان سيجارته، عيناه تبحلقان في وجهي، لم ينبس بكلمة، وأنا كذلك.

في الطريق، أشارت فتاتان لي، يتصبب العرق من وجوههن، أردت أن أقلهما، لكنه رفض، قال برجاء:

- أرجوك لا تقف، سأعوضك عن الأجرة كاملة.

أذعنت له، لم أذعن للشمس ولا لرحمة الله، رضخت لطلبه، فهو صاحب الحق. مضيت في الطريق، وسط الزحام، حتى وصلنا. قبل أن ينزل، استوقفته:

- بالله يا عم، لمَ رفضت صعود الفتاتين؟
- يا هذا، ألا تعرفني من أنا؟
- آسف يا عم، لم أرك من قبل، أنا سائق جديد...
- أنا...أنا داوود القواد، أنا أبن هذه المنطقة ومعروف فيها، بل أجزم أكاد أعرف كل عاهرات المنطقة. ممكن أن تسميني مختار عاهرات بغداد، لن أخجل من مهنتي كوني تربيت في أحضانها منذ الصغر، لا أعرف كارا

غيـره، لـذا أصـبحت الخبـرة مترسـخة فـي ذهنـي تمامـا. أعــرف كيفيــة التعامــل معهــنَّ واقــبض مــن الآخــرين بحرفيـة، لكـنْ صـدقني أنهـا مهنـة وسـخة، قـذرة وحقيـرة، تجرعـت سمها ومرهـا علـى مضض، جاريتهـا العمر كلـه مغصوبا، كان القدر قد سبقني فرماني بأحضانها..

أجـزم لـك بـأن تلكـا الفتـاتين منظـرهن لا يـدل علـى أنهـن مـن العـاهرات، أراهـنَّ علـى أنهـن بنـات أنـاس محترمـات، أراهــنَّ علــى عفــتهن وشــرفهن، فلــيس كـل طيـر يأكـل لحمه، بعض الطيور لحومها مر.

هكـذا علمتنــي التجـارب وعلمنــي الـزمن، أعطـاني خبـرة وبصـيرة فـي هـذا الشـأن-- لـذا لـم أرد أن يـراهنَّ أحـدا مـا مـن النـاس العامـة وهـن جالسـات بقربـي، فينظـر إلـيهنَّ نظــرة دونيــة ناقصـــة، فيتوســخن بقــذارتي. يــا عزيــزي الشــرف غــال وعزيــز جــدا، لــن يشــعر بقيمتــه إلا مــن أفتقده.

- أشكرك علـى صـراحتك يـا عـم، لقـد انتشـلتني مـن هـم أكـل مخـي، لـم أكـن أعـرف للقـواد غيـرة علـى بنـات النـاس، لـذا علــى الــرغم مــن دانئــة عملــك هــذا الــذي تشــبث بــك أو تشـبثت بـه، مـن غيـر أن تكـون لـك إرادة، أنمـا جعلتنــي أكـن لـك احترامـا جليـا تسـتحقه لشـهامتك، كأنـك أزحـت بقايـا شـوائب علقـت فـي ذهنـي وقلبـي منـذ زمـن بعيـد..... فـــ والله لــن ألأخــذ منــك أجــرة التكســي، لقــد أغنيتنــي، مــا تعلمتـــه منـــك زادنـــي راحـــة وســـكينة، شـــكرا لـــك ولصراحتك.

- يا بني أنا لم أختر مهنتي، وهذه المهنة لم تدع لي فرصة العيش بكرامة ونزاهة كباقي الخلق...لم أكن أفهم سر الحياة، أو أهتم بها كما يجب إلا بعد أن غزى الشيب رأسي. لا تقيم كل النساء بمنظار واحد، فالنساء التي بمعيتي كلهن ناقصات عقل ودين، ليس لهن دراية كافية بمعنى الشرف.

حينها تركته وفي قلبي شعلة نصر وأمان تضيء سبيلي، مضيت أحفر جوف الزمن، أبحث عن صور العزة والكرامة بشرف الرزق، ففي ذاك اليوم ختمت على أوراق شرف زوجتي الغالية، حذفت خطوط الشك نهائيا من ذهني وأطره، نسيت ما أملته على فكري تلك الغانية. بل بصم القواد داوود على عفة زوجتي والنساء دون أن يعرفهن، بذلك محيت وللأبد؛ صورة تلك الزانية بثينة.

كما أدركت بيقين- بأنَّ القواد أشرف من بعض سياسي البلد الذين يتاجرون بأعراض وشرف العفيفات من النساء لأغراض أمنية وشخصية وسياسية.

فلم ينطق المتنبي (رحمه الله) إلا درر...

ذلَّ من يغبط الذليل بعيش ---- رب عيش أخف منه الحمامُ

من يهن يسهل الهوان عليه ------- ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

8- البصمة

استفاق من نومه على هاجسٍ نابعٍ من حسه المرهف، ذلك الحس المغمور بالرقة والإحساس، والمشحون بمشاعر جياشة تجاه دينه، وقومه، وناسه. كان شعورًا شفافًا، ينساب بنعومة الملمس الحريري، يعانق وطنه الذي غادره، والبلد الذي احتضنه مهاجرًا.

لم يكن من المتسولين أو العابثين، ولا من أولئك الذين أغوتهم السبل والطمع، بل كان إنسانًا بسيطًا، يملأ قلبه شغاف الحب والعمل، من الذين عمدوا ذواتهم بالإيمان والسؤدد. دفعته ظروف بلده القاسية إلى الرحيل، باحثًا عن وجهة أمان يستقر فيها، خوفًا على نفسه وأطفاله من بطش الزمن، ومن غدر الغادرين. كان يخشى أن تُطمس هويته تحت أقدام العصاة والغزاة والخونة المتنفذين، أولئك الذين يتلذذ العدو بسحق الأبرياء على أعتاب فكر رجعي، وأتراس عقائد دنيوية، بعيدة عن جذور العلاقة بالتاريخ والوطن.

استفاق هاجسه على ربتٍ من حسه المرهف، كربت الودق حين يلامس الأرض، دكت مشاعره بندى الود ورهافة الحلم. اهتز ظنه في أعماقه، وتساقطت أوراق الكسل عن جسده، فغدا التناغم فطريًا بين ثنايا الصمت والحلم المتقد. رغبة جياشة راوغت داخله، تفجرت بفيض عزمه وإصراره على رفد تلك المشاعر بيقين من خيوط الشمس، تلك التي تأبى أن تراكم قلقها قبل أن تستكين الأحلام في مواضعها.

صار يتساءل مع نفسه، ويجيب ذاته، وهو يدور في دوامة صراع فكري شغل باله في ذلك الفراغ المطلق: لماذا لا نثبت

لهؤلاء الغزاة بأننا أعمق منهم، أكثر إنسانية، وأعرق حضارة؟ هؤلاء الذين شوهوا صورتنا كمسلمين وعرب في أعين العالم، عبر إعلامهم المزيف. لماذا لا نعكس الصورة الحقيقية التي تمثلنا؟ كلٌ منا من موقعه، حسب إمكاناته، يجب أن يقاوم همجية الغزاة، بأن يكون في واجهة التحدي، بما هو ممكن ومستطاع.

نحن هنا، كمهاجرين، كأغلبية، نستطيع أن نواجه أعداءنا من مواقعنا، بعملٍ يظهر حقيقتنا، ويغير نظرة المجتمع إلينا. عملٌ جاد، يعكس ثقافتنا، معنويًا كان أو ماديًا، يمثل مشاعرنا، يرفع من شأننا، ويعبر عن معدننا الطيب.

أعداؤنا خبث، دعنا نكشف زيفهم ونواياهم للعالم، ندمغهم بالحقيقة، ونزيح هالات الغموض عن أعين الآخرين، تلك التي ما عادت تمطر سوى سموم في وجوهنا. دعنا نحرق صور ادعائهم الزائف، فدائمًا ما يكون للحق سطوة على الباطل، فيزهقه.

نعم، صورتنا مهزوزة في أعين العالم، بفعل قوة الإعلام الغربي، أمام ضعف تحركاتنا. هم يتحركون على نطاق دول ومنظمات، بأجندات وعملاء، يؤازر بعضهم بعضًا، ونحن نتحرك في أزقة الأحلام الضيقة، كأفراد منفصلين، تكاد المقارنة لا تُقاس ولا تُقرأ، باهتة، ضعيفة، لكنها حية في عيوننا، وضمائرنا، وقلوبنا.

للحجر شأنٌ وفعلٌ في صنع الأمواج المتعاقبة، إذا ما سقط في جوف بحيرة راكدة. وللبحيرة ردة فعلٍ تجاه الحجر الساقط، إذ تنفعل، وتزج بكتل الأمواج الراقصة بين أعين المغرمين بها، دلالة على رفضها للعبثية التي أثرت على سكونها.

بسمط الحجر، تتحرك الروح في جسد البحيرة، فتخرج عن طور السكون إلى طور الديناميكية. حينها يختلف المنظر عما سبقه، وتختلف زاوية الرؤية، وتتنوع أبعاد الفكرة عند الناظرين، كلٌ حسب موقعه. ستكون أكثر قبولًا وجاذبية للمفسرين والمتتبعين، وهكذا سيكون لتحركنا تأثير يوازي تأثير البحيرة.

نحن الآن نعيش في عالمٍ لا يعدو كونه قرية صغيرة، بفضل الإنترنت، والكمبيوتر، والموبايل. علينا أن نستغل هذه الميزة، نصور نشاطاتنا، نبث كل ما نستطيع أن نثبت به أصالتنا وهويتنا، نعبر عن غاياتنا، عن أهدافنا المرحلية والبعيدة، نوضح المبادئ التي تشربناها من منهلها، نثبت للعالم أجمع أن ثيابنا طاهرة، ناصعة البياض، وقلوبنا فسحة محبة، تتصف بالرهافة والرقة، عكس ما يصوره الأعداء في خدعهم وتشويههم لنا.

نحن لا نعرف الموت كما يُعرّف عادةً؛ فالموت في نظرنا ليس فقدان الروح، بل هو سكونٌ مطلق، تجمّدٌ للعقل، وانطفاءٌ للمشاعر. الموت الحقيقي هو أن يُحبس الإنسان في فريزر

الخوف والجبن، أن يُقصى عن دائرة الفعل، ويغدو كائنًا جامدًا لا يهش ولا ينش، كما يقول المثل الشعبي.

هذه الحياة لم تُخلق عبثًا، ولم تُمنح لنا لنركن إلى زوايا الخمول وننتظر دنو الأجل. علينا أن نتحرك، أن تَحفّ أقدامنا الطرق، ففي كل خطوة يكمن هدف، وفي كل سعيٍ معنى. الحياة تحمل سر الوجود الإلهي، ونحن كبشر ننجذب إلى ذلك السر دون أن نشعر، نستشعر تجددها، وندرك أن الكون لا يعرف السكون، بل يتحرك بأسره في دورانٍ أبدي، من الشمس إلى الكواكب والنجوم، كلها تدور في أفلاكها بحركات لولبية، كأنها ترقص حول قرص الفردوس، فتُبهر الناظر بعظمة الخالق، الذي قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

هذا الوعي الإلهي يدفعنا إلى رفض الاستكانة، إلى العمل الذي يمجّدنا في أعين من لم نرَ منهم إلا طيبة النفس وكرم الضيافة.

في صباحٍ خريفي، جلس يتأمل، والأفكار تتدفق في ذهنه كالعواصف، لا يعرف استقرارًا. يدور حول نفسه، يتفحص الجدران، يتأمل البحيرة، ينظر من النافذة، يبحث عن ومضة، عن بذرةٍ تنبت في هذه الأرض، أو نورٍ يشع في جوف السماء. يسأل نفسه ويجيب:.....

"ماذا عليَّ أن أعمل؟ كيف أزيح شجرةً شائكة عن الطريق دون أن تدمى أناملي؟ هل العقدة في الشجرة أم في عقلي؟ الشجرة ثابتة، هي الأصل، أما العقل فهو المتطفل، لذا عليّ أن أدرس محيطها.

كيف أجعل من هذه البنايات والغابة مزارًا يؤمه الناس؟ كيف أضفي على الموقع صفة السياحة؟ ربما يحتاج إلى مدينة ألعاب إلكترونية أو ملاهي، لكن ذلك مكلف. ومع ذلك، يبقى الحلم حاضرًا على طاولة الأمد البعيد.

كيف أمنح هذه البقعة قدسيةً تشع بهاءً في أعين الناظرين؟ فالمكان لا يحتاج إلى إبداع فني كبير؛ البحيرة موجودة، والغابة متاخمة، الأشجار مبثوثة، والشارع موصول، والمنظر بديع، والسكن والمطعم مهيآن. ما ينقصه هو الومضة الساحرة، سطوع القمر في ليلةٍ داجية.

ربما ينقصه حديقة حيوانات صغيرة، تضم نماذج من حيوانات البراري السويدية النادرة: الأيل، الوشق، الرنة، الدب، الأرانب، الغزلان، والطيور من بط ووز ونعامة وبجع ولقلق وكروان وفلامنكو... هذه الحيوانات، مع الطبيعة الخلابة، ستجعل من المكان واجهة سياحية مميزة. وقد تكون الغابة المجاورة لملعب الغولف موقعًا مناسبًا لذلك.

لكن المشروع يحتاج إلى إمكانات دولة: صيد، أبنية، إدارة، موظفين، خدمات، وغذاء يومي مكلف. لا، لا... الأمر صعب التطبيق. دعني أفكر بفكرة معقولة. كل شيء موجود، لكن هناك شيء ناقص، شيء ضائع لا يخطر على البال. أبحث عن تلك الومضة، عن البصمة التي تمنح المكان هوية التميز."

بعد الفطور، وقف يتأمل أبو عبدو، رفيق دربه الطويل، عسى أن يعينه على ولادة الفكرة. دار بينهما نقاش لم يفضِ إلى شيء، لكنه زرع في داخله تحديًا صريحًا لمواصلة السعي:....

- ترى يا أبو عبدو، هل لديك فكرة تنقذني من الصراع الذي يهزمني؟
- ما بك يا أبو وسيم!.. هل جننت؟
- أعاني من ولادة فكرة، لكنها عصية.
- هههه، راجع مستشفى الولادة.
- لا تكن سخيفًا، أنا جاد. أبحث عن البصمة الضائعة.
- ألم تقل أنك تعاني من ولادة؟ هههه. لم أفهم عليك.
- ركّز معي... أريد أن أجعل من هذا الموقع وجهة سياحية.
- بسيطة جدًا.
- هيا، أرفدني بفكرتك.
- غيّر شكل البحيرة إلى دائري، وضع جبلًا مخروطيًا في وسطها.
- لا تكن سخيفًا، أريد حلًا يسعفني.
- أنت مجنون! المنطقة سياحية من أصلها، ماذا تريد أن تفعل بها؟ هل أنت إله لتقول للطبيعة "كن" فتكون؟
- فكرك محدود، لا تخرج عن إطارك الضيق. أنا أريد أن أضع إطارًا لهذه اللوحة الجميلة، أجعلها متميزة عن كل مناطق السويد.
- إذًا، أنشئ مطارًا! يجبر الركاب على المرور بها، ليروا البحيرة والأشجار الباسقة من صفصاف

وصنوبر وأثل. الشمس هنا نادرًا ما تُرى، حتى لو أشرقت، لا تتخلل الأشجار بكامل خيوطها.

- والله فكرة... لكن بدل المطار، أفكر بأن أنزل القمر من السماء، أثبته بخيوط في قمم الأشجار، ليكون ليلنا نهارًا دائمًا.
- قلت لك، أنت مجنون!
- حين أبدأ بالعمل، لا تتقاعس، وسنرى من هو المجنون.

كان يفكر دون هوادة، وتراءى ذلك للآخرين، خاصة لأم وسيم، أقرب الناس إليه. تعرفه جيدًا، تعرف طباعه وهوسه، وتعلم أنه إذا شغلت باله فكرة، لن يتخلى عنها حتى يبلغ مبتغاه.

لكنها شعرت بقلق، ما الذي يشغله؟ هل أغرم بغيرها؟ لا، مستحيل. لكنها أرادت أن تعرف، أن تكسر قفل ذهنه، فلم تصبر، وهاجمته بعاطفتها قائلة... في قلب الغربة، يولد الحلم من رحم الألم.

- ما بك يا حبيبي؟ بمَ أنت مشغول؟
- ألا ترين ما نحن فيه؟ لا بد من عمل يثبت من نحن. الإعلام الخارجي ضخم، تحركه أيادٍ خفية معادية لنا. كيف نواجه هذا الزيف؟
- ولمَ تشغل بالك؟ ألأنت المعني أم هؤلاء الدواعش؟
- العمل الإرهابي في فرنسا استُغل ليُلصق بنا وبديننا الحنيف، رغم أن شعبنا هناك يُباد، وبلادنا تُغتصب بأيدٍ

قذرة. فرنسا نفسها دعمت الإرهاب في سوريا ولبنان وليبيا، وقبلها دمرت تونس والجزائر. بريطانيا زرعت الكيان الصهيوني في قلب الوطن، ليبتز الشعوب العربية. من أعطاهم الحق ليستبيحوا دماء الفلسطينيين؟ من احتل العراق وشرد شعبه؟ من دعم العصابات والميليشيات التي تجوب بلداننا كالوباء؟ من شردنا وأوصلنا إلى هنا؟ نحن لم نكن طرفًا في هذه المصائب، لكننا ندفع الثمن. ألا يجب أن نرد على هذه الكلاب المسعورة بعمل يحفظ كرامتنا؟

- وماذا بيدك أن تفعل؟ لقد شُرّدنا، فما باليد من حيلة؟
- حتى لو شُرّدنا، هناك ما لا يمكنهم السيطرة عليه: قلوبنا وعقولنا. قلوبنا مليئة بالمحبة والإخلاص، وعقولنا هي السلاح الأقوى، خارجة عن سيطرتهم. نحن نفكر بعكس تيارهم، تفكيرنا نابع من حضارتنا، من ديننا، من أخلاقنا. نحن نؤمن بالحب والعمل، وهم يؤمنون بالقتل والاغتصاب. لن يستطيعوا تجريدنا من نور الفكر. أريد أن أستغل عقلي في عمل يمجدنا كمسلمين وكعرب في هذه البقعة النائية، ليقولوا يومًا: هنا كانوا من نعتتهم الإمبريالية بالإرهاب.

بالله، أيوجد إرهاب أكثر من إرهابهم لنا؟

أخذ ورقة وقلمًا من ابنته لانا، وبدأ يرسم شكل المنطقة. الورقة قد تعينه على رؤية البصمة التي يبحث عنها، فصغر حجمها يمنحه وضوحًا أكثر من الأرض الواسعة.

- انظري يا أم وسيم، هنا ملعب الغولف، وهنا بناية أوستربو، اسكولان، فاستربو، المطعم، نوريبو، أوليمبن. ألا ترين أن شكل المنطقة بيضوي، يشبه دائرة القطع الناقص؟ البحيرة تحدها من الجنوب، والغابات من الأطراف الأخرى.
- وماذا يعني ذلك؟
- يعني أن المنطقة بحاجة إلى علامة بارزة في الوسط، تشع نورًا على المكان.

ظل هذا الهاجس يشغله: كيف يصل إلى البصمة؟ ما شكلها؟ ما لونها؟ هل هي نجمة في السماء، أم أقرب من حبل الوريد؟

وفي خضم تفكيره، باغتته رغدة، ابنة صديقه، بسؤال بريء:..

- عمو أبو وسيم، كيف يكون "العَلَمُ نورٌ"؟ لم أفهم العبارة.
- لا يا حلوة، ليس "العَلَمُ نورٌ"، بل "العِلْمُ نورٌ"... العَلَم... العَلم... نعم! وجدتها! العلم هو البصمة التي أبحث عنها.

اضحى يبشر أم وسيم، والفرحة تملأ قلبه. لقد حُلت العقدة، واستُلهمت الفكرة من جملة عابرة أخطأت بلفظها طفلة. نعم، كل شيء في الطبيعة مسخر لنا. ألم يتعلم قابيل دفن أخيه من غراب؟ علينا أن نستمد أفكارنا من محيطنا، من تجارب الآخرين، حتى لو كانت بسيطة.

بعد أن استلهم الفكرة، قرر إشراك الجميع في تنفيذها، ليكون لها طابع جماعي.

في إحدى الأمسيات، اجتمع مع لفيف من معارفه: لورانس، الدكتور عبد العزيز، أبو عبدو، أبو مرق (لكثرة شراهته)، ترامب (رجل من حلب يشبه الرئيس الأمريكي)، وأحد السويديين. اجتمعوا في باحة الجلوس المطلة على البحيرة أمام المطعم، وطرح عليهم فكرة إنشاء أكبر علم في السويد.

- يا جماعة، عندي فكرة: إنشاء أكبر علم في السويد. أحتاج مساعدتكم في التنفيذ، المواد، التكلفة... ما رأيك يا دكتور؟
- فكرة لطيفة. هل ينفع القماش؟
- فكرت أن نجعله من الحجر أو الحصى الناعم، نرتبه على مساحة 200 متر مربع، ونصبغ البقعة بألوان العلم. – الحصى يجمع الغبار. أنا أفكر بالقوارير الملونة. ما رأيك يا بار؟
- صفائح البلاستيك الملونة قد تكون أفضل.
- لا، البلاستيك يتأثر بالطقس، يبهت لونه، ويجمع الغبار. القوارير قد تتكسر. أنا أفضل رسمه على جدار إحدى البنايات.
- ما رأيكم أن نشرك السيدة رندا؟ مهندسة شاطرة، قد يكون لديها حل.

رندا، سيدة مرموقة في عقدها الخامس، تمشي بخطى هادئة، لا يُسمع لوقعها همس، دائمًا ما تنفرد بذهابها وإيابها لبناية

أوســتربو وحيــدة. اســتأذنها لــورانس للانضــمام، فلبّــت الــدعوة بسرور.

- يـا سيدة رنـدا، أريـد أن أعمـل صـرحًا كبيـرًا يشـرف أهـل الكامـب: أكبـر علـم فـي السـويد. محتـار فـي المـادة. هـل لديك فكرة؟
- السـويد مشـهورة بالغابـات، فالخشـب متـوفر ورخـيص، ويتحمل تغيرات الطقس.
- يسلم ثمك! فكرة صائبة. الخشب هو الحل.

بـدأ يفكـر فـي نـوع الخشـب، تكلفتـه، طريقـة تثبيتـه... لـم يهـدأ لـه بال، كطائر مهاجر يبحث عن مأوى.

فــي صــباح اليــوم التــالي، عــرض الفكــرة علــى إدارة الكامــب، وبالـذات علـى السيد بـار المـدير. وجـد تأييـدًا كبيـرًا، ونُقلـت الفكـرة إلــى مسـؤولي المنطقـة والخيـرين مـن أبنـاء السـويد. طلـب مـن لــورانس تصــميم نمــوذج فوتوشــوب، فاجتهــد وقــدّم نموذجًــا مصغرًا.

مـا شـغله هـو نـوع الخشـب: هـل يمـد مسـاطر خشـب؟ هـل يفـرش الأرض بقطع مضغوطة؟ هل يزرعها كعرانيس؟

- يا إلهي، أسعفني!

ثـم اهتـدى إلـى الفكـرة: نـزرع الخشـب. نقطـع المسـاطر بطـول 30 سـم، نـدبب أحـد رؤوسـها، ونطلـي الطـرف الآخـر بـألوان

العلم، ثم ندقها في الأرض كالمسامير. لن تتأثر بالتعرية، ويمكن إعادة طلائها دوريًا.

قال كونفوشيوس: "ما يبحث عنه الرجل المتفوق في نفسه، يبحث عنه الرجل العادي في الآخرين."

وهذا ينطبق على أبو وسيم. عصامي، ينقّب عن الفكرة بأظافره حتى يقطر منها الدم.

لم يتوانَ حتى وصل إلى نتيجة مرضية. بدأ بجولات مكوكية لمخازن بيع الخشب في مدينة كنيستا وفلين. تدخل عدد من الخيرين، وقدموا الأرض، المادة، الورشة، النقل، وكل المستلزمات.

حدد الموقع كما أخبر زوجته: في قلب القطعة، وسط العيون، في مكان تعليق القمر.

ما إن جز الحشائش، حتى اندفع عناصر الكامب للعمل. الفكرة كانت سحرية، أجبرت الجميع على المشاركة دون دعوة. من قطع الخشب، من صبغه، من نقله، من غرسه بالمطارق، حتى تشمّعت الثياب من الجهد والعرق رغم برد كانون الأول. ومن أوصل التيار الكهربائي رغم الثلج. الكل اجتهد كخلية نحل.

الفكرة منحت الجهد ديناميكية سحرية، تناغمت مع تكورها، ارتقت مع التنفيذ، حتى بات الجهد كمصباح يستلهم منه الآخرون.

رُسم شكل القمر فوق كامب صولبكا. ظهرت البصمة كصرح يبتهج به الجميع. السويد ابتسمت لهذا العمل، وتابعت وسائل إعلامها الحدث يومًا بعد يوم. وربما يُخلّد لعشرات السنين.

وُضع للعلم إطار بعرض متر، زُيّن بشبكة من الحصى الناعم المطلي بالإسمنت الأبيض. أُحيط بهالة من الإضاءة الساطعة بأربعة بلوجكتورات، فسطع ليلًا ونهارًا. شغل العلم مساحة 20×30 مترًا مربعًا.

بعد انتهاء العمل، وقف السيد عماد بجانب رفيقه أبو عبدو، يتأمل المشروع مبتسمًا، فخورًا بنفسه وبرفاقه، وقال ممازحًا:

- ما رأيك يا أبو عبدو؟
- الم اقل بأنك مجنون.

2016/1/ 1

9- كيد العقارب

ذات يـوم كنــت أتنــزه وأبنــي فــي حديقــة حيوانــات مدينــة العــين، حينهــا ســألني ســؤالا عــابرا حــين دخلنــا فــي صــالة الزواحــف والعقارب والثعابين، حيث قال:..

- بابــا؛ هــل لــك معلومــات عــن العقــارب وســمها قــرأت معلومـة فـي الانترنـت تقـول بـأن لتـر سـم العقـرب بمليـون دولار، كمـا الخبـر يقـول بـأن لدغـة العقـرب لا تقتـل أنمـا تؤذي فقط، هل هذا صحيح؟
- والله يــا بنــي أصــحاب الشــأن والاختصــاص هــم أدرى بــذلك، أقصــد فــرق الطــب والصــيدلة. لآنهــم مــن خــلال تحليـل محلـول السـم يمكـنهم معرفـة قـوة تـأثيره علـى خلايــا الأعصــاب والمــخ... لكنــي لــي علاقــة وطيــدة بالعقــارب أعتبرهــا صــداقة دائميــة، لقــد جمعتنــي الصــدفة بهــا فــي مواضــع شــتى، سأشــرحها لــك لتكــون لــك فكــرة عنها.

برنامج شايف خير

لسعة العقرب وذاكرة "شايف خير"

فــي مســاءٍ مــن مســاءات أيلــول المنعشــة، كنــتُ فتيــا فــي الحاديــة عشــرة مــن عمــري، أتــابع برنامجًــا تلفزيونيًــا شــهيرًا يُعــرض مســاء كــل خمــيس، اســمه "شــايف خيــر"، يقدمــه فخــري الزبيــدي،

صاحب النكتة والطرفة، الذي كان يملأ البيوتات العراقية بالبهجة والضحكة. لم يكن في بيتنا تلفاز، شأننا شأن معظم الناس آنذاك، فكنت أتابع البرنامج من خارج مقهى "منشد" القريب من دارنا، واقفًا خلف الأرائك، أستند على ظهورها، منتعلًا نعالًا إسفنجيًا، أرفع نفسي على رؤوس أصابعي لأتجاوز رؤوس الواقفين والجلوس، محاولًا أن أقتنص مشهدًا من الشاشة الصغيرة التي تبعد عني عشرين مترًا.

في ذروة انشغال الجميع بالبرنامج، وفي لحظةٍ كانت فيها المفاجآت تتوالى على الشاشة، صرختُ فجأة:...."آخ**!**"

كأن صعقة كهربائية اخترقت جسدي من إصبع قدمي الكبير الأيسر، شلت قدمي، وزاغت عيناي، لأرى عقربة سوداء متوسطة الحجم تزحف بين أرجل الأرائك، تحاول الانزواء داخل المقهى. صرختُ: "عقربة سوداء دخلت المقهى**!**"

شعرتُ بنارٍ تشتعل في رجلي، من الأصبع حتى الورك، الألم كان لا يُحتمل، صرت أصرخ وأبكي، فانتبه إليّ الجمع، وتركوا البرنامج، وبدأوا يبحثون عن العقربة، لكنها اختفت عن الأنظار، تاركة خلفها قلقًا وخوفًا.

لم أعد أحتمل البقاء، فقررت العودة إلى البيت، أسحب رجلي الأيسر التي فقدت الإحساس بها تمامًا، كأنها كتلة ثقيلة معلقة بجسدي، لا أستطيع الارتكاز عليها. المسافة بين المقهى والبيت كانت مئة متر، لكنها بدت لي كأنها لا تنتهي. كنت أزحف زحف السلحفاة، بين الآه والأنين، والدموع تنهمر من

عينـــي كصـــنابير مفتوحـــة، والشـــارع خـــالٍ مـــن البشـــر، فالكـــل منشغل بالبرنامج.

حــين وصــلت إلــى البيــت، دلقــت البــاب، ثــم دفعــت بجســدي إلــى الــداخل ككــيس دقيــق، فاســترعى ذلــك انتبــاه والــدتي وأخــي الأكبــر، اللــذين كانــا يجلســان فــي الطارمــة. كــان أخــي يلمــع خنجــرًا صــغيرًا فــي يــده، لــم يبلــغ بعــد، لكنــه انــدفع نحــوي مــذعورًا، وســألتني والدتي:

"خيرا؟ ما بك يا ابني؟"

قلتُ وأنا ألهث:

"لســعتني عقربــة فــي أصــبع قــدمي الأكبــر، وأنــا واقــف خــارج مقهى منشد أتابع برنامج شايف خير."

أخذني أخي جانبًا، وقال:

"لا تخف، أرني موضع اللسعة."

كــان موضــع الغــرزة واضــحًا، محمــرًا، فحــزَّه بخنجــره علــى شــكل علامــة زائــد، ثــم صــار يضــغط علــى الأصــبع حتــى نــزف بالســم الممــزوج بالــدم. لــم أشــعر بحــدة الخنجــر لشــدة الخــدر، لكــن مــا إن خــرج القــيح الأصــفر مــع الــدم، حتــى شــعرت براحــةٍ تــدب فــي ساقي، كأنه سحب الألم كله مع الدم المراق.

عاد الإحساس تدريجيًا إلى قدمي، وانحصر الألم في الجرح الجديد، كأن أخي سكب دلوًا من ماء مثلج على نارٍ مستعرة. سألني: "بماذا تشعر؟"

فقلتُ: "شكرا لك، انتهى كل شيء."

*****

زيارة آمر اللواء:

حين أنقذني الاستنفار من لدغة العقرب

مع أول خيوط الفجر، ومع لسعة برد الصباح التي تتسلل إلى العظام، دوّى في الأفق صوت صافرة الإنذار، أطلقها النائب ضابط ضاحي، ذلك الإنسان المرح، الطيب، ابن الناصرية، الذي تميز ببشرته البيضاء، وطوله الفارع، ونحافة جسده، وشعره الأشقر الكث المبيض.

كنت آنذاك نائمًا، تشاكسني لسعات البرد، منكمشًا تحت بطانيتي المقلمة بالأخضر والبني والأبيض، فوق فرشتي الإسفنجية البالية. تخامرني أحلام النجوى، تلك التي تشتط مع ساعات الفجر، أبحر في مركب الخيال، أتمزق بين سطوة الكرى ونشوة الأحلام، ألاحق طيف الحبيبة، أرجو عناقًا أو لمسة هوى، حتى جلجلت أذني

صـافرة ضـاحي، فهزتنـي مـن جـذوري، وأسـقطت أوراق شجونـي، ومحت كحل الوسن عن جفني.

كانـت الصــافرة نـذيرًا بتغيـر فـي الظـرف، تنـذر بخطـر قــادم، أو حالــة مســتعجلة تســتدعي التهيئـــة. الحـــرب سـجال، والمفاجـآت فيهـا لا تنتهـي. شـظايا الحلـم تلاشـت، ولـم يبـقَ منـه سـوى خـيط دخـان رقيـق تمـاهى فـي العـدم. نهضت، والريبة تسبقني، أتساءل:...

- يــا لله، خيـــر... مــاذا جــرى؟ الأجــواء هادئـــة، لا إطلاقات ولا قذائف!

ومــا إن شــرعت بغسـل وجهـي، حتـى ظهـر ضـاحي فـوق رأسي، يحفزنـي:...

- هيــا يــا عبــاس، جهـز نفسـك بسـرعة، آمـر اللــواء سيزور وحداتنا خلال ساعة!
- حاضر سيدي، خمس دقائق وأكون جاهزًا.

كــان ذلــك فــي الســاعة السادســة صــباحًا مــن أحــد أيــام تشــرين الأول عــام 1984، فـــي قــاطع شــرق البصــرة. كنـت أحـد منتسـبي رعيـل الهـواوين الثقيـل الأول، أحمـل رتبــة نائــب عريــف، صــنف فنــي، أُنيطــت بــي مســؤولية

الموقـع الفنــي للرعيـل، بعـد أن غــاب الآمــر فــي إجــازة. أما ضاحي، فكان مسؤولًا إداريًا.

تقـع علينـا مهـام تنظـيم السـجلات، خـرائط توجيـه المـدافع، إعــداد الجاهزيــة، إعطــاء أوامــر الرمــي، تنظــيم الغيــاب والخفــارات، المــؤن، العجــلات، الطلبــات، النــواقص، واستقبال الضيوف.

كنــا نعــيش فــي أرض صــحراوية جــرداء، قاحلــة، مســتوية، تغطيهــا الرمــال البيضــاء والصــفراء الدقيقــة كــدقيق البــر، تتطــاير مــع الــريح، تضــرب وجوهنــا، وتعبــث بملاجئنــا. لا حيــاة فيهــا، ســوى الجربــوع، رفيــق الــدرب، الــذي يقتسـم معنــا الــزاد والسـكن، يسـرق المـؤن، يقــرض الأكيــاس والبطــاطين بأســنانه الحــادة كمســامير الأحذية.

الريــاح لا تهـدأ نهــارًا، تبـدأ بعزيفهــا فــي التاسـعة صـباحًا، وتشـتد عنـد الظهيـرة، ثـم تهـدأ بعـد الثالثـة، وتخمـد بعـد الخامســة مســاء. الليــل ســاكن، تــتلألأ فيــه النجــوم ببريــق ساحر.

كنــا نغــرق فــي الغبــار، فــي الفــرش، فــي الملابــس، فــي الأنفــاس، فــي الطعــام، فــي كــل شــيء. لا نغتســل كمــا

يجب، ولا نأكل برضا، أضحينا جزءًا من الحالة، كأننا حشرات أصابها سكر الموت. من يعاني الربو كان في محنة، فالرؤية تنعدم، والهواء مشبع بذرات الرمل، لا تخترق الأبصار أكثر من عشرة أمتار.

نهضت من فرشتي، ارتديت الجوارب، ثم البسطار ما أن ارتديته حتى ضربت بالكعب الأرض بقوة، ثم أرفع سحاب الحذاء، ليطبق على رسغي. شعرت بكتلة صلبة تحت كاحلي الأيمن، كأنها حفنة تراب، تجاهلتها لعجزي واستعجالي.

غسلت وجهي، فطرت بشريحة جبن مسروقة من الجربوع، مع قطعة خبز بالكاد بقي فيها رمق، نفضت عنها الغبار، وشربت كأس شاي في موقع القيادة، أكملت التهيئة، نظفت السجلات، وجهت المدافع، أعدت الخرائط، كل شيء كان جاهزًا قبل السابعة صباحًا.

ضاحي أتم عمله، القداحون والمخابرة والسواقون عملوا كخلية نحل، لم نشعر بغياب الآمر، كان الضمير هو الرقيب، نعمل كي لا تُسجل علينا نقطة سوداء، ننافس الرعائل الأخرى، نرتقي بسلم المجد، نشد نطاق المسؤولية حول خواصرنا.

لكن موكب آمر اللواء تأخر، تجاوزت الساعة الواحدة ظهرًا، ولم يظهر. الرياح اشتدت، الرمال تحركت كسيل جارف، تلسع الأقدام، تضرب الوجوه. في الواحدة والربع مر الموكب من جانبنا، متجهًا إلى وحدات المشاة، لم يزرنا، ربما منعته العاصفة، ربما شغلته أزمة في الجبهة.

أبلغنا ضاحي أن نبقى على وضع التهيئة، ربما يعود، لكننا علمنا أنه سلك طريقًا آخر في الإياب، تأكد لنا إلغاء الزيارة.

في الثانية ظهرًا، وصلت عجلة القصعة، زيل روسية، زحفنا نحوها كالنمل، أخذنا أرزاقنا: رز بمرق بطاطا، برتقالة، قرص خبز، تبهرت بالغبار، عصبت أجفاننا بكحل الرمال.

عدنا إلى الملاجئ، تغدينا، صلينا، استرحنا، قبل أن نعود للعمل مساءً. وبينما كنت أخلع فردة البسطار، لاحظت بللًا في كعب الجوارب، دفعني الفضول لنفض الحذاء، فسقطت منه عقربة سوداء كبيرة، ميتة، مهروسة، تلك التي كنت أظنها حفنة تراب.

حين ارتديت الحذاء، كنت قد دعستها، عقصتها، قضيت عليها قبل أن تهاجمني، كانت متخفية جراء لسعة البرد أو الرياح، لكن سرعة ارتدائي الحذاء، وضرب الكعب بالأرض، جردها من المبادرة، ضيّقت عليها الحركة، فماتت.

كان الموقف حاضرًا أمام المخابر سبتي وضابط الصف ضاحي، حمدوا الله على سلامتي، كانت صدمة لنا جميعًا. لولا خبر زيارة آمر اللواء، لما أسرعت، ولربما نالت مني العقربة، لكن إرادة الله كانت حاضرة، درأت خطرها عني.

"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..." صدق الله العظيم.

صاروا يتبركون بي، يدعونني بالسيد، حيث قوضت إرادة الله كيد العقرب، فردّ كيدها في نحرها. حمدت الله، واستغفرته كثيرًا، فهو الرؤوف الرحيم بعباده:

"قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" صدق الله العظيم.

\\\\\\\\\\\\\\

كأس الشاي

في واقعة أخرى كادت أن تودي بحياتي عقربة سوداء ضخمة، لولا رحمة الله التي نزلت في أوانها، فأنقذتني قبل أن تبلغ مأربها بلحظة خاطفة. كنت حينها جالسًا تحت جنح ظلمة حالكة، في تمام الساعة الحادية عشرة مساءً، متكئًا عند رابية المرصد في قاطع الطيب، شرق مدينة العمارة.

كان فكري مشتتًا، غارقًا في صور الأهل والمصير المجهول، والوضع الكئيب الذي خيّم على حظنا وأثقل أعناقنا. لا أدري من أين تتدفق تلك الأفكار المأساوية إلى رؤوسنا، لكنها كانت تنهمر في ذهني كالشلال، دون توقف، لتطفح في مستنقع من الصمت. لم يخلد البال للراحة قط، فالجبهة لا تمنحك رفاهية السكون الداخلي.

الجو كان ساكنًا تمامًا، الحرارة معتدلة، الجبهة هادئة، والسماء ملبدة بالغيوم. القمر لاذ بصمته، فغمرت الأجواء دهمة شديدة، لا يعكر صفوها سوى رشقات متقطعة من سلاح البي كي سي التابع للعدو، يطلقها بين الفينة والأخرى لتمشيط الجبهة. كان يحاول بها اصطياد المساكين والمتسكعين خارج ملاجئهم، في محاولة لزرع الخوف وزعزعة النفوس وسط تلك السكينة المريبة، وكأنه يريد أن يثبت لنا أنه حاضر، مستعد للمقارعة.

جلست هناك، أنتظر صديقي المخابر سبتي، الذي اعتاد أن يرافقني بكأس شاي نسمر به الليل. بصراحة، كانت تلك الرصاصات تخيفنا وهي تمر فوق رؤوسنا بأزيزها، تنذرنا

بالخطر، وتحذرنا من الترجل والمشي، إذ كانت تخترق الهواء بشكل مقوس، نظرًا لعلو روابيهم عن روابينا وهي قادمة في أواخر أنفاسها.

وفي خضم ذلك السكون المدهش، لفت سمعي صوت دحرجة حجرة قرب قدمي اليمنى، رغم أنني لم أتحرك. هجست بها كصرخة إنذار، جذبتني إليها، فشدّت انتباهي، واستعنت بمصباح صغير كنت أحمله لأتفحص ما حولي. ركزت إشعاعه على مصدر الصوت، وإذا بي أرى عقربة سوداء ضخمة تتقدم نحوي، لا يفصلها عن قدمي سوى شبر واحد.

كانت قد دحرجت تلك الحجرة خلال تقدمها، فحمدت الله على الفطنة التي ألهمني بها، وعلى رحمته التي أحاطني بها. دعست عليها ببسطاري العسكري، شاكرًا الله على لطفه وكرمه. فلولا تلك اللفتة، للسعتني العقربة، وأنا في تلك البقعة النائية المنقطعة عن العالم، فكيف كنت سأتصرف؟ من كان سينقلني إلى المشفى التي تبعد أكثر من ثلاثين كيلومترًا؟ كنت سأدخل في معمعة عسيرة من العناء والعذاب، حيث لا إسعاف، ولا عجلة، ولا علاج ينتشلني من تلك اللحظة الحرجة.

ما إن علم سبتي بالأمر، حتى قبل رأسي وقال لي:

– فعلاً الآن أؤمن بأنك سيد لما فيك من كرامة وصدق، لأن الحالة تكررت أمامي.

حينها حمدت الله واستغفرته، فهو الرؤوف الرحيم بعباده. قال تعالى: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون" صدق الله العظيم.

10ـ الكابوس

لا أحـد يـدري كيـف بـدأ الخبـر فـي الانتشــار. لـم تكـن هنــاك مقـدّمات واضــحة، لا إنــذار مسـبق، لا علامــات تحذيريــة، فقــط همسـاتٌ تسـرّبت بـين النـاس، تحوّلـت إلـى صـخبٍ عاصـف اجتـاح الشـوارع، حطّـم سـكينة الأسـواق، ونثـر الهلـع فـي زوايـا المدينـة كما لو كان نذير نهايةٍ وشيكة.

"هنـاك عـدوٌّ يترصّـد الجميـع، كيـانٌ مجهـول، يتنقّـل بـلا أثـر، لا يُـرى، لا يُلمَـس، يتـأبط الهـواء فـي تجوالــه، ينـدسّ فـي الأزقـة، يبــزغ كالضـــوء، يختـــرق الجـــدران، ينفلـــق كالرعـــد، يزلـــزل النفـوس، يفتـك بالأشـياء، يتفشّـى كالنـار، يتحـوّل مـن دارٍ إلـى دارٍ، لا شيء يقف أمامه!"

لكـن، لا أحـد رأى هـذا الكـائن. لا أحـد أدركـه، لـم يمسـكه بيديـه، لم يلتقطه بعينيه. كلّ ما هناك هو خوف مشاع.

الخـوف الـذي صـار أكبـر مـن الحقيقـة، صـار كائنًـا بحـدّ ذاتـه، ينمـو، يتغلغـل، يتفشّـى بيننـا، ونحـن نـركض وراءه كمـا لـو كـان ظلًّا، كما لو كان عدوًّا لا وجه له ولا اسم.

فـي تلـك الشـوارع المزدحمـة بالـذعر، كنـت أسـير بـلا هـدفٍ واضـح، أبحـث عـن يقـينٍ وسـط العاصـفة. وجـوه النـاس كانـت متجمّـدة، محطّمـة، كأنهـا فقـدت القـدرة علـى إدراك مـا يجـري. العيـون شـاردة، الخطـوات متعثّـرة، والنسـاء يركضـن نحـو البيـوت قبـل أن يبـتلعهنّ المجهـول. وسـط الجمـوع، لمحـتُ أمـي،

واقفةً كأنما داهمها طيفٌ من الماضي، وملامحها تنطق برعبٍ لم يفارق ذاكرتها منذ الطاعون القديم. كانت تهرع كما لو أن الزمن يعيد نفسه، كما لو أن ذلك الوباء الذي فتَكَ بالناس في الحرب العالمية الأولى والثانية عاد ليأخذ بثأره. ربما يكون القادم الجديد فايروسا ينتشر في الهواء كالكرونا أو كوفيد 19....

حاولتُ تهدئتها، لكن الكلمات تلاشت في ضوضاء الفوضى المحيطة بنا.

حين رفعتُ الهاتف لأتطمأن على زوجتي، حدث شيء غريب. الخط اشتبك سمعت صوت رجلٍ أعرفه، أنه صوت سالم الدلال، الذي اشترى سيارتها منذ أيام. كأن القدر أراد أن يكشف لي أمرًا لم أكن مستعدًا لسماعه.

بدأ الحديث رسميًا، لكنه سرعان ما انزلق إلى شيءٍ آخر... كلماتٌ لم تكن عادية، كانت مغلّفة بغزلٍ مبطن، تخرج بجرأةٍ غير مبررة، كأنني أستمع إلى كابوسٍ يتشكّل أمامي بصوتٍ حيّ، كأنني وقعتُ في دوامةٍ من الهواجس التي لا تنتهي. حيث قال لها:...

تلك الشعيرات العالقة على مقعد السائق... لا أجرؤ على إزالتها، كأنها تذكّرني بأنك كنتِ هنا، أنفاسك لا تزال عالقة في المكان .

اشتد الغضب في صدري، كأن ريحًا سوداء اكتسحت كياني. في لحظةٍ واحدة، صار المرض المنتشر في المدينة بلا أهمية،

لم يعد ذلك الوباء الغامض يستحق اهتمامي بقدر ما يستحقه هذا الصوت، هذه الكلمات، هذا العبث الذي تسلّل إلى عالمي دون إذن.

بحثتُ عن عمي(أبو زوجتي) في المقاهي الشعبية، وجدته هناك، مسترخٍ بلا اكتراث، كأنّه خارج حدود الذعر العام. سألته عن الخبر وعن زوجتي، فاستهان بالأمر، ثم باغتني بمعلومةٍ صاعقة:...

زوجتك ليست هنا، لقد سافرت إلى البصرة.

وقفتُ مشدوهًا. هل هو حقيقة أم جزءٌ آخر من هذا الحلم الغريب الذي لا ينتهي؟ شيءٌ ما بدا مختلًا، كأنَّ الأمور كلها تُدفع إلى هاويةٍ لا قرار لها.

وبينما كنا نحاول العودة إلى المنزل وسط الفوضى، أُحِطنا بمجموعةٍ من الجنود يسوقون فصيلا من المستجدّين إلى المعسكرات لغرض ارسالهم الى جبهة القتال المشتعلة. انجرفنا بينهم بلا قصد، كأننا أصبحنا جزءًا منهم دون إرادة لغرض تجاوز الزحمة. عندما حاولنا الانسحاب، تمسك بنا العريف المسؤول عن السرية، كأنه مسمارٌ صدئٌ التصق بنا، حاولت ان انسحب دون جدوى قلت له لسنا جنودا...قال سنسجل اسمائكم الان...، عندها صرخت به قائلا:.. نحن في مهمة خاصة ياغبي،

عندها توقع نحن من صنف المخابرات ففك قيده عنا.

في تلك اللحظة هجست لم نعد أحرارًا، عرفت أنني لم أعد أبحث عن مرضٍ أو زوجة أو حتى حقيقةٍ واضحة، بل كنت أحاول الإفلات من دوامةٍ تبتلعني، من حلمٍ قد يكون كابوسًا، أو كابوسٍ قد يكون حقيقة.

حين وصلنا أخيرًا إلى البيت، وجدناه مُحاطًا برجال الشرطة، وأطفال الجيران يتهامسون. بأنَّ زوجتي اعتُقلت. يُقال إن سالم الدلال مات قبل ساعة بسبب مغصٌ شديد مفاجئ، "الوباء تسلّل إليه عبر السيارة..."

وقفتُ مشدوهًا، عيناي تجوب المكان، أدركتُ أنني لم أعد أفهم شيئًا. هل أنا داخل حلمٍ مسعور؟ هل هذا العالم حقيقة أم مجرد لعبة عقلية تتردد إلى ذهني كل ليلة؟

بخطواتٍ مشدودة، اتجهتُ إلى المستشفى، حيث كانت زوجتي ترقد، شاحبة الوجه لكنها حيّة، ابتسمت حين رأتني، وحين لامستُ يدي، تناثر كل شيء من رأسي كذرات غبارٍ كانت عالقة في فضاء اللاوعي. في تلك اللحظة، تيقنت أنني استيقظت من صفنتي التي اخذتني في بحر الخيال لأكتشف ذاتي تجلس مع حبيبتي على شاطئ البحر..... الكوابيس هي إشارة لسوء الأحوال.

أدركت أن ما حدث كان إنذارًا خفيًّا، كأن الله بعثه ليوقظني، يعيدني إلى جوهر العلاقة، إلى المودة، إلى السكن.

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا..." (الروم: 21)

منذ تلك اللحظة، أصبحتُ أكثر حرصًا، أكثر عاطفةً، أكثر امتنانًا. لقد علّمني الكابوس أن الحياة هشة... لكن الحب، حين يُصان، أقوى من كل الأوبئة.

مجموعة فرصة هدف

1. الإعصار............
2. متاهات الأقدار.......
3. نبع الحنان ....
4. فرصة هدف........
5. المتسول ....
6. الفضولي ....
7. بياض الدم ....
8. الصدمة ....
9. الرحلة المؤجلة......
10. مدن دافئة............
11. صراط القلوب ......

1- الإعصار

لم يبرح لقاؤنا الذي كان همسًا، أن يكون لقاءً عابرًا؛ إذ ما إن افترقنا، حتى شعرت بخيوط الشمس تذيب ثلوج السراب، تلك التي أخفت في ديجورها أحلامًا نزيهة حِقبًا من الزمن، وهي تتلوى بين وجلٍ وجلد، باحثة عن يقينٍ يُغزل بين معاكسات الشك المتكررة.

الغربة جمعتنا في بيتها الزجاجي، الفكر توقد من زيت الحنين. بين مرارة الغربة والفكر المتقد، انسابت الأشجان في جداول الأمل، زاحفة خلف هواجس الظن، لتسقي تلك الغصون التي عراها الزمن.

بعد لقاءٍ سريع، افترقنا، لكن مشاعرنا لم تفترق عن أريكة اللقاء، كأنها كانت موعودة بجولة أخرى مع شجون الحديث. فالطيور المهاجرة دائمًا ما تعود لأعشاشها، تتأمل الخواطر أن تحف الأحلام بدروب الغايات، وبشيء من مخزون الأمل. على الأقل، هذا ما كان يخامرني، ويوخز أحاسيسي بكل الصور الآهلة التي أغوت حقول فكري، وتربعت على شريعة ذاتي لأجلٍ قادم.

ومع افتراقنا، تركت في خواطري حيرةً صماء، ماهت كموجات صمتٍ في أفكاري، اختصرت المسافات البليغة لمرمى البصر. حيرةٌ أرعشت أوصالي، جزلت نظراتي، أربكتني تحت وطأة الخوف المراء في جوف الزمن.

كنـت قـد وجـدت فـي حـدقات عينيهـا تنهـدات أرق، وفـي وجنتيهـا ظـلال خجـلٍ، بانـت كواحـةٍ فـي صـحراء تنـاجي القمـر فـي تسـهد ليلهـا الأدهـم، وهـي تـودعني، كأنهـا تـودع ذاتهـا، نتيجـة الجهـم الذي أصابها.

ظلـت تلـك اللحظـة تلسـع ذاتـي، تنحـت أثـرًا فـي الـذاكرة، وتشـتعل حنينًـا حـين همسـت الـذكرى. كـأنّ الأطيـاف مـا كانـت أطيافـا تراودنــي، بـل أقمـارا تتصـفح الليـالي، تبحـث عـن أسـرار العيـون الساهرة.

انفعالاتهــا طغــت علــى جــدول أحلامــي، وفصــلت تخيلاتــي، جرفـت قـارب الـود نحـو موجـات الفـؤاد المضـطربة، فصـار جـزءًا مـن ثـورة الشـغف والأحـلام المؤجلـة، حتـى غـدت كـل ثانيـة من العمر تنذرني بإعصارٍ قادم.

تركـت هاجسـي يتسـلق تلـك الأمـواج المتعاقبـة علـى صـدري، كحشـرجات متـيمٍ لا يهـدأ. ومـع تـوالي الأيـام، ازددت بهـا رهقًـا وعذابًا، فلا يقين نمّ عن أمل، ولا شك ذُمَّ وأحتضر..

تعلّـق الأمـر بخـيط الغـد الرفيـع، الـذي التـفّ علـى عنقـي حـين أسـهبنا فـي حـديثنا، أغـدقنا بمـا يكفـي مـن فدفـدة الأمـاني الطيبـة، عبـر لقـاءٍ قصـيرٍ أشـبه بلقـاء الطيـور المهـاجرة. كـان الصـدق كحــلًا لحــدقات العيــون، والحنــان غشــاءً للأفئــدة، وودٌ رقّ فــي خجـلٍ بـارقٍ علـى الوجنـات، وعاطفـةٌ سـاحت بنـزق شـوقٍ رطّـب أمنياتنا.

كــل ذلــك كــان دافعًــا لكســر حــاجز الخجــل، والتصـــافح عبــر النظـرات، ودغدغـة الفكـر والمشـاعر بنغمـات الـود، والتعطـر مـن زجاجــة الســحر، والانســجام الــذي أفضــى للمــرحٍ روحٍ جياشــة، دفعـت النشـوة لتغمـر وجوهنـا، وتطفـو سـرائرنا فـوق كـل صـمتٍ ورنيم.

كنـا أشـبه بحمـامتين التقتـا علـى نبـع مـاء، كـلٌ بـاح بقصـته علـى أوتــار شــجنه، حتــى غزلنــا خيــوط المشــاعر فــي ضــفيرةٍ واحــدة، دلفت بها الأشواق إلى مصبها.

ونحــن منغمســون فــي فتنـــة بعضـــنا الـــبعض، هجســـتُ بالأشــجار كأنهـا أصـغت لهـديل صـدحنا، رقّـت لحالنـا، فرشـت مـلاءة ظلالهـا فــوق رؤوســنا، جاملتنـــا، حضـــنتنا، وعزفــت لنــا ســمفونية عشــقٍ بحفيف أوراقها.

وحـــين طـــرق الـــريح صـــريرا موحشـــا ارهبنـــا، دبّ الوجـــل فـــي أوصـــالي، وانـــزوت ســـرائري خلـــف الغايـــة المـــرادة فـــي لحظـــة الـــوداع. شـــعرت بخيـــوط الحـــب معشـــقة بتلابيـــب الفـــؤاد، أدخلتنـــي فـــي أجـــواء الرغبـــة، وجالـــت بروحـــي فـــي أروقـــة الصـــمت، فأفصـحتُ عمـا كـان يجـول فـي خـاطري، وطفحـت آثارهـا علـى ملامـح وجهـي، لتشـع كقنـديلٍ سـرمديٍ يسـطع فـي أبـراج العشـق الأزلية.

كنـــت أهجـــس بفراســـتي حاضـــرةً بـــين مخالـــب الحـــدق، أتصـــفح خطـــوط التأمـــل المنثـــورة فـــي إيمـــاءات وجههـــا، تلـــك التـــي لا تســتطيع أن تهــرب مــن قيــدها، ولا تملــك كــبح جمــاح انفعالاتهــا.

ظل الفكر يرتع بعيدًا عن مساءات الحزن والغموض، المحيط بهواجسها القابعة على عرشها كسلطانٍ للوحدة والغربة.

أبصرتُ ذلك بتمعن، مما جعلني أسرح في أعماق الرغبة، بين أفانين الشك وأزاهير اليقين. لم أطرق أبواب الصدفة بحثًا عن الغاية المنشودة، بل تأملتها مليًا، قرأت شجونها، وهجست بلمسها، حتى راغت ذوائبها في كنفي.

وقبل أن يظلنا الزمن ونفترق، تركت لها رقم هاتفي، ليبقى دليل رغبةٍ وهوسٍ شدّني إليها، عسى أن تبقى للمحاولة ملاذًا بين نواهي الفكر، وكأني بذلك تنصلت من الحجج، وتركت غسيل الشوق على غارب الزمن.

مضت الأيام تأكل بعضها، القيد حزّ ساقي، لم أستطع أن أبرح أسوار مشاعري الراكدة، تلك التي طبعت بصماتها على جدران الفؤاد، غدت شموع ودٍ تتقد في أروقة الفكر دون إرادة.

كل الأوصاف التي تأملتها في رهقي، والتي شاقت فكري وبصري، وكالت لي مشقة العذاب، مغروسة في قامتها وذاتها كالخضرة، منغمسة في ورق الشجر، وفي ملامحها النضرة.

شعرها الرمادي منساب على كتفيها كنسيج شلالٍ من العتمة، يشهق بأضواء السَحَر. يخضل بشرتها لونٌ برونزيٌ جذاب، تبدو بإشراقة وجهها كمرآةٍ عاكسة، تستنبط أنوثتها من وحي الجمال والخيال. أنفها الشامخُ بكبرياء ونبل، متقدٌ في وسط الوجه بحيوية، كمصباحٍ يبهج محيطه. شفاهها الرقيقة مغشية

بــوهج الــورد، قوامهــا رشــيق، مثقــلٌ بــالفتن، كنخلــةٍ باســقة، وبكيانها تبدو كثرثرة عنادل مهووسة بتسابيح إلهية.

تلـك الأوصـاف جعلـت الـروع يغـزل شـوقًا علـى شـباك القلـب، يرسـم صـبرًا فـي خانـات الانتظـار، رغبـةً تسـللت لأعمـاق الـذات عبـر ثقـوب الأحـلام الدقيقـة، بـدت كخيـوط شـمسٍ مسـتطيرة، تنشـد معزوفة أملٍ للقاءٍ قادم.

ومــع افترقنــا، أوحــى إلــيّ اليقــين بلقــاءٍ آخــر، رغــم أن حــواجز اليــأس غطّــت علــى حــدقي، كانــت فتــرة الفــراق جلــدةً ووخيمــة. لحظــات ســرحانٍ وصــمتٍ رافقــت ظنــي، جعلتنــي فــي تيــهٍ أمــام هيجـان الشـوق واللهفـة، فقـدت فيهـا التركيـز والثبـات، إنـه الهيـام بعينه، وبكل ما تعنيه الكلمة.

أسرتني...

ثم لم تُبقِ فيّ شيئًا حيًا

كلي على بعضي تهشّم وتكسّر

حتى النور نفد من سراج روحي

لا شعلة بقيت في الفكر

ولا منظر.

ترى يا قاتلتي...

من أين أتيتِ؟

لتسقيني من ندى وجدكِ كأس حنظل

أراكِ قائمةً طويلةً من العناء

لا يريبكِ شيء

سوى شكّ زجلٍ أخطل.

في لحظةٍ عابرة، دون أن أكون ذا أثرٍ يُذكر، تذكرتني... هاتفتني، حلّت عقدة حيرتي دون سابق موعد، حين رنّ الهاتف، يمحو لحظات نسيان اسمها.

ترن – ترن – ترن – ترن...

كان ذلك مساء الخميس، بعد أن أوشكتُ على نسيان ملامح اللقاء العابر تمامًا. الملل قد تسلل إلى كأس أهوائي، وهي تمادت في قطع حبل الوصل. ذاتي كانت تحبو خلف لحظة رجاء، كطفلٍ يتوق إلى لعبة، تائهٌ في ظنونه، لا يدري أين تأخذه قدماه، ولا يملك خيطًا يصل به إليها، سوى هاجس ودٍّ يتسلل بين الأحايين.

فيما مضى، لم نُدرك حقيقة مشاعرنا. لا أعلم إن كانت قد شُغفت بي كما شُغفتُ بها، أو إن هزّتها مفاتن رجولتي... لا دليل لدي، سوى شكٍّ طاف بمخيلتي. طيور الودّ كانت تجوب

فضـــاءات الشـــوق، دون أن تجـــد لهـــا أعشاشـــا. كنـــتُ قـــد تركـــتُ مفاتيح الوصل بين يديها، بعد أن لاك الفراق بنا.

مـــا أن رنّ الهـــاتف، حتـــى طفـــح الحنـــين، تنمّلـــت أطرافـــي. فـــي عجالـــة، قفـــزت هواجســـي علـــى طاولـــة الظـــن، ارتقـــت همـــس النـــداء، ولمســـت صـــوت الـــودّ وهـــو يســـكب فـــيض الشـــوق فـــي كأسي.

أمســكتُ بالهـــاتف، وإذا بصـــوتٍ رقيـــقٍ أعرفـــه، كهمســـات الـــورد للفراشـــة، كهسـيس النـــار للحطـب. انســـاب فـــي طبلـــة أذنـــيّ كعـــزف ربابـــةٍ يختـــرق ســكون الباديـــة، بتـــثّ ســكينةً فـــي صـــدري، جردنـــي مـــن قيـــد الكـــدر الـــذي أثقـــل أوصـــالي. اضـــطرب الفـــؤاد، تســـارعت نبضـــاته، انتصـــب شـــعر رأســـي كحقـــل ســـنابل، كـــدت أفقـــد الســـيطرة علـــى نفســـي وأنـــا أنصـــت لهمســـاتها وهـــي تبعثرهـــا بهـــدوء كنســـمات فجرٍ تبحث عن ضوء الشمس.

- هلو... مساء الخير.
- مساء النور والسرور... ك...ي...ف...حا...لك؟
- الحمد لله، بخير... تهمني أخبارك.
- مشتاقٌ للقياكِ، أين أنتِ؟ لمَ هذه القطيعة؟
- بكـل سـرور، هـذا مـا وددتُ إخبـارك بـه... هـل نلتقـي غـدًا صباحًا في كافتيريا الفجر، تمام العاشرة؟
- مـــن أجـــل عينيـــكِ، أُلغـــي كـــل مشـــاويري. شـــكرًا علـــى لطفكِ، سأكون هناك، فلا تتأخري.
- إذًا، غـدًا نلتقـي بـإذن الله. أنـا مشـغولة الآن، سـامحني... مع السلامة.

- مع السلامة.

لم تدم المكالمة طويلًا. ربما لم يكن ما يُقال جاهزًا، أو أن الخجل لجم فاهي، والمفاجأة جزلت فكري، هزّتني، أنستني ذاتي، فبقي الشوق يعاني في عنق الزجاجة. لم يسعفني الحظ لتسليك المحاورة، ولم يسعني الزمن لإعادة تدوير أشواقي. الخجل سَفَّ كلماتي، بتر أفكاري، أرهقني، ولم يمنحني فرصة قطف ثمار اللقاء قبل نضوجها. بقيت الأمور معلّقة بلقاء الغد...

ما أودّ قوله لا يدخل من باب الهاتف الضيق، ما أودّ البوح به لا تسعه فيافي الشوق كلها. لا بدّ للمشاعر الجياشة، وللإيماءات المعبرة، وللتفرّس في وجه الآخر، أن يفرش ظلاله ويفرض سلطانه. لا بدّ من لقاءٍ تتكسّر فيه الأمواج على صخور الشاطئ، لنضع حدًا للتكهنات، وننهي تلك المراهنات النازفة، كي تستقر الأمور في نصابها.

تلك المحادثة الخاطفة تركت في نفسي شجونًا، أبعدتني عن هاجس الضغط النفسي الذي تكبّلت به. بتُّ أستشعر ما حولي، أضحى فكري مشغولًا بترددات أمواج كلماتها التي قبعت في الذهن: "أرجو لقائك غدًا في كافتيريا الفجر..." إذاً، لا يأس مع المحاولة.

تخيّلتها قابعةً فوق سنام الحب، ترفد ظني بإيماءات الحلم، محاطةً بتمائم الحرز من الحسد، زرعت في ذاتي أملًا، جعلني أطوي فيافي الخريف من الذاكرة.

غدًا سأضع النقاط على الحروف، سأنفض الغبار عن الجسد، سأمضي بيقين، بحثًا عن سكونٍ يليق بي وبها، وليس الغد ببعيد.

تحزّمتُ بأملٍ تراءى لي كضوءٍ مداجي ينفذ من سُدم اليأس، من عيون الظن. سعيتُ خلفه بشيءٍ من الثقة والعناد والصبر. شعرتُ بالوقت يبطئ في سيره نحو واقع الحلم الأسير، هجستُ بالريبة من المفاجآت، وبدأتُ بخطواتٍ وئيدة نحو اللقاء، وأنا أرنُو إلى الحديقة النضرة، تلك التي تحتضن الكافتيريا، قبل الموعد بساعة.

خرجتُ بأبهى صورة، برفقة الوجل والهيام، وشذى العطور الفاضحة لسري. بتُّ أرى ذاتي في عين كل من يدقق النظر بشخصي، ماشياً بمحاذاة الشارع، وكأني الوحيد في هذا الكون ذاهبٌ لساحة الوغى، لمصيرٍ مجهول. تكبّلت خطواتي بين شعوري بالنصر والهزيمة في آنٍ واحد.

جلستُ جانبًا على كرسيٍ وحيد، أحتضن طاولةً دائرية صغيرة، يحيط بها كرسيان، متأملاً ذاتي تحت ظل شجرة صفصاف باسقة، تنفض غبار الشك على الذهن. مشاعر لا أحتمل المماطلة بها، فأما أكون أو لا أكون، تلك هي الصخرة التي أودّ الوقوف عليها. أراها قريبةً مني، وهي أبعد ما تكون عن ظني.

زهورٌ مترامية الأطراف من حولي، زقزقة العصافير توحي بصبحٍ بهيج، مناظر لطيفة تهدئ الأعصاب المتوترة.

لـم ألبـث طـويلًا، حتـى بانـت ملامحهـا تشـرع فـي الأفـق، تختـرق ثنايــا الأشــجار كشــهابٍ يختــرق دجــى الليــل. تمشــي الهــوينى، مــلاكٌ يتخطــى أدمــة الأرض بســحره وجاذبيتــه. فســتانها الــوردي يهـفّ مـع ريـح خطواتهـا، يضـفي بهجـةً تتنـاغم مـع لـون شـالها البنفسجي، وكأنها غصن بانٍ ينسلّ من بين صفوف الشجر.

مـع كـل خطـوةٍ تخطوهـا، تغـزّ أوصـالي إبـر الرعشـة، يتثاقـل جسـدي، تصـطك أسـناني، رغـم أن الطقـس معتـدل فـي نيسـان. لـم أكــن قــد مــررتُ بتجربــةٍ مســبقة، أول مــرة أشــعر بهــذا الاضـطراب، أول مـرة لا أسـتطيع كـبح جمـاح نفسـي، ولا أشـكم قلقي. أضحيتُ هائمًا، لا أملك مفاتيح الصبر.

لا أعـرف كيـف تمالكـت نفسـي حـين أجبتهـا بصـباح الخيـر، ردًا على صباحها:

- كيف حالك يا أثير؟ إن شاء الله بخير.
- الحمـد لله... اشـتقتُ لـك يـا نسـمة. أيـن اختفيـتِ؟ الأجـواء باردة دون شمسك، لمَ كل هذا الجفاء؟
- الله الله علـــى شـــاعريتك اللطيفـــة... شـــكرًا لإحساســـك الجميــل. الحقيقــة، انشــغلتُ فــي أمــورٍ جمــة أنســتني أحبتي.
- كـدتُ أظـن أننـي أصـبحتُ فـي خبـر كـان، لـم تـذكريني حتى برسالة.
- لا تقـل ذلـك، لـن يسـتطيع أحـدٌ أن يجتثـك مـن فكـره. مكانك محفوظ في الروح والقلب...

نطقت بذلك، وعيناها شاردتان في السماء، وكأنها لا تودّ أن تسمعها الطيور والأشجار. والكلام لها...

بدأت تغرّد، وأنا أنصت لها، أجسّد نظراتي في ملامحها، أتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها، أرتشف من رضاب حديثها حنانًا، ومن صوتها سكونًا خلتُ من قبله السنن. كانت تتحدث عن ملابسات أمور شخصية شتى، تخص خططها ومشاريعها الخاصة. أسهبت في حديثها؛ لامست همساتها الفيّاضة جمر إحساسي برقةٍ آسرة. حينها قطعتُ وطراً من غربتي على واحة ثغرها المتدفق بالحيوية، رغبتُ أن ألوك ثغري بفرات شفتيها، عبثًا حاولت أن أنال من حسنها الأهيف، أو أشم عبير زهرها الفوّاح؛ الحواجز الأخلاقية منعتني من المجازفة.

بعرفي، تمنيت أن أنزع قناع الدين والقيم والمثل العليا عن وجهي، علّ جوارحي تهدأ، وقد باتت تغلي كبركان في أعماقي. جمعتُ شتائل الأحلام، ومضيتُ أبحر في قارب الشوق بين شواطئ عينيها، أختلج أمواج النهى بمجاذيف الشوق، لكن قممًا صمّاء اعترضت وصلي، ونشرت أشواك اليأس في التواءات طرقي.

بتُّ أراقب ملامح وجهها وأنا أسير خلف تأوّهات شفتيها، لم أصمد كثيرًا أمام عصف هواها الذي جرفني إلى شاطئ قلبها. أحسستُ بأني مشدوه البال، مشدودًا إليها بكل جوارحي أكثر

مـن أي وقـت مضـى. اسـتقرت عينـي علـى ترتـرة الشـفاه وهـي تبعثـر الحـديث بشـوقٍ فـي باحـة الصـمت، حتـى جرفتنـي نحـو الـدرك الأسـفل مـن صـرّة الحقيقـة، تلـك التـي كنـت أنتظـر الوصـول إليهـا علـى مضـض، حـين طرقـت أذنـي عبارتهـا: "جئت أودّعك!"

- ماذا؟! تلتقين بي لتودّعيني؟ إلى أين؟

انتفضـتُ مـن غفـوة الخـدر التـي راغـت بأوصـالي، تطـايرت الأحـلام مـن رأسـي كعصـافير مفزوعـة، وانغمسـت صـحوتي فـي أفيـون الحيـرة. اجتـاحتني حالـة مـن السـكر، وهـي تجـرّ أذيـال الخيبـة خلفهـا... يـا تـرى، أيـن المفـر مـن جـيش أحلامـي؟ أيّ الطـرق أسلك لمستقبلٍ تأملته ليضـيع بـين حـوافر الـزمن؟ إلـى أيـن سـتنتقل بنـا تلـك المراكـب العـاجزة، بعـد أن هـرأت صـواريها وأشـرعتها علـى حـين غفلـة؟ لا فـردوس، لا أحـلام، لا خيـال... دُمّرت القلاع بلمحة بصر، إنه الإعصار.

قالـت، وفـي عينيهـا حيـرة واسـتحياء، بعـد أن قـرأت مشـاعري تجاهها:....

- إنـي آسـفة! أن أفاجئـك بخبـر خطـوبتي. خطيبـي ينتظـر ترتيـب مراسـم العـرس والسـفر العاجـل إلـى فرنسـا حيـث سـتكون الإقامـة... فـي الحقيقـة، جئـت أدعـوك للحضـور؛ لأعرّفـه علـى أهـم أصـدقائي. أتمنـى أن تلبـي رغبتـي، لـم أدعُ سوى المقربين مني فقط، فلا تقتل رغبتي!

صاعقة أقحمت فؤادي، الغشاوة أسدلت نوافذ عينيّ، إنه الإعصار كما توقّعته، لكني لم أكن أعلم بأن الإعصار مكنون في عينيها. تاه بصري في خفايا الظلام، كما تعثر الحظ بحجر الزمن، فيما وجفت نبضات القلب، وتثاقل لساني، وتلعثمت خانعًا، حزينًا، بكلماتٍ تكاد لا تخرج من فمي إلا وهي مرهقة، ذابلة، حين قلت لها:.....

- مبروك... حظًا سعيدًا... تأكدي بأني سأحضر، شاكرًا دعوتك لي.
- شكرًا جزيلًا، أتمنى لك الموفقية ومستقبلًا زاهرًا. أتمنى أن تتقبل مني هذه الساعة كهدية لأعز وأنبل إنسان عرفته، كان سراجًا منيرًا أقتفي به سبلي.

(أخرجت من جيبها ساعة رجالية ماركة سوداء، وقدّمتها لي)

- شكرًا لك، سأحتفظ بها ما حييت.
- مع السلامة.

مثلما قالت؛ كنتُ سراجًا لظلام غربتها، وها أنا قد نفد زيتي، فلم أعد أنير سهدي ورجائي. أسدل الستار عن الفصل الأخير من مسرحية الأحلام الضائعة، تلك التي شمعت فصولها بالشك أمام إعصارٍ محمّل باليقين لا يُبقي ولا يذر. قذفته على حين غفلة بحجري ثم اختفت. هكذا تنصّلت واختفت خلف حواجز القدر، مضت إلى حيث السكون الأبدي.

بقيتُ وحيدًا، أداعب الساعة الجميلة، أراقب عقارب الزمن التي لدغتني، كأنها بساعتها قالت لي: "لا تجعل لسواد الظن

سلطانًا على بياض اليقين." ولكن... زمن بات يحاسب زمن، تاركة بحجري ساعتها كشاهد عيان، أتبع رتم دقاتها حينًا، وحينًا تتبع دقات قلبي المدان.

هي الحياة هكذا... تذكرة سفر، مرارة يقين، وعطف وجدان.

ترى، لماذا لم تخبرني بخطبتها مسبقًا؟ لماذا لم تكن ترتدي خاتم خطوبة حين التقيتها أول مرة؟ لكانت وفّرت على قلبي هذا العناء والعذاب. يا ترى، هل كنتُ محطة عابرة في مشوار حياتها؟ تروم إليّ متى ما ضاقت بها السبل؟ أم تصرّفت ببراءة لإذكائي بواقع سحرها؟ تلك الأسئلة لا أملك لها أجوبة.

بقيتُ جالسًا بمقعدي، أخيط فتق الأيام بمخيط الألم. الحقيقة الدامغة لم تجد اهتمامًا صارخًا وواضحًا من قبلي، أو بالأحرى لم أستطع استشعارها بإرهاصاتي ووجدي، لذا بنت تصرفها وفق علاقة آنية عابرة، كمعظم النساء. مضت، وبقيت عيناي تتتبع أثرها وهي تنزوي كشبح بين أغصان الأشجار.

حينها تذكرت قول المتنبي:

إن أقبلت كادت تُقاد بشعرة...

وإن أدبرت كادت تقدّ السلاسلا.

2- متاهات الأقدار

لـولا طلـس لونـه، وذيلـه المعقـوف علـى ظهـره، لقلـت إنـه ذئـب يجوب أطراف محلتنـا فـي ذلـك المسـاء الهـادئ مـن ليـالي الصـيف الجميلـة. الـذئب غـابس اللـون، ذيلـه الطويـل يمتـد خلفـه، يتحفـى بحـذر شـديد، لا يـدخل أنفـه فـي معمعـة تـؤدي بـه إلـى متاهـات الأقـدار. مشـكلته أنـه يُفتـرَسْ مـن بنـي جنسـه إذا مـا خـدش جلـده، أو طُعـن نتيجـة جـبن أو غفلـة، كمـا يُفتـرس مـن وهنـت قـواه وتناحـل كاهلـه أو أصـابه العجـز. كـان مرفـوع الـرأس، يمشـي بخطـوات واثقـة، صـوان أذنيـه شاخصـان، تتوجسـان همـس الشـياطين، عينـاه مبرقتـان، تبصـران خلـف المـدى. قوامـه رشـيق، ذو بنيـة قويـة، تبـرز مفـاتن عضـلاته المفتولـة خـلال حركاتـه الاستعراضـية. سـريع البداهـة، نافـذ الصـبر، قـوي العـزم، ينفـث أنفاسًـا شرسـة، جامحـة. تتـراءى صـوره القاحلـة فـي غبـر شـكله المرعـب، ذات أسـنان عاجيـة ولسـان قرمـزي لاهـث. إنـه ذلـك الوحش الكاسر... الكلب الأسود.

اسـتحوذ علـى شـعب تفكيـري، واسـتلب حصـافة ذهنـي مـن أول وهلـة جـاب بهـا أطـراف محلتنـا. فـرس يتـأنق بـين حواضـن الخيـل، يتـأنق برشـاقة هرولتـه، وهـو يتقفـز علـى أطـراف أصـابعه كأنـه يتنقـل فـوق بسـاط إسـفنجي. عينـاه تتسـمران فـي أرجـاء الطـرق، تتغـامزان بشـغف، تومضـان نواصـي الوجـد، تُسـبران مقصـد غـوره فـي حـدوده الآنيـة. تشـع مـن شـدقيه غرائـز عنـف قويـة، تسـتطير فـي الأفـق ضـبحة أنفاسـه ولهاثـه وصـوت نباحـه

الهـادر، يسـتبيح الزوايـا والأمـاكن المنزويـة بحثًـا عـن الكـلاب الضالة، السائبة.

كـان لصـور تواجـده مـع غبـار الغسـق المتنـاثر تحـت ظـل سـكون عـم أرجـاء ذلـك المسـاء الهـادئ أثـرٌ بـارزٌ فـي النفـوس المرهفـة، لهالـة الوجـل المثـارة حولـه. تهجـس بالغضـب الطـافح فـي قسـمات وجهـه وفـي حـدقات عينيـه المسـتطيرة. بتلـك السـمات القسـرية، كـان يزحـف بثقلـه وبثقـة خلـف تطلعاتـه بـين مسـالك الـدروب، بحثًا عن الكلاب السائبة.

رمـاه صـبي بحجـر، انتبـرت مناكبـه، اسـتكان فـي موضـعه، تطلـع نحـو الصـبي بوجـه عبـوس، زجـره بنعـرة مـن نباحـه ملؤهـا غضـب، وهـو يتفـرس بوجـه الطفـل، أبرمـت فـي أوصـاله خيـوط الفـزع، مضـى الطفـل هاربًـا لـداره، تحفـه جلجلـة الخـوف، دون أن يتبعه الكلب، كأنه قال له: – احذر، لا تعبث معي.

عـاد بعـدها لهرولتـه وهدوئـه ورزانتـه، يجـوب أطـراف المحلـة. لـم يتـوانَ طـويلًا فـي إسـهاب بحثـه عـن فلـول حيرتـه، الثقـة كامنـة فـي ذاتـه، كأنـه يمضـي خلـف خـيط دخـان ينفـث مـن عزمـه، متلهف للمواجهة، شديد المراقبة، تركيزه منصب خلف غايته.

قبـل أن يجتـاز المحلـة، اسـتنارت قـبس حـدقات عينيـه المبحلقـة كلبـة صـفراء فـي ثنايـا المنعطفـات، تخـور بحـدود الظلمـة السـائدة، تبعثـر فـي خشـخاش قصـب إحـدى الحـدائق. رماهـا بسـنارة حدقاتـه، تجـاهرت خطـاه، أسـرع نحوهـا وهـو يزمجـر فـي فضـاء صـاخب بهـدير مـزر تقشـعر لـه الأبـدان، بشـدة طرقـه اسـتحوذ

عليها قبل أن تفلت من قبضته، قيدها بشباك رهبته، أطبق عليها بجبروت سره. حاولت أن تفلت، لكنه داهمها بطوفان الرعب، اجتث منها المبادرة، أودعها سجنه، جعلها تمرغ في التراب تحت قدميه وهي تئن، تولول بصوت خانع، وكأنها ترجوه متوسلة أن يفك عنها قيدها، ناكصة رأسها، خائرة القوى. وبعد وشوشة قصيرة دارت بينهما، مضى يهرول بزهوه وهي تتبعه بخطوات مهزوزة، يكتنف أساريرها الارتباك. بنفس مهترة، ماضية نحو قدرها المجهول...

كانت قد تحاملت على نفسها، بعد أن سلبها الإرادة. لماذا هجم عليها؟ بمَ هددها وحاورها؟ ما الهدف والغاية من ذلك؟... سيل من الأسئلة تراكبت في ذهني، بتُّ أبحث لها عن أجوبة من خلال تتبع ذلك الكلب عبر مراحل تحركه.

اجتاز الشارع الذي يتوسط المحلة، كاميرا عينيه الثاقبة تلتقط صور الكلاب في محيط الحي، تتوجس صورهم أينما وجدوا، تهجس بخياشيمه، تجس رائحة الكلاب عبر الأثير. التقطت هواجسه كلبًا يتبختر في ثنايا الأزقة، أسر له ومضة لاذعة من سنا عينيه، استكان في جناحه، تنحلت مجاميعه، تراخت قواه، ارتعشت أوصاله بمجرد سماع هديره المفزع وهو يجتاح الأفق. حاول أن يتنصل عن النداء المحيط به، همّ بالهرب، تسابقت الخطى، وقبل أن ينزوي في مسالك الحدائق، استحوذ عليه في وثبة خاطفة. محق إرادته بإرادته الجامحة، ومن ورائه الكلبة الصفراء تسنده. همهم بصوت ضابح مختنق في رجاء وخنوع، حلت لحظات الاستسلام والتحاور والوسوسة،

تهامس الكلبان كما سبق مع الكلبة الصفراء. عاد بعدها لأدراجه يتبختر في سيره، يتبعه الكلبان بخذلان، وكان الكلب الثالث مهجنًا يتميز بخوذة سوداء.

***

العجيب في أمره أنه لم يتعسف قط في تعامله، ولم يحاول الانتقام من خصمه، على الرغم من قدرته على فعل ذلك. كان يأبى العنف، إلا في حالة عدم امتثال الخصم لطاعته. صورٌ لماحةٌ تعدّت أطر الخيال والوصف، عِبرٌ تنهل من تلك العلاقة: طاعة، وحزم، واحترام، برقت وسط صمتٍ مطبق.

هدوءٌ عصف بمحيط تلك الألفة المجتمعة خلف القوة والإرادة، مسرحية تراجيدية لم يسبق أن سمعت بمثيلها أو شاهدت نظيرها. يكتنف حوارها لفيفٌ من الأسرار المبهمة، تفاقمت في نواحيها سرائر من العجب المبرزخ بين أقطاب المحاور، بحيث كانت الألفة على أعلى درجاتها.

ذلك الجبروت أضحى لغزًا محيرًا لي، هوة من الأسرار والهيبة تتحرك في وسط الميدان، تتحكم بها فكرة صماء لا تُسفر عن وضوح الهدف أو الغاية. ذلك ما جعلني أتبع تحركات ذلك الكلب بحذر أينما يكون.

تُعد الكلاب من أذكى أنواع الحيوانات، أودع الله فيها ذكاءً حادًا وفراسةً قوية. لا بد من لغةٍ تُدار بين تلك الألفة، تضفي عليهم صفة التميز، وتُفصح عن مضمون التحاور والتوجيه. ذكاءٌ ينظم هذا السلوك، وفطنةٌ تحدد الهدف. يملكون لغة إيماء

وحركـــات ووشوشـــة، تفتعلهـــا الكـــلاب للتحـــاور، فيهـــا إيحـــاءات ورقصـات تعبـر عـن رغبـة أو فعـلٍ مـا... هـي لغـة تخصـهم، كمـا لباقي الحيوانات لغاتهم.

ألـم يُكلـم النبـي سـليمان عليـه السـلام الهدهـد والنملـة والجـن؟ ألـم يـذكر الله عـز وجـل أنهـم أمـمٌ مثلنـا؟ إن الوفـاء والـذكاء الـذي يتميـز بـــه الكلـــب عـــن ســـائر الحيوانـــات جعلـــه حارسًـــا أمينًـــا، بحـــدود السـلامة والوفـاء، وبتقنيـة عاليـة. تلـك الخاصـية خُـصَّ بهـا الكلـب عن سائر الحيوانات، يتفوق بها على كثير من البشر.

أذكـــر حادثـــةً معينـــة شـــاهدتها بـــأم عينـــي، حـــين دهســـت عجلـــةٌ مسـرعة أحـد كلبـين خـلال عبورهمـا الشـارع العـام. انطلـق الكلـب الآخـر خلـف العجلـة الداهسـة، ينـبح بغضـبٍ عـارم، يـودّ الانتقـام لصـاحبه. كـان يـركض خلفهـا بجنـون، لـم يُعـر أي اهتمـام لمخـاطر السـيارات الأخـرى المسـرعة إلـى جانبـه. وبعـد أن ولّـت العجلـة بعيدًا، عاد يولول على صاحبه الذي كان قد نفق رمقه الأخير.

صـــار يهمهـــم ويـــدور حـــول رأســـه كـــالثكلى التـــي افتقـــدت شـــريك حياتهـــا. الحيـــرة والحـــزن طاغيـــان عليـــه، وهـــو ينـــوح ويصـــرخ محـــاولًا أن يعـــين صـــاحبه علـــى النهـــوض دون جـــدوى. لـــو كـــان يعـرف البكـاء، لهمـرت دمـوع الحـزن والوفـاء تغـرق بهـا وجـه صاحبه.

علـى كـلٍ، مضـى الكـلاب الثلاثـة باتجـاه نهـر ديـالى، سـالكين ممـر السـابلة. وعلـى مزبلـة قـرب النهـر، التقيـا بكلبـين أبيضـين ينبشـان فـــي خـــدود المزبلـــة، يبحثـــان عـــن فضـــلات الطعـــام. تلاحمـــت

النظـرات، تزاهـرت الهـواجس، تجانسـت المناغـاة. وبـدون أيـة معمعـة أو فوضـى، انتميـا للمجموعـة خلـف القائـد الأسـود بكـل امتنان، لحظات سادها تناغم عجيب من ألفة وتخاطر وتودد.

اتجـه الكـلاب الخمسـة إلـى وادي العوسـج، وهـو وادٍ يشـطر مدينـة جلـولاء لنصـفين، يصـب نهايتـه فـي نهـر ديـالى. وهـو المنفـذ الوحيـد لتجمـع ميـاه الأمطـار المنحـدرة مـن التلـول الشـرقية، ليحميهـا مـن همجيـة الفيضـانات، مشـكّلًا فـي انحرافـه قوسًـا منحـدرًا مـن الشـمال الشـرقي إلـى الجنـوب الغربـي، كحـرف (ر) بخط الديواني للغة العربية.

مـن ملتقـى مصـبّه بمحـاذاة الشـمال الغربـي، تمتـد حـدود محلـة الطليعـة، فيمـا تكـون الجهـة المعاكسـة مـن جهـة الجنـوب للـوادي حـدود محلـة الوحـدة. تـرتبط المحلتـان بشـارع رئيسـي يتقـاطع مـع قضـبان السـكك الحديديـة المتجهـة إلـى العاصـمة بغـداد، أمـام مركـز الشـرطة الرئيسـي للمدينـة، والكـائن ضـمن حـدود محلـة الوحـدة. وتحـدّه مـن الجهـة الشـمالية محلـة العروبـة ودور الشـهداء، ومـن الجهـة الشـرقية محلـة الجمـاهير. هـذه معـالم جانبيـة لمدينة جلولاء.

خـلال إطلالـتهم علـى حافـة الـوادي مـن جانـب محلـة الطليعـة، صـادفوا كلبًـا مرقطًـا يتمـرغ بـالتراب خلـف علبـة فارغـة. كـان أسـير هـواه، لا تتعـدى غايتـه أفـق بطنـه، وطـأة الخـوف اسـتنزفت أسـاريره، فجـارت بـه لمهـاوي الوحـدة. دون أن ينتبـه، نبحـوا عليـه كمجموعـة بنبـرة واحـدة، فـزّ مـن غفلتـه، انـتفض علـى أطرافـه، أسـرع نحـوهم يجـري وكأنـه كـان ينتظـر إشـارة مـنهم.

كــأنهم حملــوا عــن أكتافــه أوزار الوحشــة التــي أثقلــت كاهلــه، فانضم للمجموعة بيسر وامتنان.

أصـبح عـدد الكـلاب سـتة، وصـار تجمعهـم يجلـب الأنظـار، بـل صـار شـكلهم يبعـث الرهبـة فـي قلـوب كـل مـن يلتقـيهم فـي طـريقهم. كـل هـذه الوقـائع جـرت فـي مـدة لا تتجـاوز سـاعة زمـن، وفــي مســاحة بطــول (300 – 400) متــر وعــرض (100 – 200) متر.

فـي تلـك الأثنـاء، بـدأ إحسـاس غريـب ينمـو فـي فكـري، أشـبه بلفتـة زهـرة اللـوتس وهـي تنـوس بـين شـبكة مـن الأدغـال والأشـواك البريـة، لتغـرّ بجمالهـا عينًـا ضـبحت مـن جلـد الفـلاة المحـيط بهـا. ومثلمـا أشـم عبيـر تلـك الزهـرة عـن بعـد، صـرت أشـم رائحـة الخطـر عبـر إحساسـي وتوجّسـي جـراء اتحـاد الكـلاب، تلـك التـي صـارت تنهـداتها تفـيض أرقًـا فـي منـازل الفكـر. وخوفًـا مـن المجهـول المتقوقـع فـي موضـع الإحسـاس، تمسّـكت بسـوط الحـذر لأقمـع بـه نقيـق الفـزع السـادي فـي أفـق الخيـال، لأحـيط تلـك المسـالك الصـمّاء والمنافـذ العتمـة بصـمت وترقّـب شـديد. فامتـدت يـداي إلـى غصـن تـوت متـرام خـارج أسـوار إحـدى الحـدائق، تعلقـت بـه، تأرجحـت بـه، شـددت عليـه بقـوة حتـى أنفصـم مـن عقـدة البرعم الذي أمتد من خلالها.

سـحبت الغصـن، جلـوت أوراقـه وكشـط براعمـه وأدمـه وفـروع أغصـانه الملحقـة بـه، فيمـا ظلـت عينـاي تتـوجس أثـر الكـلاب وهـي تهـرول فـي منتهـى الأفـق، حتـى انـزوت فـي غـور الـوادي

بـين متعطفاتـه شـرقا باتجـاه محلـة العروبـة والجمـاهير، متخـذة مـن منحنيات الوادي حماية لها.

جلسـت وحيـدا علـى صـخرة رخـام أترقـب عـودة الكـلاب وفـي يـديَّ شـطب الغصـن أبعثـر بـه الحصـى، أنـش بـه الثـرى. الخـوف مـن المجهـول دعـاني أهيـئ ذاتـي للظـرف القـادم، ربمـا أكـون أنـا الضـحية، ربمـا هـذه العصـا سـتكون القـوة الرادعـة لتجنـب خطـط الكـلاب، وبـذلك أحفـظ نفسـي مـن خطـر لا أعـرف مقداره وحجمـه وهمجيتـه. الفضـول جعلنـي أتقبـل التحـدي والمواجهـة ومتابعـة نـهاية قصة الكلاب.

العصـا لمـن عصـا، وهـذه الكـلاب شـكلها لا يطمـئن، وراء كـل تجمـع غايـة وهـدف، قـد أكـون هـدفا لهـا وخاصـة لـيس لـديَّ مـا أحمـي بـه جسـدي سـوى عقلـي، والعقـل فـي لحظـات المواجهـة يتجـرد مـن صـفاته وفائدتـه، حيـث يتوقـف عـن الأبـداع وخاصـة أذا ما واجه رعبا حقيقيا بحجم رعب الكلب الأسود.

أنــه لــيس كبــاقي الكــلاب، أراه أســدا بهيئــة كلــب، فــي لحظــة الضـعف والخطـر الأكيـد، ينشـل الفكـر، يصـاب بجلطـة لحظيـة، يتسـامى فيـه الـذهول والخـوف بالصـيغة والقيمـة، فحـين يستسـلم التفكيـر للخـوف؛ ينتقـل الشـخص لواحـة اليـأس والاستسـلام، ومنـه إلى فراغ فكري الغير محدود في عالم اللامبالاة إلا ما ندر.

صــرت أهــف بشــطب العــود، أضــرب بــه الأرض، أختبــر صــلابته، وأحيانًــا أطــرق بــه علبــة فارغــة مرميــة علــى جــادة الطريـق، فيمضـي نقيرهـا مجلجـلًا فـي سـدم الصـمت، يـذهب

الصوت بعيدًا ثم يعود صداه ينبئ بالوحشة، يزيد من غثاثة الروع المحيط بي. يرتد الصدى ليترك رنينًا رتيبًا يتسلق هاجس الخيال، فأنشغل بإسهاب قصص شجية عن تلك المجموعة من الكلاب السائبة، قصص من عالم آخر، ركبت مركب الخيال.

... ماذا لو تمكن الكلب من الطيران؟ وتمادى في بحثه عن اللص المحتفظ بقلادة الأميرة، المتخفي خلف أسوار شاهقة أو بين الأحراش؟ حينها ينقض عليه رغم انزوائه، سيفترسه على غفلة من أمره، فالكلب لا يغفل عن رائحة الذهب، ولا عن عبق الأميرة العالق بالعقد. فللشم ميزة فيه ترفعه إلى درجة المتابعة والملاحقة للمجرمين، وإن اختفوا.

ماست شواطئ ذهني أفكار أبعدتني عن صخب الحدث، بحرت في المعقول واللامعقول، ثم عادت بي مجددًا لأنشغل بقصص الكلاب، وكأني على يقين من عودتهم ثانية إلى ميدان المسرح كالطيور المهاجرة.

... يا ترى، ماذا لو استطاع ذلك الكلب الرمادي أن يجمع كلاب المدينة كلها؟ حتمًا هي كثيرة. يوظفها تحت إرادته في أطر ونظم صارمة، يملي عليها توجيهاته وتعليماته، ثم يوضبها تحت إدارته، يلقنها تدريبات في فنون القتال، يشحذها من منهل قوته وشراسته، ثم ينصب نفسه ملكًا عليها.

ستتوسع أهدافهم، سيهاجمون قطاعات المدينة، يحتلونها واحدة تلو الأخرى، حتى يدب الرعب في نفوس الناس، فيهجروا

المدينــة بأسـرها فتغـدو مملكــة كـلاب، الأولــى مـن نوعهـا فــي العالم، تدخل بها موسوعة غينيس للأرقام القياسية.

مملكة لها أحكامها وقوانينها وقواعدها، لها حراسها وأمناؤها، شرطة مرور وتحري وتحقيق وأجهزة مخابرات... كل يعمل من جانبه. وإذا ما دخل بشر إلى مملكتهم، يمزقوه أربًا أربًا.

هـم فـي إدارتهـم لشـؤونهم سـيكونون أفضـل مـن البشـر، علـى الأقـل مـن الناحيـة الأمنيـة. لا يتـاجرون بالتفاضـل علـى حسـاب الطائفيـة أو القوميـة أو الـدين أو الأحـزاب أو اللـون والعنصـرية. لا يُقصـى كلـب مـن عملـه، لا يُعـدم لسـبب سياسـي أو طـائفي، لا يُهجـر أو يُنفـى لعـداء شخصـي أو مـذهبي. لا انتمـاءات حزبيـة، الكل لهم حقوق وواجبات في خدمة المجتمع الكلابي.

ألـم تُسلب فلسطين بتجمعـات استيطانية صـغيرة، كبـرت فيمـا بعد وكونت سرطانا في جسد العرب؟

أوه... أيـن ذهبـت فـي لغـط إسـهابي؟ حقًـا إنهـا مضـحكة. أحيانًـا السـهو ينقلـك إلـى واحـة فكريـة غنيـة أو فسيفسـائية، وأحيانًـا لا تخـرج منهـا إلا والهـم قـد كبّـل يـديك ورجليـك بقيـود خارجـة عـن إرادتك.

وأنـا فـي نشـوة أفكـاري الشـاردة، وأحـداقي منصـبة فـي متاهـات الـوادي باتجـاه محطـة القطـارات، وبالـذات نحـو ذلـك التنـين المعـدني الـذي ترتعـد الجـدران مـن زئيـره المـوحش، وهـو يمضـي فـي سـراط مسـتقيم، لا يحيـد عـن مسـاره قيـد شـعرة، لا يبـالي بمـن

حولـه، يخـدم الجميـع دون أن ينتظـر ثنـاء، لا يتجـاوز علـى حقـوق الناس أو توجهاتهم. إنه جبار في قوته وخدمته وجبروته.

أحيانًـا أسـأل نفسـي: لِمَ لا يكـون الإنسـان مسـتقيمًا فـي حياتـه كهـذا التنـين؟ يـزرع الحـب، يخـدم الجميـع، ولا يـنمّ فـي أعـراض النـاس أو خصوصياتهم.

وأنــا منشــغل بإســهاب الفكــر، وبشُــعب الــذهن المشــظة، وبالــذات فــي ذلــك التنــين القــابع خلفــي، تحــت قبعــة ســكون العتمــة المســحوبة علــى الأرجــاء، يبــدو كجبــل شــامخ، عمــلاق، يتــراءى عــن بعــد وســط الحلكــة الداكنــة، أكثــر ســوادًا ودماســة مــن المحــيط الــذي يألفه. السكون يرسم على هيكله شكلًا مرعبًا، يوجِل بالفزع.

فــي تلــك الأثنــاء، تعــالى غبــار كثيــف أمــام ذلــك التنــين فــي وســط المحطــة، مــن جانــب ســكة القطــار الشــمالية الفاصــلة بــين محلتــي العروبــة والطليعــة. كانــت الرؤيــة شــبه معدومــة، لــم أميــز الصــورة جيــدًا تحــت ظــل الغســق، لبعــد المســافة وكلكلــة ظــلال الليــل، بعــد أن زحــف الغســق نحــو وهــدة العتمــة، مفترشًــا أجنحتــه علــى بســاط الأرض المميدة.

فــي بــادئ الأمــر، لــم أركــن إلــى الحقيقــة الأكيــدة، اعتقــدت الســرب قطيــع غــنم يعبــر المســار إلــى الجانــب الآخــر. لكــن بعــد برهــة، اختلفــت المســألة تمامًــا. لا توجــد أغنــام تســير بهــذه الســرعة تحــت جــنح الظــلام. الأصــوات خافتــة، مبهمــة، تجمــع وتيرهــا علــى نغمــة نبــاح، ضــبحها شــق ســكون الليــل، بــددت فراســتي، جعلــت الأمــور في نصابها دون تفسير.

خـــلال اقتـــرابهم، تمكنـــت مـــن إحصـــاء عـــددهم... كـــانوا عشـــرة كــلاب أو يزيــدون، يوســطهم قائــدهم الأســود. مــن خــلال تــرتيبهم المتناســق، تســتطيع أن تحــدد قــدم انتمــاء كــل مــنهم للمجموعــة، أشــبه بحظيــرة عســكرية تلفــت الأنظــار فــي استعراضــها. مــن اليمـين الكلبـة الصـفراء، ومـن اليسـار ذات الخـوذة السـوداء، ومـن خلفهـم الكلبـان الأبيضـان، ثـم البقيـة. طاعـة وحـزم ونظـام والتـزام، كثيرًا ما يفتقر لها البشر.

خــلال تســللهم المنحــدر بــين المحطــة ومحلــة الطليعــة، صــادفتهم دجاجتـــان تســـرحان فـــي بســـاط الحشـــائش، تحـــت ضـــوء مصـــباح كهربــائي معلــق فــي قمــة عمــود يضــيء الطريــق قــرب مــدرج – الرمبــة– محطــة تحميــل البضــائع الثقيلــة التابعــة لــدائرة الســكك، في السهل الممتد نحو الوادي.

كانـــت الســـاعة تشـــير إلـــى مـــا بعـــد الغـــروب بســـاعة مـــن ليـــالي الصـــيف الدافئـــة، الشـــوارع لا تـــزال عـــامرة بناســـها، والحـــرارة معتدلة.

وقبــل أن تســتفيق الــدجاجتان مــن الغفلــة، وقبــل أن يســعفهما بســاط الــريح، انقضــوا عليهمــا بلمحــة البصــر، صــاغوهما لقمــة ســائغة، دون أن تجـدي قوقتهمـا نفعًـا. اختفيتـا مـن الوجـود، أصـبحتا فـي خبــر كــان، شــفق علــى ذكراهمــا الــريش المتنــاثر فــي الأرجــاء، دلالة على وقوع الجريمة.

كانتـا أشـبه بعربـون صـداقة بعـد جولـة عنـاء دامـت أكثـر مـن سـاعة علـى تجمعهـم وتجـوالهم بـين أزقـة الأحيـاء ودروب الطرق.

لقـد سـمعنا بعصـابات اللصـوص وقطـاع الطـرق، لكـن أن تكـون للكـلاب عصـابة تجـيش الرعـب بـين أوصـال النـاس، فهـذا مـا لـم يخطـر علـى البـال إطلاقًـا. سـتكون أشـد ضـراوة وقسـوة علـى الكائنات الحية دون تفريق.

خـلال تمـاديهم فـي هـرولتهم باتجـاه الـوادي، توالـت أمـامهم قطيـع مـن البقـر، بحـدود سـبع بقـرات يمشـين رتـلاً نحـو مـرائبهن. عِلمًـا أن الأبقـار معتـادة علـى سلك طرقهـا كـل يـوم مـرتين؛ ذهابًـا وإيابًـا دون راعٍ أو متابعــة. تخــرج مــن أوكارهــا فــي محلــة الوحــدة صــباحًا إلــى حيـث الكـلأ المحــاذي للنهـر فــي حــوض محلــة الطليعـة، ثـم تـؤب مسـاءً إلـى حظائرهـا فـي الوحـدة، تسـلكن ذات الطـرق، وكأنهـا مبرمجـة بالسـاعة والدقيقـة. لا يقلـق أصـحابها إن تــأخرت، فهــن يســتمتعن بأمــان مطلــق، لا يعترضــهن أحــد ولا يحيدهن عن مسارهن.

لكــن مـــا إن انبعـــث نبـــاح الكـــلاب خلفهـــن، حتـــى تســـارعت خطـواتهن، وارتجفـت أوصـالهن بـدباب الخـوف والوجـل والهلـع. هــرعن يســبقن شــتاتهن بــأطراف شــتى، فتفرقــت الأبعــاد، ممــا شـجع الكـلاب علـى زيـادة الغلـة والشراسـة. شـاءت الصـدفة أن يـتملص القطيـع مـن شباك فصـيل الكـلاب، إلا بقـرة واحـدة تخلفـت عـن صـاحباتها، لفـرط سـمنها وكبـر ضـرعها. بقيـت تخـور فـي

بطاحها، عاجزة عن الإفلات من قبضة الكلاب، دون معونة أو نجدة.

تكالبت عليها الكلاب، فصارت فريسة سهلة بين أنيابها ومخالب القدر. لم ينفعها نطاحها ولا رفسها، ومضت محاولاتها دون جدوى أمام شراسة الكلاب. جاهدت بخوارها، لكن لا خيط رجاء يميسها، ولا من يهتم بصخب واقعها. داهمها الخطر من كل حدب وصوب، وأطبق عليها شباك الموت. ققز الكلب الأسود على ظهرها، كأنه أطلق العنان لفريقه بالهجوم. عضتها الكلبة الصفراء من ساقها، فيما البقرة تحاول الخروج من براثن الموت، فانقضت ذات الخوذة السوداء على رقبتها، فأصبح حالها يرثى له، كأن نارًا أضرمت في حزمة حطب، والخوف يطقطق حولها.

استغاثت بخوارها، تصيخ منافذ السمع، ومع معاناتها، استطاعت أن تجر جسدها الأجدب نحو مآربها، لتقترب من تقاطع الشارع العام مع سكة الحديد، قبالة مركز الشرطة. كان الصمت يعم المدينة مع حلول العتمة، وصارت على بعد خطوات معدودة من المركز، رغم الجراح التي تكللت بها.

وقبل أن تُفترس ويعلو صوت الموت، دوت إطلاقة نارية في الفضاء، شرخت عالم السكون، وهزت أسارير الكلاب، فأدخلتها في دوامة هلع وحيرة وانكسار. سقطت الكلبة الصفراء تئن في جوف الصمت، تتلوى بصوت هزيم، تدور حول نفسها كمصراع خشبي، حتى خفت نبراتها واستكانت

أنفاسها على الرصيف، خمدت كجثة هامدة تحت عمود كهرباء.

انفضت المجموعة المهاجمة عن البقرة المفزوعة، ودوت إطلاقة أخرى، سقط على أثرها الكلب الأسود، يتلوى زاحفًا بحركات لولبية، حتى استكان في زاوية من ركن الشارع، كاتمًا أنفاسه. تشتتت الكلاب، وصدى الرصاص يتبع أثرها، يمزق أشلائها واحدًا تلو الآخر، تناثرت أجسادها بين منحنيات الطرق.

تجمع الناس على أثر ضجيج الإطلاقات ونباح الكلاب المسعورة، يبصرون حال البقرة المنهكة، في وضع مزرٍ، فيما تبعثرت الكلاب سكرى، متخبطة في وحل الهزيمة. كان من حسن حظ البقرة انتباه شرطي الحراسة إلى خوارها الفجِع ونباح الكلاب المفترسة، فمد بعمرها قبل أن يُقصف، وتكون وليمة دسمة لتلك الكلاب الجائعة.

نهضت البقرة المفجوعة، والهلع ينزف من مواطن الجروح والخدوش التي أصابتها. طنين الرصاص نخر أذنيها، وعلى فجاعة الفزع نعر خوارها خلف خوار أقرانها، وهي تجر جسدًا أجدبًا بخطوات عرجاء وئيدة، تاركة خلفها كتل الروث تتساقط كأقراص دائرية على مسربة الطريق، تعبيرًا عن حجم الفزع الذي أنهك أحشائها، والرعب الذي خزق أوصالها... وعلى أثر هذا الحدث المرعب، والذي كان من الممكن أن يكون ضحيته بشرًا، تم إبادة الكلاب السائبة في أرجاء المدينة من قبل دائرة الصحة.

3- نبع الحنان

يحفّ خطواتها الارتباك، وهي تجري مهزوزة الأسارير بين أروقة الدار، تتبع إيماءة حسّها الرهيف بخطوات متعثّرة، جراء وهمٌ أغشاها، تروم اجتثاث نجواها من فكّ حيرةٍ صمّاء أسرت هواجسها. وهي تمشي تهجس بها قمرا يتهادى بين سحب الغيوم، تتهادى بين جدران الوهن، تتأمل نافذة حلمها المعلّق.

استحوذت على شعب تفكيري، وهي تهفو ببراءة خلف هاجس ظنٍّ أحاط بها. أحيانًا تستأثر بكفاف الثوب، فتنكبّ على وجهها، فينهمر بكاؤها سيلاً من نشيجٍ وآهاتٍ مؤلمة، تشدو بشجوٍ ملؤه شقاء. تستغيث، تنهض، تجد ذاتها مقيدة بسلاسل الأنين، كحمامةٍ تنوح أسفًا على وحدتها وغربتها.

صورة خريفية راغت في وجهها، دموع ترقرقت في مقلتيها، أنسلت على وجنتيها الموردتين، استباحت جمّار الخدّ كلآلئ البرد وهي تغشي تويج ورد وجنتيها... لم تقاوم جلدها، وهي تشهق برنيم صوتها النغم:....

– ماما... ماما... ماما...

لا تدري أيّ وجهة تستقل، ولأيّة جهة تمضي. فكرها قيدُ حيرةٍ شلّت قدراتها، وأسرت هواجسها فيضَ حنان أمّها. كدميةٍ إلكترونية تدور في أرجاء الصالة، تبحث عن ثلمة عطف، عن رمق أملٍ يسعف قلبها المُلك بدبق الحزن.

تمشي، وقناديل أوصافها تشعّ نورًا. العطر يفوح من عناب ثغرها، يمتدّ زكيًّا مع قصيد قوامها الرشيق. نورٌ يشعّ من بريق عينيها السوداوين، كوهج مصباحٍ يتلألأ في فضاء العتمة. شعرها كرستالٌ لامع، منسلّ على الكتفين، وقلنسوتها شريطٌ فضيّ يختلج بهاء النور. تهجس بشفتيها تويج وردةٍ جورية، تحيطان ميسم قوادمها البراقة.

وهي تخبّ بمشيها، كأنّها زهرةٌ ترتجي دفء الشمس. ترتدي ثوبًا مزركشًا يصدح بألوانٍ قزحية، يوسط خصرها حزامٌ فضيّ يتناغم سحرًا مع شريط قلنسوتها ولون حذائها.

لم أتمالك نفسي أمام حيرتها الجامحة، وهي تبدو بطوفانها الواهف كشعلةٍ نورانية منكسرة بين الرجاء والوهم. هجست بمشاعري تلفظ حمم عواطفي على خديها، امتدت ذراعي بشغف إلى إبطيها، حملتها، ضممتها إلى صدري بدفء وحنان الأبوة. قبّلتها، داعبتها، مسحت دموعها، ولأقوّض حيرتها، همست بأذنيها قائلًا:...

- أنا هنا... لن تضيعي بعد الآن...يا إمارة... يا حبيبتي ...لا تبكي... ماما ستجلب لك زجاجة الحليب.... هيا كفي بكاء... هيا نمضي إليها....

خفتُ من روعها ومن حدّة بكائها، لكنها ظلّت تتلفّت في الاتجاهات بعينيها الساحرتين، تبحث عن وسادة حبٍّ وأمان، عن نغمة حبورٍ تكشف حيرتها، عن كأس عطفٍ يعينها على

نأيهـا، عـن نبـع الحنـان، عـن رمـق أمـان، عـن الطيبـة المباحـة، عن "ماما" الحبيبة.

رغـم أنـي حملتهـا علـى صـدري، إلا أنهـا بقيـت فـي ثنيهـا تكـلّ مـن الشـك، لحظـاتٌ ثقيلـة جعلتهـا تعـاني مـن طـيّ الحقيقـة، وهـي تـدور بعينيهـا الـدامعتين يمينًـا وشـمالًا، تبحـث عـن "مامـا". ألهبت زغـب الفـؤاد، وزادت مـن دفـق نبضـه. هجسـت بتـأخّر والـدتها، فنفضـت شـقاء الصـبر كـدخان أنـينٍ اجتـاح مشـاعري الراكـدة، وكبّلتنـي بفيض همّها وغمامها.

رعـدٌ أهـاب نجـيم إحساسـي المضـنك بموجـات نحيبهـا، بـدت الرتابـة تطفـح فـي نصـاب الأمـور، كـأنّ الأشـياء تسـامت فـي رقـائق الحيـاة، وأضـحى البيـت قفـارًا مـن وجهـة نظـري. شـعرتُ بـالأرض وقـد توقّفـت عـن الـدوران، فـي حـدود الصـمت والجمـود القابع في وجهها.

كـأنّ الـزمن اسـتنفد دقائقـه، وتـاه الفكـر فـي مبـدأ الخطـوة، وأظـلّ القـدر مراكـب السـفر. أضـحى الوضـع مرعبًـا فـي تلـك المتاهـة، جُرّدت الألفة من الوجود، ومن العلاقة الآنية بيني وبينها.

جعلتنـي أشـعر بتقصـيري تجاههـا، وكـاد قلبـي المتـدثّر بآلامـه المسـهبة أن يتوقّـف، لـولا أن شـعّ هـلال أمّهـا فـي الأفـق. لحظـاتٌ عجـاف، غرسـت مخلـب نارهـا فـي عنقـي، كـدت أختنـق، لـولا صـدح صـوت أمّهـا المتهـادي فـي الأفـق، ليشـعّ أمانًـا عبـر أثيـر صوتها الدافئ، الذي أغشى قلبها كنسمة صبحٍ باردة:

– حبيبتي إمارة... أنا قادمة.

ومع سماع الصوت، انفرجت الغمامة، وارتسمت على وجهها ملامح الرجاء. دبّ الفرح في ربوعها، فرشت الابتسامة على ثغرها، طاقة كهربائية أسرجت السرور في قلبها، ألهمتها بهجةً وحبورا قوضا حيرتها.

ما إن بزغ هلال أمها من خلف الستار، حتى صارت تناجيها بروح مرحة، تسمعها هديلها وغريد مناغاتها، أراقت الود والحنان في باحة صبرها، وأحسستها بلين عاطفتها وأشواقها وهي تناديها:......

– حبيبتي إمارة، لا تبكي... سأأتيك بزجاجة الحليب.

صارت تضحك، واختلط شجو بكائها بقهقهتها وشهقاتها ومناغاتها، تهتز في حضني وبين ذراعيّ كالنابض الحلزوني، فرحة جذلى كأفراخ الحمام، تكتكت، تزقزق، وتلألأ سراج وجهها بسعادة سرتها.

كنتُ قد استسلمتُ للقدر الذي قيدني، أهجس بها، طعنتني بنصل براءتها في صميم المشاعر. ألمّ بي الجرح، نزف غيرةً في محبتي وخجلاً في وجاهتي، تحسست ذاتي المنكسرة، جزلت هيبتي وأبوتي، وجعلتني أتأفف من وخز الألم وهو يسري في عروقي الجافة كسيل من الندم، مزقت صور الحماقة المعلقة على جدران كبريائي.

أهجس بالطبيعة قد فرضت سحرها على لون إحساسي، جعلتني أتراجع عن حالة التزمت والتشبث بالسلوك العابث، جعلتني أواجه الأسئلة التي طرحتها على ذاتي، باحثًا عن أجوبة لها في طابع قراراتي.

أحسستني بحقيقة حجمي وقباحة شكلي، أمام تلك البراءة التي حجّمت هيبتي، أوحت لي صغيرتي بأن الإنسان لا يحتاج إلى قوة لينتصر. ها أنا أُهزم أمام براءتها بتلك العصا الرقيقة الطرية التي هفت بها على مكامن الألم، وتركت أثرًا في النفس والذاكرة، سيمضي معي حيثما حييت.

إنها إرادة الله، الجزاء بقدر العمل، فعادل الكيل بالميزان، ونضح كل إناء بما فيه. أفرزت الحياة الحسابية حلولًا جذرية للحالة المستعصية، جادت بثقالها، لتنبثق سعادة واقعية مقابل زيفٍ كان يساورني ويغشيني. سعادة لا بد من تفعيل أسسها، فبخلافها ستبدو مخارج الحياة ضيقة في أطرها الرمزية المباحة. لذا، لا بد من أن أتبع سياسة جديدة تجاه صغيرتي وأسرتي، تلك التي مدى بصرها لا يتعدى أطر حدودي، تلك التي تتذرع إلى الله أن يصون قدري في حدودها الآنية.

جاد سوط العقاب، لابتعادي عن حدود الأسرة، لانشغالي بأمور ليست ذات أهمية، أمور تافهة كانت قد شغلتني عن أسرتي، أنستني ذاتي ومكانتي.

تلك الأسباب جعلت العلاقة بيننا واهية، لم أكن أبصر لون القدر الفاقع الذي يجمعنا، إلا بعد أن بعثرت صغيرتي بعصا

البـــراءة جمـــرة القطيعـــة تحـــت قـــدمي، لتلســـعني بهـــا، فـــانتبرت مشـاعري، وتبـددت الغشـاوة عـن نافـذة الصـبر قبـل انـزواء شـمس الحب في بطون الغسق.

كـــان لا بـــد مـــن صـــدمة تهزنـــي، تعصـــف بـــأوراق الحيـــرة المصـفرة، قبـل أن تعصـف ريـح السـخط بخيمـة السـعادة. ببراءتهـا أحرقـت جوانـب التقصـير عـن بكـرة أبيهـا، بـددت الـوهم والزيـف عـن حـدود الأسـرة، لتفـيض سـلال الشـوق بالأمـل والسـعادة مـن جديد.

بعـد تلـك الحقبـة التـي انقشـعت وولـت، تغيّـر الحـال، وبالـذات مـع صـغيرتي التـي كنـت نـادرًا مـا ألاطفهـا وأداعبهـا، خاصـة خـلال عـودتي المتـأخرة للبيـت وأنـا مرهـق بالكلـل والملـل. كـان الـروتين قـــد ســـفّ جـــدول أعمـــالي اليوميـــة برفقـــة رفـــاق الســـوء، وكـــان الإحســـاس مكفـــوف البصـــر، والمشـــاعر مقيـــدة، والمحبـــة مبعثـــرة بـــين كـــوات الخجـــل، وأنـــا أتســـكع خلـــف بنـــات الهـــوى والنـــوادي الليلية.

تلـــك كانـــت مهـــازل أبـــوتي، اصـــطبغتُ بهـــا عبـــر تلـــك المرحلـــة المريضـــة مـــن العمـــر، اســـتطاعت صـــغيرتي أن تنســـفها ببراءتهـــا، أن تمحيهـا عـن جـادة الطـرق. تلـك غيمـة انقشـعت لحتفهـا، انتبـرت مخالـــب الغيـــرة تفتـــك بخـــدود الـــوهن، وأفرتـــت ينـــابيع الأبـــوة فـــي سهول الأسرة، لتسقي بزلالها تلك العروق الظامئة.

وأنـــا فـــي سرحاني وإسـهابي الفكـري، أبحـث فيهـا عـن لغـز الحقيقـة والســـعادة المغيبـــة... كانـــت صـــغيرتي قـــد انســـلت مـــن بـــين ذراعـــي،

كسمكة تنتشل ذاتها، متشبثة برقبة أمها. هفت برغبة جامحة، مرتمية بأحضانها، صارت تشم رائحتها، تلعق صدرها، كأنها عطشى لنبع الحب والحنان.

استكان غضبها كسكون العاصفة، وانقطع أنينها كانقطاع الوتر، طفح الابتسام يثري وجهها، واستعادت هدوءها، كوردة الصبح تحت دفء الشمس، محمرة الوجنتين، تزين صدر أمها.

بعد أن التمست الأمان، أغمضت عينيها، لتنام قريرة العين في رحاب حضن والدتها. نامت، وتركت دمامل الندم تتفجر بأحضاني، لتعيدني إلى رشدي ومكانتي.

بسلوكها وقلقها، كانت قد غرست الحكمة في ذهني، غسلت بدني من كل رجس رجيم، ألهمتني أسرار السعادة الحقيقية، تلك التي كدت أنسى شكلها ولونها، جعلتني أشعر بقيمة ذاتي وأبوتي، جعلتني أعرف جيدًا أين أضع خطوة القدم.

إنها إرادة الله، قبل أن تكون إرادة صغيرتي، لقد أصلحت شأني وذاتي:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ صدق الله العظيم.

فهي حقًا نعمة لم أكن منتبهًا لها.

4- فرصة هدف

لم يكن حجمي الصغير ونحول جسدي عائقًا أمام ولوجي عالم كرة القدم، تلك الأمنية التي لازمتني منذ نعومة أظفاري، ونمت في صمتٍ داخلي حتى أورقت أغصان الرغبة تحت شمس الصبر الحارقة.

كم راودتني الرغبة في مشاركة أولاد الحي شغفهم ولهوهم، لكن محاولاتي المتكررة اصطدمت بجدار الرفض الصلب. تعنتهم المستمر حال دون تحقيق حلمي الغض، حتى باتت علاقتي بهم متشابكة بخيوط العناد والتعقيد، أتيه في ظنونهم، وأتخبط في واقعهم الذي نصب بيني وبينهم حاجزًا منيعًا من الإنكار.

سلوكهم الجارح كان كالسدّ المنيع أمام نمو موهبتي، يحمل في طياته شيئًا من الحنق، متذرعين بضعف بنيتي وهزال جسدي. بسيف الغل قطعوا حبل الوصل، وجعلوا لبنة العلاقة بيننا هشيمًا تحت أقدامهم، فمحوا بوادر الأمل من رقعة الرجاء، وغالوا في القطيعة بإصرارٍ مؤلم وتحدٍ قاسٍ.

وجدت نفسي أتهاوى في وحدةٍ موحشة، أتمرغ في وحل التيه والخذلان، مكبّلًا بقيود العجز، عاجزًا عن تسلق سلم المجد برفقة أبناء الحي. سلوكهم الجارح نخر ثقتي بنفسي، وألقى بظلال اليأس على محاولاتي، حتى بتُّ أعيش على جمر الحسرة، أتقلب بين الوحدة والانكسار.

فـي الوقـت ذاتـه زدتُ هوسـا وولعـا باللعبـة؛ زدت ارتباكـا نحـو ذاتـي الأسـيرة، كـأنّ كيـاني وتكـويني الخلقـي هـو المـانع الـذي يحيـل أحلامـي إلـى مجـرد أوهـام مدفونـة بـالثرى، كـأن الحلـم لـم يكن سوى سراب يتلاشى في مهب الريح.

غـدت علاقتـي بالكـارت الأحمـر الـذي يرفعـه زملائـي فـي وجهـي علاقـة مألوفـة وواقـع حـال، كصـداقة مشـوبة بـالحنق والقسـوة، يختـزل فيهـا صـبري إلـى مـرارة ذائبـة فـي صـمتي، لا يتـذوقها سـواي. حالــة حــزن داكنــة ظللــت جفنــيّ، لازمتنــي زمنًــا، وانتزعـت البهجـة مـن قلبـي، حتـى بـتُّ أتنـازل عـن كبريـائي، راضـيًا بصـيغة الانكسـار، متخفيًـا خلـف سـتار الرضـوخ لقـرار الجماعة.

كنـت أحيانًـا أجهـش بالبكـاء، فـألوذ بعيـدًا عـن أنظـارهم وتعليقـاتهم السـاخرة، كطفـلٍ فقـد دميتـه، أختبـئ فـي جحـري، صـامتًا فـي أعماقي، أجرع مرارة الصبر على مضض.

تلـك الوقـائع لـم تبـرح تغـزو مشـاعري بألسـنة مـن نـار، تصـقلني فـي محـراب التصـبّر، حتـى تحـوّل انكسـاري إلـى قـوة، إلـى دافـع وإلهـام، أقحمـت بـه ذاتـي فـي ميـدان الكـرة بعيـدًا عـن جـدل المجموعــة. بـتُّ أخطـط بفكـر متقـد، وبعـزم ينـاطح عـزائمهم، باحثًـا عـن بصـمة إبـداع تحمـل اسـمي، وتُثبـت أن الحلـم لا يُقـاس بجسد، بل بإرادة لا تلين.

.

بتُّ أبحث عمّا يغيثني، ما يدفعني لبدء الخطوة قبل أن تخبو فورة أحزاني. رغبتُ في رسم خارطة طريق واضحة المعالم، تقودني نحو أهدافٍ تفوق ما راودني من أحلام، متطلعًا إلى سلم الشهرة، متتبعًا الغاية، باحثًا عن بصمة شخصية تميزني.

صرت أتلّمس تلك الحالة، أراها تتراقص أمام عينيّ كزهرة توليب مغنّجة، تتمايل في شفق الألق، رغم الغشاوة التي كانت تغشي ثقتي بذاتي. ما إن تبهجني، حتى تختفي خلف وشاح الحسرة والألم.

ومع الصبر، بدأت الحالة تدغدغ عزيمتي، جردتني من شبح الخمول، وأوقدت في داخلي شموع الأمل، دهنتها برغاء الحلم، وأشعلتها بالمثابرة والعمل الجاد، بعيدًا عن أعين من يجحف بقدراتي، ويقلل من شأني، ويحكم على إمكاناتي الفتية بالفشل.

تلك الأمنية لم أجد من يؤازرني فيها سوى والدي، الذي منحني معطف عطفه وحنانه. ورغم إدراكه لمحدودية إمكاناتي الفنية والجسدية مقارنة بزملائي، إلا أنه لم يثنِ عزيمتي، بل جارى رغباتي بصمتٍ حنون، دون أن يُظهر شكوكه الداخلية في نجاح محاولاتي.

بتُّ أتابع مباريات الدوري الأوروبي عبر التلفاز، وأغوص في برامج السوشيال ميديا، خاصة على اليوتيوب، أستمتع بتكرار الحركات الفنية التي يتقنها أمهر اللاعبين، وأحفظها عن ظهر قلب. وفي اليوم التالي، أحاول تطبيقها قدر

المستطاع، مقلدًا إياها بتفانٍ، لأغرس المهارة في عضلة القدم، وأصقل مرونتها. هكذا نما هذا الولع في خاطري، حتى غدا من أولويات اهتماماتي، ومن أعذب ألحان عزفي على وتر الطموح.

شيئًا فشيئًا، نمت بذور المهارة في قدميّ، وبدأت أسندها بالتمرين المكثف، أرويها بالجهد والمثابرة لتترسخ وتزهر. تحفزت ثقتي بنفسي، وارتفعت أشرعة التحدي حتى بلغت حدّ الوله، فأصبحت أكثر قدرة وتحكمًا، وأكثر ولعًا بالكرة. بدأت أكتشف أسرارها الخفية، طبيعة دورانها، ودهشة انسيابها، حتى نما بيني وبينها عشق سرمدي، إحساس بالألفة والتناغم، كأن القدم وسطح الكرة يتراقصان بانسجامٍ رقيق، يتماشى مع خفتها ورقتها.

ومع مرور الزمن وتكثيف التدريب، نضجت حكمتي، تعمّق ولعي بالكرة، وتطورت قدراتي الفنية. بلغ التناغم بين القدم والكرة ذروته، تحولت العلاقة من مجرد رغبة إلى ألفة، ومن ألفة إلى إعجاب، ومن إعجاب إلى حوار وتلاقٍ حميم. صارت الكرة صديقتي، ورفيقة دربي، عشقًا استثنائيًا يسحرني، يشغل تفكيري، حتى بتُّ أول المعجبين بإمكاناتي الفتية.

أدركت الكرة لغز المهارة في ذهن قدمي، وتطورت العلاقة بيننا لتدخل مجالًا فنيًا وتكتيكيًا، إحساسًا مرهفًا بالمهارة. نما ذلك الشعور في قدمي، كما لو أن الكرة تبادله عشقًا، تتبع مرونته، وتستجيب لنبضه. غدت الألفة بيننا تتجاوز الروتين، تحولت لحوار صادق لتستوعب وتتفهم مقاصد ذهني، مثلما

صرت أتوقع نواياها، وأقرأ دحرجتها كما يُقرأ الشعر في لحظة إلهام.

هكذا تحولت تلك العلاقة بيني وبين الكرة من مجرد رغبة وألفة سطحية؛ لصداقة حميمية، لعشق سرمدي،، لولع هجيني، صار عشقي لها كعشق الليل للقمر....

ذلك الولع استحوذ على تفكيري، جعلني أغوص في إرهاصات عزف الكرة، أذوب كفكرة في محاكاتها، ودحرجتها، وطبطبتها. صار التناغم بيني وبينها يرتقي إلى درجة الألفة، حتى باتت تنجذب إليّ بنهم، دون عناء، تهيم بلسعة القدم، تلتصق به ويلتصق بها. أدحرجها برواء الفكر وعطف النظر، فتمضي كما يشتهي القدم. أصبحت سليلة العقل والذات، غرست في نفسي بذور الثقة، حتى تيقنت من قدراتي الفنية.

لكن هذا الشغف الكروي أنساني جانبًا مهمًا من اهتماماتي المدرسية، فأصبحت أقل نشاطًا وعلماً مما كنت عليه. تراجع مستواي الدراسي، حتى بات دون مستويات زملائي، مما زعزع قناعة الأساتذة بقدراتي العقلية. فانهالت عليّ التنبيهات المتكررة من إدارة المدرسة، وأحيانًا بلغت حد التوبيخ والتنكيل والصرامة، حتى أُجيز لهم طردي أو منحي فسحة استراحة طويلة.

ومع ذلك، لم يثنني شيء عن هدفي، ولم يمنعني من الهيام بمعترك الكرة. واصلت تحدي الظروف، ورسمت مخطط الهدف ومنحنياته على صفحات الذهن، وجعلته تحديًا لي

ولزملائي ولكل من شكك في قدراتي. تحسست إمكاناتي العقلية، وأدركت ذكائي في فن اللعبة، حتى نبتت الثقة في نفسي، رغم أنني لم أختبر ذاتي بعد في ميدان التحدي الحقيقي.

لا أذكر عدد الأيام والشهور التي قضيتها في التدريب، لكنها لم تكن قصيرة. ما أذكره جيدًا هو إصراري الوحيد على النجاح، إصراري على تجاوز العقدة، وإثبات الذات، والتمسك بناصية الفلاح، مبذلًا قصارى جهدي لبلوغ الغاية المنشودة.

ما كان ينقصني سوى اختبار قدراتي الفنية في مضمار حقيقي، لأثبت مسامير الثقة على لوح القدر. كنت أبحث عن ضالتي بين قوائم الحظ وعيون المدربين، أتعنى للأماكن البعيدة، لأكسر قيد الوحدة، متتبعًا ومضة الأمل في نظرات الزملاء ولسان الجمهور، متأملًا أن أجد لنفسي مكانًا في أي فريق، حتى لو كان في ذيل الترتيب.

ذهبت أبعد من حدود اللياقة واللباقة الرياضية، حين سعيت وراء وساطة تنتشلني من وحل الهوس والتمني. بحثت عن الفرص في أعماق الرغبة، وفي وجوه الحقيقة التي أترجاها. طرقت أبواب الغرباء والمعنيين، ممن لا تربطني بهم صلة أو معرفة مسبقة. كان لا بد من اقتحام تجربة تعزز ثقتي بنفسي.

ظل الفشل يناصب الحظ، وربما كان لقصر قامتي وضعف عضلات ساقي دور في عدم اقتناع المدربين بإمكاناتي. لكنني كنت مؤمنًا بأن مغامرة واحدة كفيلة بإظهار قدراتي في المحك الحقيقي.

ولـم تطـل فتـرة الانتظـار، حتـى جـاءت الفرصـة علـى طبـق مـن ذهـب، حـين تغيـب أحـد أبـرز مهـاجمي فريـق محلتنـا فـي مواجهـة خصـم قـوي، اعتـاد فـرض هيمنتـه علينـا. منحنـي الحـظ فرصـة العمـر، التـي قـد تغيـر مجـرى حيـاتي. تمسكت بهـا بكـل مـا أوتيـت مـن عزيمـة، مقـدّمًا نفسـي للمـدرب، ومنتشـلًا إيـاه مـن حيرتـه، ليعوض النقص الحاصل في فريقه.

فـي الحقيقـة، لـم يكـن أمـام المـدرب خيـار آخـر؛ فقـد غـاب ثلاثـة أو أربعـة مـن عناصـر الفريـق الأساسـيين، فاضـطر لقبـولي، دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن مهاراتي.

مـا إن وطئـت أرض الملعـب، حتـى تملكتنـي نشـوة غـامرة، غسـلت آثـام الصـمت الطويـل، وحلّقـت بـي علـى أجنحـة الفـرح نحـو الشـمس. كـان علـيّ أن أسـتغل الفرصـة، لأذيـب ثلـوج الهـم، وأجـزل عبـث الشـك. لقـد صـرفت جـلّ طـاقتي، وتنازلـت عـن اهتمامـاتي الدراسـية والاجتماعيـة، مـن أجـل هـذه اللحظـة. بحثـت عنهـا فـي بطـون الظـن وآفـاق الحلـم، وطرقـت أبـواب العسـر لأبلـغ غايتي.

التجربـة دعتنـي لأمثـل فريقًـا لـم يتقبلنـي سـابقًا، فشـعرت بنشـوة النصـر، حلّقـت بـي عاليًـا، وألهبـت أرضـية الملعـب بفنـي وألقـي، كضوء كاشفات الملعب.

ومـع صـافرة الحكـم، تحركـت جيـوش التحـدي فـي مرونـة قـدمي، لتـزيح هـالات الظـلام عـن العيـون الغاشـية، وتخـرس ألسـنة

المشككين، وتعرّي نوايا المغرضين والحسّاد الذين لسعتهم سعادتي، والمنافقين الذين أزعجهم وجودي كلاعب أساسي.

كانت نشوة لم أذقها من قبل، هجست بها كلون البنفسج في تويج زهرة اللافندر، شحنتني بالمثابرة، وجعلتني أنسى أنني أخوض أول تجربة حقيقية. صاحبتها رهبة خفية، خلخلت ثقتي في البداية، كضباب الصباح يغشي الرؤية، خاصة أمام جمهور غفير له باع في التحليل والكرة.

لكن تلك الرهبة تبخرت مع صافرة البداية. لم أترك للشك موضعًا يعكر صفو مزاجي، ولم أسمح للقلق أن يقيد ثقتي. ذلك النور المشع في عقلي استثار مرونة قدمي، ومحق الرهبة عن فضاء الكرة.

بدأت أتحرك في ميدان اللعب كما تبدأ الحياة بنعومة أظفارها، متكئًا على التوجس والحذر كعكازين، أتنقل عرضًا وطولًا، واضعًا الحلم نصب العين، متمسكًا بالرغبة والتحدي. كل خطوة أخطوها كانت بحثًا عن لغز الكرة، عن عقدة الألفة بين القدم والكرة، متكئًا على الجهد والطاقة، فإذا خفَ الجهد استعنت بالطاقة.

كانت الفكرة تتدحرج أمامي مع كل حركة، تعينني على فك شفرة اللعبة، على إيجاد صيغة تفاهم وحوار بين الكرة والقدم. أصبحت مسارات تحركاتي في الملعب من أولوياتي، أُبرز ما أخفي من مهارات وقدرات فنية أتقنتها. بدأت ألعب بثقة عالية، أحاكي الكرة في مساراتها، أداعبها براحة قدمي، أمنحها ثقتي،

فتبتسم لي، تتراقص تحت القدم فرحة جذلى. ما إن أتأملها، حتى تلازمني، تصاحبني، ترافقني. أوطدت الثقة بالنفس، وكشفت لي عن عشق حميم يجمعني بها. غدا التناغم بيننا مرهفًا بالحس واللمسة، أعينها على الحركة وتعينني على السيطرة.

صرتُ أحف بها الأرض، أدحرجها برفق ورغبة، غدت تقرأ ما يدور في سطور الذهن، تستهوي فكر القدم قبل أن أقدم عليها. أضحت العلاقة بيننا جدلية مثالية، تميل حيث تميل مرونة القدم، ترقص على وقع الفكرة والمهارة، تطاوع لمساتي بحنية، وتستهيم برقة إحساسي بالحركة.

غدت بيني وبينها جاذبية ناعمة، فيها شيء من المغناطيسية، فما إن تبتعد عني حتى تعود بشوق ولهفة، لتلتصق بخف القدم. لا تحيد عن مساراتي قيد شعرة، تستهوي إرادتي وتطلعاتي بحرفية، كأنها تقرأ ما يدور في سطور فكري، تستجيب لمهارة القدم، لا تخالف رغباتي، ولا تعاند أهوائي. ملتصقة بالقدم كالمرونة التي تغريها، كأنها خُلقت لتكون امتدادًا لذاتي.

صارت الوشائج حميمة بين الكرة والقدم، بحيث يجتمعان على آصرة الفن واللغة والأبداع مع كل مناورة أو مناولة أبديها، أضحى التناغم بيننا على أشده، أحاورها، تحاورني. أراعيها، تراعيني. أداعبها ، تداعبني. تلتف حول رغبتي، تتحرك حسب الأهواء والغاية، تذهب بعيدا لتعود إليَّ بشوق ولهفة، شغف أكبر مما كانت عليه، يلتف حولها وتلتف حوله، كأنها مرتبطة بالقدم بميثاق عهد وعبودية. ما أن تدرك غاية

القدم؛ حتى تستميل لأهوائه، فتزيدني سحراً وألقا وتحررا في أرجاء الملعب، تزيدني ثقةُ ويقينا بقدراتي ومناولاتي.

أضحت لغة الحوار تطرب سماع الجمهور، للشغف الدائر ما بيني وبين الكرة. ما فتئت أضحت لغة الحوار لغة عشق وتخاطر وهيام وثقة متبادلة، ترجمت بصدق العلاقة التي تجمعنا..

مع مرور الوقت، تحولت علاقتي بالكرة إلى تحدٍ وإصرار في مواجهة الخصم. تجاوزت لغة الفن والمهارة، لتغدو لغةً لا يفقهها سوى الجمهور، لغة تخاطر وبرمجة بين العقل والكرة؛ بإيحاءٍ من الفكر تستجيب لدوافع القدم، وبنظرةٍ من العين تفسر خواطر الذهن، فتنساب لإرادتي دون عناء، دون أن أجهد نفسي في محاكاتها.

بدأت أسمع تصفيق الجمهور وهتافاته الصاخبة تشد من أزري، وصار الملعب يزداد هيجانًا مع كل لمسة أضعها على الكرة، مع كل تمريرة دقيقة أو تسديدة نحو الهدف. مرةً بعد مرة، ازددت ثقةً ومعرفةً بمسالك الهدف. أحيانًا أشعر أن الكرة تكافئني حين تتدحرج أمامي وفق أهوائي، وأحيانًا أنا من يكافئها حين أعدل انحرافها. ارتقت العلاقة إلى مستوى القيادة والانضباط، فخلخلت بها صفوف الخصم، وشققت مسارات بين تكتلاته، حتى تقوضت ثقته بنفسه.

ومع تصاعد الهتافات باسمي، وفرحة المدرب بما أقدمه، شعرت بغبطةٍ تكتنفه، لمحتها في تشجيعه المستمر، وفي منحي

الثقة والحرية الكاملة في تحركاتي وتوزيعاتي المربكة للخصم. أحسست بمسحة أمان تغشى وجهه ووجوه الزملاء، فدفعتني تلك الثقة إلى بذل أقصى جهدي في إدارة اللعبة. كان يشحن طاقتي بالدافعية، يتكرر صوته في أذني: "أحسنت يا حسن، سدد يا حسن".

ومن فرصةٍ مواتية، لم أدعها تفلت من قدمي أو تُغفل ذهن الحارس، سددت ضربةً مباغتة من خارج منطقة الجزاء، ذللت بها المسافة، ومنحت فريقي هدف التقدم الأول، حين استقرت الكرة في الشباك على يمين الحارس.

كان هدفًا مباغتًا، جميلًا، هز أركان الخصم والملعب، شق السكون بهدير الأبواق وأهازيج الجمهور. تعالت الأصوات تشدو باسمي: "لتهتم يا سالم، حسن نزل بالساحة"، واده طمأنت الحارس سالم.

بدأ الفريق المنافس يستشعر خطورتي، فصار يراقب تحركاتي عن كثب، بأكثر من لاعب، يتبعون خطواتي كلما أمسكت بالكرة، مما أتاح لزملائي فرصة التحرر والتقدم نحو الهدف.

تسيدنا أرجاء الملعب، كثفنا الهجمات والتسديدات من اليمين والشمال. ارتسمت ملامح الانكسار على الخصم، وتراجع بلا مناص، فاضطر إلى تغيير منهجه، واعتمد أسلوب الخشونة الزائدة، في محاولة لتجنب خسارة ثقيلة.

الخشونة بحد ذاتها كانت مصدر رعب لي، إذ كشفت هشاشة جسدي وضعف عضلاتي البدنية. لكننا حولنا هذا التحدي إلى

دقــة فــي الأداء فاقــت توقعــاتهم، عبــر تمريــرات ســريعة متقنــة أربكـــتهم وأصـــابتهم بالـــذهول. فتحولـــت المبـــاراة إلـــى صـــراع محتــدم، كصــراع القــط والفــأر؛ نــركض بــالكرة وهــم يلاحقوننــا، يحاولون كبح جماحنا مستخدمين الخشونة كسلاح.

كنــا كخليــة نحــل فــي تعاوننــا، نبــذل جهــداً مضــنياً، ثــم ننســحب خلــف الهـــدف لنفـــاجئهم بســـوط غيـــر متوقـــع. قـــابلوا محاولاتنـــا بنديـــة عاليـــة، وبخشـــونة مفرطـــة، لجـــأوا فيهـــا إلـــى الضـــرب المتعمـــد وقطــع الكــرة بأســاليب عنيفــة باســتخدام الشــحط والمقــص، كــالفكين المنطبِقــين. حاولنـــا قـــدر الإمكـــان تفـــادي احتكـــاك بهـــم، والإفـــلات من شباكهم.

اســتمرت المبــاراة علــى هــذا النحــو: هجــوم شــرس مــن جانبنــا، ودفــاع مســتميت مــن طــرفهم. وبــدأت الخشــونة تأخــذ طابعــاً عنيفــاً، خاصـــة ضـــدي، وكـــأنني القطـــب الوحيـــد الـــذي أخـــلّ بتـــوازنهم لصالح فريقي.

قبل انطلاق المباراة، لمح الخصم بإمكانية الفوز، مغتراً بذاته بثقة عمياء، متجاهلاً قدراتنا، ومتيقناً من عبور قنطرتنا. راهن على ذلك، كما دلّت تعابير وجوههم الاستفزازية. لكن عدوانيتهم منحتنا فرصة التحدي، فكانت المفاجأة صاعقة، كالت لهم الصاع صاعين، وبددت كبرياءهم إلى شراشير ورق تعبث بها الرياح.

وقبــل نهايــة المبــاراة بــدقائق، ســنحت لــي فرصــة ذهبيــة. تقــدمت بـــالكرة، راوغـــت المـــدافع المتقـــدم، ثـــم الظهيـــر الأيمـــن، فالمـــدافع المتـــأخر، ودحرجـــت الكـــرة مـــن بـــين قدميـــه، لأجـــد نفســـي فـــي

مواجهة المرمى. وقبل أن أسدد الكرة، تلقيت دفعة قوية من الخلف أفقدتني توازني، فاصطدمت بالقائم القريب بشكل مباشر ومؤلم، تاركة شرخاً عميقاً في عضلة الكاحل الأيمن، وكدمة في عضلة الساق اليسرى. تزامنت صرختي مع صافرة الحكم، الذي منحنا ضربة جزاء مستحقة، وكارتاً أحمر للمدافع المعتدي.

رغم الدموع المنهمرة، غمرتني ابتسامة النصر بملمس من حرير، وسعادة ناعمة ملأت قلبي، دهنت حناجر الجمهور بالفرح. وصلت أصداء مهارتي إلى الصحف والشارع، وتلألأت صورة النجاح على وجوه الزملاء، خاصة المدرب الذي تألم لخروجي، وعبّر عن مشاعره الجياشة بكلمات ثناء ومديح، مؤكداً على عودتي السريعة لصفوف الفريق.

إصابتي لم تمنع الفرح من أن يرسم إشراقة الحلم على وجهي، بعد أن تحقق الهدف الذي صبرت عليه طويلاً. رأيته نجمة بارقة في سماء الكرة، يتأملها الجميع برجاء.

ورغم هذا النجاح اللافت، بدأت أفكر في هدف أكبر وأسمى. فطموحي لا يزال في بداياته، والطريق إلى القمة يبدأ بخطوة. ما تحقق كان أول الغيث، فالأهداف تكبر وتسمو مع العطاء. وكما قال تعالى: "وإذا عزمتم فتوكلوا".

5- المتسول

لم يخطر بباله قط، أن نمط حياته الرتيب الذي اعتاده منذ نعومة أظفاره، سيشهد تحوّلًا غير متوقع. لم يتصور أن عجلة الأيام ستدور به عكس اتجاهها، لتواسيه وتنتشله من قاع زمنه وأزمته. هناك نقطة انعطاف، حيث يتنفس جذوة صبره المتقدة، تمضي به نحو التتويج، نحو شمسٍ لم ترأف به من قبل، لتبدّد الغمام عن رأسه إلى الأبد.

لقد عاش حياة زهدٍ منسية، بعيدة كل البعد عن أعين المسؤولين واهتمام المعنيين بالإنسانية، حياة راكدة كركود المياه الآسنة، حتى باتت لا تعني له شيئًا، بعدما اعتاد على استنشاق نتن قروئها. حياة خاملة، مملة، بلا رونق، يلفّها جوٌّ من الذل والمهانة، لا تُقنع أحدًا ولا تُلهم روحًا.

منذ ولادته بلا مأوى، ترعرع في الأزقة والشوارع، وتكفّلت الفاقة بشقائه، باحثًا عن سترٍ ولقمةٍ تسدّ رمقه. لم تكن حياته خيارًا، بل فرضًا قاسيًا من القدر. لم يعرف فرحًا حقيقيًا يبرّر وجوده، ولم يلمس شكلًا من أشكال الإنسانية، ولم يهجس بذاته كقيمة تستحق الاحترام والتبجيل. كان الفقر قد جرّده من بهاء إنسانيته، وقيّد علاقاته بالمجتمع، وأغرقه في دوامة من الصراعات والعُقد.

عاش غريبًا، جاهلًا، عازفًا عن أبسط تفاصيل الحياة، محرومًا من كل ما يجعل الإنسان إنسانًا. من الملذات والرغبات والتأملات، بل أنه لم يشعر إطلاقا بأن الحياة قد أهتمت به

واهتدت لسره يوما ما على مر الزمن. فالأيام في قاموسه لا تُعد سوى محطات استراحة لعابر سبيل، تذكره بالطوفان القادم، والذي لابد من أن يدرك نهاية المطاف يوما ما.

محطاتٌ يوميةٌ لا بد أن يجتازها، بروتينٍ صارمٍ من مأكلٍ ومشربٍ ومنام، كأيّ كائنٍ سائبٍ يتجول في الشوارع والحدائق العامة، تحت جلد الفصول المتقلبة، وفي مواجهة طقسٍ لا يرحم، متحمّلًا على مضض سلوك بعض البشر المبتذل، الذي لا يعرف للرحمة سبيلًا.

كان قد اعتاد الوقوف في وسط دوّار الزهور، عند تقاطع الطرق الرئيسية في قلب المدينة، حيث ترتعش سيجارته بين أصابعه النحيلة، تلك التي لا تكاد تُخمد نيرانها، كأنها فتيل أحلامٍ يحترق ببطء بين يديه، يستمدّ جمرها من حشا قلبه المضطرب. يقف صامدًا في ركنه، منتظرًا سحب الرحمة تمطر عليه، علها تخفف وطأة حر حياته، وتلين قسوة قدره.

كحجرٍ أصمّ جاثمٍ على قارعة الطريق، يتحدى قسوة الزمن وتجني العمر والأقدار، دون كللٍ أو مللٍ، منتظرًا رذاذ العابرين أن يلطّف أجواء صبره، متأمّلًا عطف الأغنياء المارّين، بفتاتٍ من صدقاتٍ وحسناتٍ تعينه على جلد الحياة ومشاقها المُرّة.

كنت قد اعتدتُ على رؤيته، على هيئته وردائه، عرفته ببنطالٍ أسود رثّ، واسعٍ من الصوف، وسترةٍ رمادية طويلة تتدلى حتى ركبتيه، تحمل من الغبار والقذارة ما يكفي لتروي حكاية

سنينٍ من التعب والعناء. لم يكن ينام إلا على الأرصفة ومصاطب الحدائق، وذاك اللباس الرثّ كان كل ممتلكاته، لباسه في النهار وغطاؤه في الليل، يقيه شرّ الطقس ونواميس الحشرات اللاسعة، بل إن الحشرات نفسها تكاد تنفر منه لزنخة رائحته وعطن ملابسه الرطبة.

الظرف القاسي الذي أحاط به جعله يرتع بثيابٍ باليةٍ، مشبعةٍ بالرطوبة، ملتصقةٍ ببكتيريا العفن، على جلده المتخشب من قلة الاستحمام. الأكزيما المنتشرة بين أصابع قدميه ورقبته، بفعل ديناميكية الحكّ والهرش المستمرة، كانت دلالةً واضحة على أنه نادرًا ما يصب الماء على جسده، أو بالأحرى، لم يجد حمّامًا يفتح له أبوابه.

تراه منبوذًا من المجتمع، ومن المنظمات التي تدّعي الإنسانية، تلك التي لا يسعها التفكّر بمصير هؤلاء الفقراء، مقارنةً باهتماماتها المفرطة بالحيوانات السائبة والجولات الترفيهية.

فتقٌ كبيرٌ يشق سترته الطويلة من تحت إبطه الأيمن حتى خاصرته، وكلما رفع يده، انكشفت بطانة سوداء باهتة، شاهدة على عُمرٍ من التآكل. لا يفارق نظاراته الداكنة ذات الإطار البلاستيكي، تغطي محجري عينيه، تقيه لفح الشمس وصقيع البرد، وتعينه على مواجهة الطقس القاسي أثناء وقوفه في العراء، متحديًا سخط الفصول وتقلبات الزمن، متشبثًا بخيطٍ رفيع من الأمل، لعلّ ظنونه تُرفأ باعتبارات نفسية تنقله إلى ضفة الأمان.

دائمًا ما ينزوي في ركنٍ من أركان الشارع، يستجدي قوت يومه، أراه كل صباح في ذات المكان خلال توجهي إلى عملي. الريح تعبث بشعره الأصهب، تمنحه هدوءًا وسكينةً وسط انطوائه وسرحانه. ملامحه تحكي عناءً شتى، وكل بقعةٍ من جسده تنطق ببؤسٍ عالق، يشرح جلد السنين وقسوتها.

في قرارة نفسه، يبدو متأزمًا من قسمة قدره، غير مقتنعٍ بواقعه، لكنه مجبرٌ على الرضا، فلا مناص من اجتياز المفازة كما تشتهي النفس. الخطوط المحفورة على جبينه وتحت عينيه تشهد على قساوةٍ أرهقت جسده، عبثت بمقدراته، وانتهكت أحلامه دون أن يتمكن من صدّها. البؤس يغطي قسمات وجهه، ولحيته المتبعثرة على بشرته المصفرّة كجزرٍ من الشقاء، تحكي عجزه، وضعفه، وهوانه.

*****

على مدى ثلاثة أشهر، أصبح هذا الرجل جزءًا مهمًا من اهتماماتي الشخصية. رأيته كجزء مشع من معلم الطريق، يرافقني في ذهابي وإيابي إلى عملي، كجدارية يومية أتأملها، تعكس جانبًا من المأساة المغروسة في المجتمع. لا يمكنني تجاوزه دون أن أملأ نظري بقامته، محاولًا اكتشاف سره وصموده.

أنا أدير معملاً صغيرًا للخياطة، يعمل فيه ثلاثون عاملًا، ويضم عشرين ماكينة خياطة متنوعة، منها "Juki"، و"Singer"، و"Brother"، بالإضافة إلى ماكينات

التطريـز، والأبليكاسـيون، والسـرفلة وغيرهـا. بنيـت هـذا المعمـل بجهـد شخصـي خـالص، بعـد أن مـررت بأزمـات ماديـة قاسـية، عشـت خلالهـا ضـيقًا وعـوزًا، وتعرفـت علـى ألـوان الفاقـة فـي الحيـاة. لـذلك، كـان لمنظـر هـذا المتسـول أثـر بـالغ فـي نفسـي، وجعلني أضعه ضمن دائرة اهتمامي.

وبفضـل الله ورحمتـه، أمتلـك بيتًـا صـغيرًا وسـيارة متواضـعة تفـي بـالغرض، تعيننـي وعـائلتي الصـغيرة ـــ زوجـة رائعـة وطفـلان جمـيلان ـــ علـى التنقـل ومجـاراة إيقـاع الحيـاة. بطبيعتـي، ومـن خـلال تجربتـي السـابقة، كنـت أُجـود علـى هـذا المتسـول بمبـالغ بسـيطة لا تتجـاوز فـي أفضـل الأحـوال خمسـة دولارات، بـين فتـرات متباعـدة. كنـت أشـعر بزهـو داخلـي وفخـر، متباهيـاً أمـام نفسـي وأمـام الله بكرمـي عليـه، مستحضـرًا دائمًـا الآيـة الكريمـة: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَـىٰ حَقَّـهُ وَالْمِسْـكِينَ وَابْـنَ السَّـبِيلِ وَلَا تُبَـذِّرْ تَبْـذِيرًا" صدق الله العظيم.

ومـع تكـرار وجـوده فـي الطريـق، صـار هـذا المتسـول معلمًـا مألوفًـا جدًا بالنسبة لـي، بـل أصـبح جـزءًا مـن الواقـع المفـروض، صـورة مـن صـور المدينـة، حتـى صـار يُكنّـى "دوار الزهـور" بــ"دوار المتسـول"! أجـد وجـوده هنـاك قـد تحـول إلـى طـابع مـن طوابع المدينة، لا يُمحى من الذاكرة.

فـي عـرف الحيـاة، تتشـكل العِـربُ مـن زوايـا حـادة ومنفرجـة، ترسـم ملامـح الكيـان الإنسـاني. مخـارج تـدور حـول محـاور مغلقـة، تجمـع فـي مسـاراتها ألـوان الطيـف، فتغـدو بوتقـة مـن التناقضـات التـي تؤسـس لقواعـد الوجـود. فلـولا القـبح، مـا أدركنـا

جمـال الملامـح، ولـولا هشاشـة الضـعف، مـا عرفنـا صـلابة القـوة، ولولا الفقر، ما شعرنا بسمو الغنى ورفعة التعفف.

التعفـف فـي مواجهـة الهـوان... إنهـا الطبيعـة كمـا أرادهـا الله، لكـن البشـر أداروهـا بقـوانينهم المتذبذبـة، فجعلوهـا قـوس قـزحٍ متقلـب، تـروج فيـه صـورٌ داكنـة حزينـة وأخـرى بهيجـة، كلهـا تنبثـق مـن واقع الفقر والتعفف.

عنـدها خطـرت لـي فكـرة جليـة: أن أقـتحم أسـوار هـذا المسـكين، أن أغـوص فـي أعماقـه، أن أكتشـف أسـراره الخفيـة، عسـى أن أتمكـن مـن تصـفح أوراق حياتـه المكتوبـة بحبـره السـري. أردت أن أتعـرف علـى طبعـه، معدنـه، والمسـالك المظلمـة التـي تختبـئ فـي أزقـة روحـه. رغبـت فـي معرفـة حقيقـة هـؤلاء المسـاكين عـن قرب، لعلني أجد ضالتي في منهجهم وسلوكهم.

كـان علـيّ أن أطـرق بـاب ظنـه بطريقـة مختلفـة، أن أقلـب صـفحات حياتـه المبهمـة رأسًـا علـى عقـب، دون أن يشـعر، دون أن يـدرك غـايتي، كـي لا يعتـرض علـى فضـولي وتخبطـاتي. أردت أن أتعـرف علـى هويتـه الحقيقيـة... ولكـن، كيـف السـبيل إلى ذلك؟

حينهـا، تحركـت إنسـانيتي، تجلـت فـي رغبـة صـادقة لتحطـيم أسـواره المنيعـة، بعمـلٍ يهـز كيانـه، أضـعه تحـت المجهـر، لأكتشف سرّ مـا يشـغل بـالي. فقد دخـل أجـواء فكـري دون غيـره، واستوطن مساحة من تأملاتي لا يزاحمه فيها أحد.

في الحقيقة، الفضول دفعني لاكتشاف غموض العالم الآخر، ذاك العالم القابع خلف هدوءٍ مشبعٍ بالأسرار، وسط دوارٍ من العقد والظروف واللامبالاة. أردت أن أصقل هذا الغموض، أن أضيء عتمته، أن أستخرج من بين طياته جوهرًا قد يغير نظرتي للحياة... وربما لنفسي.

كان أشبه بلغزٍ محيّر، لا يبدّل منهجه، مرابط في ذات الساحة منذ زمنٍ طويل. راودني شكٌّ بأنه ليس كما يبدو، ربما مسيّر من جهةٍ ما، أو مدسوس من قبل أمن الدولة لمراقبة الحراك، حفاظًا على الأمن العام. وربما... مجرد رجل أمن يتستر بزيّ متسوّل. كل الاحتمالات كانت واردة، وكلها تدفعني لرفع الستار عن وجهه، لمعرفة درجات انكسار لونه الحقيقي.

قررت أن أختبره، أن أضعه تحت المجهر، أن أراقب ردّ فعله حين أضع بين يديه مبلغًا غير مألوف. هل يكون هذا المال مفتاحًا لأسرار مغلقة؟ أم أن محاولتي ستذهب أدراج الريح، وتغدو مقامرة خاسرة؟

تقدّمت إليه. سلّمت عليه، صافحته، ثم سألته:

- ما اسمك؟

تفاجأ من السؤال، كأنه لم يُسأل من قبل عن اسمه. أجابني مبتسمًا:...

- يقولون عني جواد.
- كم عمرك يا جواد؟

ضحك، ثم قال في ذهول:.....

- لا أعـرف بالضـبط... لـم يعنِنـي ذلـك، لكنـي فـي حـدود الأربعين.
- تبدو في نهاية الخمسينات يا جواد! هل أنت متزوج؟

هنـا انكسـرت نظراتـه، كأنهـا قالـت لـي: لا تسـتهزئ بـي، لا تـزد مـن مـواجعي. يكفينـي مـا أعانيـه مـن جـوعٍ وتشـرد. شـعرت بثقـل السؤال، فوضعت في يده مبلغًا من المال.

- خذ يا جواد، هذا لك...

أخرجـت مـن محفظتـي مئتـي دولار، ووضـعتها فـي راحـة يـده. لـم ينتبـه لقيمتهـا، فقـد اعتـاد علـى السـنتات، وفـي أفضـل الأحـوال، دولار أو اثنين. نبهته:

- يا جواد، انتبه... هذا المبلغ قيمته 200 دولار!

صُـعق، وذهـل. ارتجفـت يـده، حـاول أن يعيـد المبلـغ إلـيّ، كأنـه لا يستحقه. قال بانكسار:.....

- يا سيدي، هذا كثير جدًا!
- لا عليـك، خـذه. إنـه رزق مـن الله، وأنـا مجـرد وسـيلة وصل.

كـادت دموعـه تنهمـر، كـان فـي ذروة فرحـه، غيـر مصـدّق. أراد أن يشـكرني، لكـن عيونـه وملامحـه نطقـت عوضـًا عـن لسـانه.

بقـي صـامتًا، متسـمّرًا فـي مكانـه. كـأنني سـمعته يـدعو لـي: "الله يرزقك، يفرح قلبك، يحفظ عزيزك، ويفرج همّك."

هواجسـي لا تكـذب. لقـد دعـا لـي بلغتـه الخاصـة، مـن خـلال صـمته وجمـوده ونظراتـه. دعـا بلغـة أفهمهـا جيـدًا... إنهـا لغـة الملائكـة. الكلمـات تراقصـت فـي تعـابير وجهـه كفقاعـات المـاء المغلـي. تركتـه غارقًـا فـي تفكيـره، وعـدت إلـى سـيارتي، أراقـب تصـرفاته عـن كثـب. وضـعت هـذا اللغـز تحـت المجهـر، ومـا زلـت أبحـث عن الحقيقة خلف ذلك الهدوء المشبع بالأسرار.

بـدأتُ أحسـب حسـابه؛ تـرى، بعـد أن اسـتلم ذلـك المبلـغ الـذي يكفيـه معيشـة شـهر، وربمـا شـهرين علـى أقـل تقـدير، كيـف سيتصـرف؟ وهـو الـذي لا يطلـب مـن الـدنيا سـوى لبـاس جديـد لا يتجـاوز ثمنـه ثلاثـون دولارًا مـن ملابـس البالـة النظيفـة، ولقمـة العـيش يكـاد يحصل عليها من الصدقات دون أن تُكلّفه شيئًا.

تبعتـه دون أن ينتبـه. مـا كـان يشـغل خـاطري هـو تفكيـره بعـد أن اسـتلم المـال. تكهنـات لا تسـتقر فـي محلهـا... فيمـا مضـى، كـان تائهًـا فـي تـدبير الـرزق، أمـا الآن فقـد تـاه فـي تصـريفه. بـدا مشـتت الـذهن، كأنمـا تفتحـت أمامـه مسـالك وطـرق جديـدة، كانـت فيمـا سـبق مجـرد ممـرات ممنـوع عليـه الـدخول فيهـا. الآن يمضـي ليلتمس بعض أمانيه، ليرى شيئًا مما كان يسعى خلفه.

مـا إن تركتـه، حتـى لملـم أشـلاء فكـره المبعثـرة، وعـزم علـى تـرك الـدوار خلفـه. بـدأ يجـري بخطـوات متسـارعة، متخطّيًـا المعـابر والشـوارع. تبعتـه بسـيارتي دون أن يشـعر، وأحيانًـا كنـت أتبعـه

متـرجلًا حـين ينـزوي بـين المـارة، أو حـين يـدخل فـي مسـارات الأزقة الضيقة ليختصر مشواره.

خـلال تتبعـي لـه، لـم أره يلتفـت لأحـد، ولـم يمـد يـده للنـاس. كـان يجتـاز الطـرق بخطـوات ثابتـة، كأنمـا عـزم علـى أمـر مـا، غايـة خطـرت ببالـه تدفعـه دفعًـا. بـدا كمـن اكتفـى ذاتيًـا بمـا امتلـك، تحكمـت فـي تصـرفاته عـزة نفسـه، فلـم يسـقط فـي هـوة الطمـع. كـان يجـري كـالنهر، ثابـت العـزم، لا يقـف علـى شـيء، قاصـدًا هـدفًا مـا. الفضـول دفعنـي لأتبعـه حتـى نهايـة المطـاف، حتـى يكـلّ به المسير أو يبلغ غايته.

تخطّـى الشـارع العـام إلـى الجهـة الأخـرى، واسـتمر فـي مشـيه مسـافة تقـارب الكيلـومتر، ثـم انعطـف يسـارًا فـي شـارع فرعـي لا يتجـاوز طولـه مئتـي متـر، حتـى بلـغ متجـرًا كبيـرًا يـربض فـي الـركن الأيمـن مـن الشـارع. كـان متجـرًا تابعًـا لجمعيـة شـبه خيرية، تبيع منتجاتها بهامش ربح لا يكاد يُذكر.

بقيـتُ قابعًـا داخـل سيارتـي، غيـر مبـالٍ للـزمن، أراقـب البـاب كمـن ينتظـر لحظـة مـيلاد حـدثٍ مـا. عينـاي لا ترمشـان، تتبعـان الـداخلين والخـارجين، متسـمّرتان صـوب المـدخل، تترقبـان خروج جواد.

باتـت مشـاعري تسـبق فكـري فـي قـراءة الحـدث، تفسّـر لـي الحالـة قبـل أن يتسـنى للعقـل تحليلهـا. وجـدتُ فـي جـواد نـدرةً مـن الصـفات، يختلـف عـن أولئـك المتسـولين الـذين يجوبـون الطرقـات كالـدبيب، بـل يختلـف عـن كثيـر مـن الأصـحاء. يجمـع فـي خصـاله

الطيب والكرم، نقيّ كالرمل على ضفاف البحر، أملود، يشعّ وجهه بخجلٍ يضفي عليه مهابة واحترامًا.

لو كان ممن يلهثون خلف الطمع، لما غادر ساحة الزهور، ولو كانت غايته المال، لمدّ يده لهذا وذاك في الطريق. أعتقد أن الحياة، وإن أدارت له ظهرها، فقد التفتت إليه من زاوية أخرى، وعلّمته دروسًا في القيم والإنسانية، صار يتكئ عليها كأنها باكورة صبره.

لم يطل انتظاري. خرج من المتجر يحمل كيسًا كبيرًا مثقلًا بالبضائع على ظهره، يكاد لا يقوى على حمله. منحني الظهر، اتجه يمينًا. رأيته يجرّ حملاً من الهموم أثقل من ذلك الكيس، غمامة تغشي فكره، تخالط فرحته بشيء من الحزن. هكذا هم المساكين، يطهرون أنفسهم بسعادةٍ مهمومة، لا تخلو من الأمل.

كل من تصيبه رشفة فرح، يكتسي لون حياته بالبهجة، إلا المساكين؛ تظل حياتهم رمادية، يطاردهم رعب الغد المجهول. ومع الغبطة التي كبّلت أوصاله وغلبت شقاءه، مضى بثقة مفرطة، مسرعًا نحو هدف غير معلن.

سار قرابة ثلاثمئة متر أخرى، كأنه يعد بلاط الرصيف بدقة، بوسع خطواته المتسارعة، كعربة تجري بفعل الريح نحو ميدان الراحة، ليغمد جرحه بين الأنام. وفي نهاية المطاف، وصل إلى ساحة كبيرة قرب حي فقير، يمكنني أن أسميه مستنقع المتسولين الآسن بالفقر. يتجمع فيه عدد كبير من

الأطفـــال والنســـاء والشـــيوخ، يُقـــدّر عـــددهم بثلاثـــين متســـولًا، يجوبون تلك البقعة كالدبيب.

ومــا إن وصــل إلــيهم، حتــى بــدأ يمــرّ علــيهم واحــدًا تلــو الآخــر، يــوزّع مــا تبضّــع. تجمــع حولــه الصــغار والكبــار، والفــرح يتــراقص فــي أعيــنهم. رأيــت الــذهول يتســمّر فــي وجــوه الشــيوخ مــنهم، الكــل غيــر مصــدّق، ينظــر إليــه بعــين العجــب، لــيس لبخــل جواد أو لكرمه، بل من أين له كل هذا؟

لأول مـرة يتصـدق علـيهم أحـد بهـذا العطـاء، فمـا بالـك إن كـان مـن صــلبهم؟ لقــد غــالى فــي جــوده وكرمــه، تصــرّف كــوليّ أمــر مسـؤول عـن شـؤونهم ورعـايتهم. تميّـز بسـلوكه، وكـأنّ هـذا اليـوم كان علامة فارقة في حياته وحياتهم.

أمــا أنــا، فقــد تأكــدت مــن صــدق ســلوكه، حتــى فاضــت نفســي بمشــاعر جياشــة نحــوه. ســعادة أغشــت وجهــي كــرذاذ المطــر، وانتشــى فكــري، يطيــر فــي فضــاء الحلــم، تنمّــل جســدي، ودبّــت قشعريرة في أوصالي، أضفت راحة في أعماقي.

لــم أتمالــك نفســي وأنــا أقــف بعيــدًا عنــه، فاضــت محــاجر العــين بالـدمع، نشـوة لوّنـت طـراوة الخـد، بسـمة بيضـاء طفحـت علـى شدقيّ، سرحت بصور جواد المشرقة...

مــا إن أفقــت، حتــى ترجلــت مــن ســيارتي متجهًــا نحــوه، وهــو منشـغل ببـث الفـرح فـي قلـوب رفاقـه. ربـتُّ علـى كتفـه، فالتفـت نحوي، تفاجأ بوجودي، انحنى مرتبكًا، صعقته المفاجأة.

فقلت له:

- لا بأس يا جواد، لا تنحنِ. كم كنت كبيرًا في تصرفك. لقد علمتني دروسًا في فن الحياة لم تبلغها الكتب. إنسانيتك فاقت إنسانيتي. أنت تصلح أن تكون قدوة لهؤلاء. وددت أن أعرف بعض جوانب حياتك، لقد جذبتني بكل تفاصيلها. أنا مسرور بمعرفة رجل طيب بقامتك، يحمل من المبادئ والقيم ما ندر. النقود لا تقيم الإنسان مهما امتلك منها، بل يُقاس الإنسان بإنسانيته، بحسن سلوكه وتصرفه.

كانت لكلماتي وقعٌ عميق عليه، ذلك ما ارتسم على ملامح وجهه. عرفني على عائلة المتسولين، لكن بقي في نفسه سؤالٌ يخجل أن ينطق به: ...

- من هذا الشخص؟ ولمَ يتبعني؟ وماذا يبغي من وراء ذلك؟

لم أدعه في حيرته، احتضنته، ثم قلت له:...

- لقد وضعتك تحت مجهر المراقبة والتجربة. أردت أن أتعرف عليك، كيف سيكون تصرفك الذهني والنفسي حين أضع بين يديك مبلغًا كبيرًا من المال. هل أنت ممن يمتهنون التسول، أم من الذين يتسولون من أجل لقمة العيش؟ لقد نجحت في الاختبار. شكرًا لك لأنك قربتني من مجتمع منسي، لا أعرف عنه شيئًا، ولا

يحظـى بـأي اهتمـام مـن الدولـة أو المنظمـات الإنسـانية. لم تُوفّر لهم فرص عمل حقيقية يحتمون بها.

ثـم اسـتخرجت مـن جيبـي مئتـي دولار أخـرى، وضـعتها فـي يـده، وقلت له: ....

- اعتبـر نفسـك موظفًـا فـي شـركتي، وهـذا هـو مرتبـك الشـهري مقـدمًا. سـتكون مسـؤولًا عـن توزيـع منتجـات الشـركة علـى المحـلات التجاريـة فـي المدينـة. كمـا سـأقدم لكـل مـن فـي معيتـك ملابـس جديـدة تليـق بهـم، تعيـنهم علـى قسـوة الحيـاة. وسـتكون أنـت المسـؤول والوسـيط والقائد في توزيعها، وتسجيل احتياجاتهم.

لـم يصـدق مـا سـمع، بعـد أن صـفعته المفاجـأة. انحنـى علـى يـدي يقبّلها، وهو يستبشر بتغير مجرى حياة الجميع.

﴿فَـلَا تَعْلَـمُ نَفْـسٌ مَـا أُخْفِـيَ لَهُـمْ مِـنْ قُـرَّةِ أَعْـيُنٍ جَـزَاءً بِمَـا كَـانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة – صدق الله العظيم]

تشاء من البشائر قطرة ويشاء ربك أن يغيثك بالمطر

6- الفضولي

وقف مذهولًا أمام دكان البقالة، وسط جمع من المتبضعين، لا يدري ما يبغي أو يريد. يكسوه ارتباك من رأسه حتى أخمص قدميه، مشدود الأعصاب، معقود الحاجبين، كأنما تورّط في قضية غامضة أو اعتقلته عقدة عصية على الفهم. وجهه يحمل أثرًا غائرًا، كنقش فرعوني يوشم ملامحه المكفهرة، الممتهنة. كانت حالته لافتة، كما لو أنها انبأت الجميع على الانتباه عليه، بمن فيهم أنا.

دخل مزاجي دون استئذان، فأودعته سجن قيدي، أبحث عن سر تلك العقدة التي تعصف به. هيئته العامة توحي بصورة مشوهة من الخارج، فيما داخله يئن من انكسار مطعوج، ممزق. امتد أثر هذا التشوّه إلى أطرافه، فلا يستقر في موضع، وذراعه تهتز كالبندول بلا إرادة. لا شك أن خلف تلك التشنجات قوة خفية تشحذ أعصابه بالنفور، قوة لا يملك السيطرة عليها. بدا للملأ مربوشًا، كمن أصيب بلعنة الجنون، يدور في المكان كأنه يبحث عن شيء نسي اسمه، أو عقدة عقصت فكره ولسانه.

همٌّ ثقيل أطفأ النور عن وجهه المصفر، وأغشى عينيه الشاردتين في الأفق. ربما فقد شيئًا جوهريًا يكمل نواقصه، شيئًا ثمينا لا يُشترى، لا يباع، ولا يُستعاد بسهولة.

ومن خلال حدسي الذي لا يخيب، هجست بأنه يحتاج إلى من يعينه على كربه، إلى جدار يستند إليه حين تميل به الحياة.

سلوكياته أثارت انتباه المحيطين، طرحت تساؤلات في ذهن كل من راقب عبثه، وكل من لمس رعونته النافذة... كأنما كان مرآة لوجعٍ ألم به، وصوتًا مكتومًا لحكاية مريعة. يا ترى من يكون هذا الرجل؟ أهو مجنون أم سوي؟..

صرت أُكلم نفسي، أدير ذلك التساؤل في فكري كدوامة لا تهدأ: لا، لا هذا ولا ذاك... أظنه متورطًا في قضية ما، حائرًا في فك عقدتها. ربما مصابٌ بمرض الرعشة، فذراعاه لا تكفان عن الاهتزاز.

وبحكم فضولي الذي لا أستطيع التخلي عنه، تقدّمت نحوه محاولًا الاحتكاك به، علّي ألتقط ما يدور في فلكه. وجدته غارقًا في عالم من الخيال، لا يدرك ما حوله، ولا ما يدور في أعين المتتبّعين من حيرة واستفهامات شغلت بالهم. كان فكره مشدوهًا في أمرٍ عويص، بعيدٍ جدًا عن محيطه. فباغتته بسؤالٍ عابر:.....

ـــ عفوًا يا أخي، هل تحتاج إلى مساعدة أقدّمها لك؟

حدّق في وجهي بنظرة شزراء، كأنما قال لي: "ما دخلك؟" ثم هزّ رأسه كما يفعل الهنود، نافيًا رغبته في المساعدة دون أن ينطق بحرف. إشارة أراد بها صرفي، ففهمت مغزاها وتجنّبته، لكنني بقيت أراقبه عن كثب.

انسحبت من المكان، ووقفت جانبًا تحت ظل شجرة صفصاف، غير قادر على خلع سترة الفضول عن كتفي. تأملت حركاته، وبدأت أُخمّن عقدته باحتمالات شتى:.....

لا شـك أنــه تــدبّس فــي قضــية شــغلت بالــه، يبـدو مهزومًــا مــن الـداخل، يسـاوره قلـقٌ تغلغـل فـي أعماقـه، لا يسـتطيع كـبح عصـف مشــكلته، ولا إخفــاء آثارهــا عــن وجهــه. الألــوان أمــام عينيــه مشوشــة، لا يميّــز بينهــا، كمــا يبــدو مــن لباســه المهمــل وعــدم اكتراثــه بمــا يــدور حولــه. كأنــه لا يــرى ســوى عتمــة لا يســتطيع النفـاذ منهـا، ولا يملـك القـدرة علـى البـوح بمـا يجـول فـي خـاطره أو الاستكانة لقدره.

فــي قــرارة نفســي، قــررت أن أكــون رأس الــدبوس الــذي يفجّــر دمامـل الهـم فـي وجهـه. راودتنـي تلـك الفكـرة، فتبعـت خطواتـه، أبحث عمّا يخبئه هذا المعتوه من أسرار.

وأنــا أتبعــه، رأيتــه يحــاول عبثًــا إخفــاء هــمٍ طــافحٍ علــى وجهــه، يحـاول تبريـر مـا لا يريـد الإفصـاح عنـه. لكـن الفضـول المتـأجج فـي داخلـي أقـوى مـن جبروتـه، ولـن أدعـه يفلـت مـن قبضـتي بهـذه السهولة...

أظــن أن ملامحــه باتــت مكشــوفة للجميــع، وإن بــدت بــدرجات متفاوتـة، حتـى غـدا فريسـة سـهلة فـي مصـايد العيـون. الكـل تبعـه دون قصــد، يترقبــه بعفويــة، وكــأن هنــاك تنافسًــا خفيًــا بــين الحاضـرين فـي تتبـع غيّـه. أو ربمـا خُيّـل إلـيّ ذلـك. لعلنـي أصـبتُ بشـيء مـن الهـوس الـذي أصـابه، فصـرت أتخيـل اهتمـام الآخـرين بـه بقـدر اهتمـامي الشخصـي. هـذا مـا توهّمـت، ومـا أفرزتـه الحالـة بظلالها. وفي قرارة نفسي، تمنيت لو أختلي به جانبًا.

هكـذا بـدأ اهتمـامي بـأمره، حتـى جعلتـه كعلكـة أمضـغها بفكـري، لا تفارقني.

استنتجت مـن هيئتـه المرتبكـة وحركاتـه الزائـدة صـورة كارتونيـة لشخصـية أبلـه، تـنم عـن ضـعف داخلـي، فصـنّفته فـي عـالمي الخيـالي ضـمن شخصـيات الرسـوم المتحركـة. بـل إنـه يشـبه "كركور" في برنامج "افتح يا سمسم".

تقدّم نحو صاحب البقالة قائلاً بلسان مرتجف:...

– مـن فضـلك... أعطنـي علللبـة سـيجار... و... قـاروووورة ماء.

قالهـا بنبـرة آمـر، كمـن يـود أن يفـرّ مـن العيـون المحلّقـة حولـه، يهـرب مـن الزحـام، يلـوذ بـانزواء خلـف هـواجس الظـن المتأججـة، عسـى أن يسـتعيد شـيئًا مـن توازنـه. بـدا وكأنـه يـدرك تمامًـا أنـه تحت المجهر، تتقصده العيون، بحياد أو بفضول.

أجابه صاحب البقالة بهدوء وكياسة:....

– أي نوع من السيجار ترغب، يا أخي؟

رد عليه بتلعثم وعدم سيطرة:...

– أي... أي نوع... لا... لا يهم!

أخـذ علبـة السيجار وقـارورة المـاء، ثـم انـزوى علـى أريكـة جانبيـة خلـف الطريـق العـام، يتمـتم بكلمـات مبهمـة لا تُفهـم، لكنهـا دفعتنـي للاقتراب من ناره، علّني أطفئ شررها.

راح يـدخن سـيجارته، يمـجّ دخانهـا وينفثـه بزفيـر ثقيـل كمدخنـة، منطويًـا علــى ذاتــه، هائمًــا. مــا إن تنفـد سـيجارته حتــى يشــعل أخـرى، وهكـذا دواليـك، حتـى كـوّن تحـت الأريكـة كومـة مـن أعقاب السجائر.

منظــره لا يســر، هشــيم يحتــرق، جبينــه يتصــبب عرقًــا رغــم اعتـدال الطقس. شعرت بأنـه بلـغ ذروة الاشتعال الـداخلي، وربمـا تدفعـه حالتـه المتكهربـة إلـى فعـل جنـوني خـارج حـدود المـألوف: انتحار، أو تهور. هذا ما خطر ببالي في أول وهلة.

فــي الوقـت ذاتـه، بـدا انعزالـه وانشـغال فكـره كزوبعـة خاملـة، قـد يفاجئهـا المخـاض فـي لحظـة غفلـة. تدخينـه المفـرط وانغماسـه فـي ذاتـه أضـفيا علـى هيئتـه مسـحة مـن العبثيـة والتجريـد، كأنـه لوحـة مـن لوحـات بيكاسـو، تختصـر مراحـل عمـره الماضـية، وتـودع فيهـا عتمـة حزنـه بكـل مـا فيهـا مـن تجهـم وانطفـاء. لوحـة بهتـت معانيها، لكنها ما زالت تنطق بالألم.

مـن نـاحيتي، لـم أدعـه يغيـب عـن نـاظري لحظـة واحـدة. تبعتـه منـذ أن وطـأت قـدماه حـدود الحـي، وضـعته نصـب عينـي تحـت عدسـة المجهـر، جعلتــه خصــمًا لــي، وبــتّ علــى اســتعداد لمواجهتــه وقراءة ظرفه، شاء أم أبى.

هـذا طبعـي؛ أجـد لـذة فـي ملاحقـة هـذا النـوع مـن البشـر، كـأنني أمـنح نفسـي جـائزة تقيـيم خفيـة. كنـت واثقًـا مـن أنـه يحمـل خزينًـا مــن الأســرار، والتــي بمعرفتهــا أروي ظمــأ حيرتــي التــي تكــاد تلـتهم أحشـائي. فأنـا غريـب الأطـوار مثلـه تمامًـا، وتلـك الصـفة

أعتز بها، لأنها تمنحني اختلافًا عن باقي البشر. أجد في فرادة شخصيتي ميزة لا يشبهني بها أحد.

حقًا، إنه غريب الأطوار. لم ألتقِ بمثيله من قبل، لا في الساحة المكتظة بالمارة، ولا في تقاسيم وجهه المكرب، ولا في هندامِه أو لون شعره الأشعث.

الصُّفرة غائرة في تعابير وجهه المنكمش على ذاته، فاقدًا مسحة الجاذبية؛ كأن إسفنجة ماصة قد امتصت مفاتن الخدود، وسلبته الرونق والنضارة. وجهه المخروطي لا يحمل سوى عينين غائرتين في محجريهما، وأنف طويل شاذ كمنقار البجع، يعلوه فم صغير مشروط تنقصه الشفة. فأضحى وجهه كدائرة القطع الناقص. يرتدي قميصًا فضفاضًا بلون شعره الأصهب، وبنطال جينز أزرق متهتك عند الركبتين، يغور داخله جسد نحيل كعود القصب. ومع انحناءة رقبته، يبدو للناظر وكأنه تجاوز الخمسين مع أنه في ثلاثينيات العمر. تهجس به كروبوت يتحرك بتحكم عن بعد.

ترى، من يكون هذا الشخص الغريب؟

ما هي قصته؟

ما المعضلة التي أوصلته إلى هذه الحالة المزرية؟ بدأ الفضول يتصاعد في ميزان عقلي، حتى بلغ حد التدخل المباشر، رغبةً في كشف خفايا حياته التي بدأت تتورد أزاهيرها في ذهني، وتنضج ثمارها تحت ظلال الصمت المهيمن بيننا.

كـأن أسـراره قـد نضـجت، وحـان وقـت القطـاف. أهجـس بهـا، تـود أن تفلـت مـن بـين أصـابعه، تنسـكب مـن مسـامات وجهـه المـتجهم. حينها، قررت الاقتراب منه.

شــغل بــالي، وصــارت الهــواجس تهطــل علــى أرض فكــري كــالمطر، تختــرق ســمائي كمــا تفعــل الشــهب. فأنــا بطبعــي عنيــد، أمتلــك فضــولًا مبــررًا وغيــر مبــرر فــي معرفــة حقــائق النــاس ومشــاكلهم. أحــاول فــك العقــد مهمــا كانــت عويصــة. وفــي الوقــت ذاتــه، أتصــف بطيبــة القلــب، وحســن الظــن، وجمــال الــروح. غــايتي هــي منــاي، لا أبتغــي الإســاءة أو التشــهير، بــل أســعى لتجلــي همــوم الآخــرين، ومســاعدتهم علــى تجــاوز محــنهم، حتــى لو لم تربطني بهم صلة أو معرفة مسبقة.

أشـعر أننـي فضـولي بـالفطرة، وعملـي يزيـدني زهـوًا وفخـرًا، لـذا لا أخجــل منـــه. هــذه هــي شخصــيتي، وهــذا هــو طبعــي الــذي تطبعت به منذ نعومة أظافري، لا أستطيع الحياد عنه.

فيمـا مضـى، خضـت تجـارب ومحـاولات تـدخل فيمـا يعنينـي ومـا لا يعنينــي. صــادفت طرائــف وعُقــدًا، بعضــها ظريــف، وبعضــها مأســاوي، وبعضــها مســلٍ. غايــات النــاس لا تُــدرك، ولا تســتوي فـي ميـزان الحيـاة. حـين تبحـث فـي جيـوب المتـورطين عـن حلـول لعُقـدهم، تستشـعر أنهـم مسـاكين، لا حـول لهـم ولا قـوة، تورطـوا فــي متاهــات شــائكة، فبــاتوا يعيثــون فــي دروبهــم كالحيوانــات السائبة.

دوري في ذلك هو تفتيت العقد، تبسيطها، جعلها أكثر سلاسة بين أيديهم، بدلًا من الخشونة التي تقرح ظنونهم، وتعسر خواطرهم. في حياة هؤلاء، تجد أكوامًا من غرابيب سود من العقد، وعجائب من القصص، مدفونة تحت أغطية واهية، لا تحتاج سوى لمعول صغير لتظهر الحقائق للعيان. فبعض الوجوه لا تحتاج إلا لنفض الغبار عنها، لتستعيد نضارتها.

قصص منوعة، معظمها فرضتها العادات والتقاليد البالية، والفروقات في مستويات الثقافة والمادة، إضافة للإملاق المنتشر وضعف التعليم والطائفية والقومية المفروضة على المجتمع....

هناك من هو جاهل من هو دارك، من هو عالم في ما يعنيه وما لا يعنيه، منهم البسيط والمعقد، منهم من هو سطحي التفكير ومعدم، غايته لا تتعدى أطر يومه، كالساذج والمتسول الذي لا يقضم من الحياة شقفة، يبحث عن القناعة بين الأشواك الدامية دون أن يجدها، ومنهم من لا يدرك عمق الهوة تحت قدميه.....الخ. هناك من يمسك العصا من منتصفها، غايته واضحة، مرسومة بين عينيه، تتصف بالقناعة وأنصاف الأمور، بعيدا عن الخرص والطمع والضوضاء والحسد. ومنهم من لا تملأ عينيه أموال قارون، مربك بالجشع.

على أية حال، أذكر مرة من المرات أنني حاولت الإصلاح بين زوجين تمسكا ببنود الخلاف كما يتمسك الزاهد بصومعته. العناد الزائد، ومسألة الكرامة المبالغ فيها، صاغت قراراتهما، وأججت حججهما، ورمتهما في بوتقة الجحيم، وفرضت

عليهمـا تعاسـة مذلـة. حينهـا، راودتنـي رغبـة عارمـة فـي فـك طلسم تلـك العقـدة، بعـد أن تحـوّل الخـلاف مـن شـرارة إلـى نـار أضرمت في البيت، وكوت المعنيين بنيرانها.

بطبعـي، أختلـف عـن الآخـرين فـي التفكيـر والمنطـق، وفـي حـب الاسـتطلاع. وضـعت لنفسـي خارطـة طريـق لاقتحـام ملفهمـا الشـائك. الفضـول حفّزنـي علـى طـرق أبوابهمـا الموصـدة، وتشـبثت بجـدول الخـلاف بصـفتي جـارًا ووسـيطًا يحـب الخيـر، همّي كان إخماد تلك النيران قدر المستطاع.

ورغـم أنهمـا قـبلا وسـاطتي بشـيء مـن السـخرية، إلا أنهمـا لـم يمنعـا هاجسـي مـن طـرق بـاب التجربـة. وعلـى الـرغم مـن أن المعرفـة التـي تجمعنـا سـطحية، لا تتجـاوز حـدود السـلام والاحتـرام، كوننـا نسـكن فـي ذات الحـي، فقـد دخلـت بقـوة الإرادة مـن بـاب التقـوى وخشـية الله، حيـث يقـول سـبحانه وتعـالى فـي كتابـه الكـريم: "إن أبغـض الحـلال عنـد الله الطـلاق"، محـاولًا إصلاح ذات البين بين قلبين من عباد الله.

بـدأت أكـذب علـى الطـرفين، بشـكل لـم أصـدق نفسـي فيـه. ألّفـت لهمـا قصصًـا مـن الخيـال بلسـان الآخـر، وصـغت لهمـا تعـابير لطيفـة، أدبيـة، وأحيانًـا غزليـة، أذكرهـا عـن قصـد. كثيـرًا مـا كنـت أرى الغرابـة ترتسـم علـى محياهمـا حـين أنطـق بهـا، ربمـا لأنهمـا لـم يتـدربا علـى سـماعها مـن قبـل. كنـت أكـذب فـي سـبيل إذابـة ثلـوج العنـاد، والتوصـل إلـى حـل وسـطي يعيـد الميـاه إلـى مجاريها.

يؤلمني أن أجد للتفاهة موطئ قدم في مصير بعض الناس، تودي بهم إلى هوة سحيقة، وتمنع عنهم سر الحياة. وبعد محاولات حثيثة استمرت لأسابيع، وبعد جهد مضنٍ عرف به القاصي والداني، تمكنت من جمعهما في داري، في محاولة لإعادة العلاقة إلى سابق عهدها.

وفي لحظة اللقاء والمصارحة، وبعد أن تركتهما يجليان غبار العصف عن حياتهما، حدث ما لم يكن في الحسبان، والذي كنت أخشاه. النار التي أخمدتها بأساطير الكذب والتلفيق، شبت من جديد في قش العلاقة الزوجية، بوتيرة أشد من الأولى. تلك الأكاذيب التي لفقتها فعلت فعلها المشين، فبدل أن تُحل العقد، زادتها تعقيدًا. اشتد وتير الخلاف نتيجة انعدام المصداقية في مخيط الصلح. الحقائق المدفونة عرّت الأكاذيب، وتحولت إلى بنزين يغذي فتيل العقدة، حتى تم الانفصال النهائي بين الزوجين.

وفي موقف آخر لا أحسد عليه، ولا يقل عن الأول طرافة، راودني خاطر عن رجل مزاجي، زاد في تجاوزه وسطوه على الناس. لصفة العصبية المغروسة فيه دور في بلورة تلك العقد، كصفة الحرارة الملازمة للنار. لم يجرؤ أحد على ثنيه عن مزاجيته المتطرفة.

ربما كانت المزاجية بلورة لتشنجاته، أو نتيجة لوترية يتصف بها، شكلت تلك المزاجية عقدًا في شخصيته. كان مغرمًا بحب التملك، والاستيلاء على حقوق الآخرين عنوة. يدرك عدوانية سلوكه، ومع ذلك تستهويه الحالة، يرغب في إذلال الآخرين،

ويتجاوز على حقوقهم المادية والبدنية والروحية، مستغلًا بنيته الجسمانية وأعصابه المتشنجة كسلاح للترهيب.

في المقابل، استسلام مناوئيه شجّعه على التمادي في سلوكياته، وأشعره بمهابته، في الوقت الذي تتحقق له مآربه دون أن يواجه معضلة. من جهتها، كانت الناس تتحاشى الاصطدام به، وتتجاوز عن أخطائه، فوجدت نفسي مرغَمًا على التدخل وسط هذه المعمعة التي لا أحسد عليها، محاولًا ثنيه عن سلوكياته وتماديه في تجاوزاته غير المقبولة.

التقيته وسط الشارع، جذبته إلى مقهى قريب، أملًا أن أصل معه إلى غايتي المرجوة. شكوت له ما تشكيه الناس وتنتقده به، وددت أن أعرف دوافع تلك العدوانية، عسى أن أعالجها.

حينها، نظر إليّ بعينين شزرين، كأَسَدٍ جامح يقف أمام فريسته. كان عليّ أن أتجنبه وأتحاشاه، فالأعصاب التي تركبه تختزل المسافة بينه وبين غريمه في لحظة. لم أراعِ مسألة السلامة، ولم أترك مسافة كافية تفصلني عنه، ودون سابق إنذار، انفجر بركانه في وجهي. انهالت عليّ قسوته، دون أن يكون للرحمة موطئ قدم فيها. تطايرت الحروف من شدقي، ولم أستطع أن أجمع شتات نفسي لأُنقذ ذاتي من كماشته. نتيجة الصدمة، ارتخت قدماي، ولم تسعفاني على الهرب. كدت أفقد وعيي، لولا أجساد المارة التي حالت بين قبضته القوية ووجهي. تمكنوا من إبعادي، ولاموني على الفضول الذي أتحلى به. حينها، تذكرت المثل القائل: "من تدخل فيما لا يعنيه، لقي ما لا يرضيه".

رغم كل ما مررتُ به، ظل الفضول صفةً محببة إلى نفسي، يجري في عروقي كما يجري الدم، يوقظ الفكر ويشعل جذوته، ويزيل عن الجسد شوائب القنوط. بل إنني ازددتُ إصرارًا على فهم ماهيته، فهو القدر الذي فُصِّل رداؤه على مقاسي، يعكس حقيقتي الغريبة التي أحبها وأعتز بها، رغم ما يراه المجتمع فيها من غرابة أو نبذ. هكذا خلقني الله، وغرس بذرة الفضول في ذاكرة قلبي.

ومع التجربة، صار الفضول رفيق دربي، نما وترعرع مع ذاتي، طوّعني لإرادته، ومنحني خبرة واسعة في فن الحياة وإدارتها. أرغمني على تجنب الموبقات، وغمرني بسحره الآسر، حيث تكمن النشوة في معرفة التفاصيل الدقيقة لمشاكل الناس، وفي إيجاد الحلول والمشورة لها. إنه السحر بعينه.

أراه متلألئًا في عيني، وتغمرني النشوة حين أُفرج كربًا عن عاجزٍ أنهكته العقد. تتعاظم لذتي حين أُدرك أنني قد تشبعت خبرةً يستعين بها الآخرون. الفضول جعلني حذرًا في كثير من المواقف، خاصة تلك التي تفرض عليّ الاحتكاك بالمتهورين والمتنفذين. علّمني أن أتوقى عبث القريب، وأن أُدرك الينابيع المالحة في القدر والحساب.

ربما لا تعجب هذه الشخصية أحدًا، لكنها تعجبني. لم أستطع أن أتنكر لها أو أبدل جلدي. أشعر أن الفضول هذّب شخصيتي وصقلها. هو رقم مجهول يبتعد عنه الناس، أما أنا فقد عرفت أسراره، حللت ماهيته، فسّرت مكنوناته، ورسمت له شكلًا هندسيًا في ذهني لا يفهمه سواي.

اكتشفت عناصره وتفاعلات ذراته، وأدركت أن ذرته تختلف في عددها الذري عن جميع العناصر. تمنيت لو أنني أضع جدولًا خاصًا بمشاكل الناس، كجدول مندليف، أثبت فيه غرائب ما أفرزته تجاربي، وأضع حلولًا جذرية لكل معضلة.

هذه هي الحقيقة، وهي حقيقتي. أقتنع بها وأحبها كما يجب، فهي هويتي وهوايتي أمام المجتمع، التي تميزني عن سائر البشر.

***

كأسان من الشاي... ومثلث الحيرة

أخذت كأسين من الشاي، وتقدمت نحو ذلك الغريب بشغف التعرف عليه. عيناه شاخصتان باتجاهي، واجفتان، حائرتان، تبصران خلف المدى. أهجس أنه لا يراني وأنا أقترب منه، لانشغال فكره بأمرٍ ما، كأن عينيه مغشيتان بهالة سوداوية، منحرفة عن مسارات النظر. بدا عاجزًا عن إدراك سكينته، غير قادر على منع صدى القلق والحيرة من التسلل إلى ذاته، تائهًا في دوامة الضياع. وربما الحالة التي هو فيها ستأخذ من صحته الكثير، ومن ماله الكثير، قبل أن يستجمع قواه ويعيد لنفسه توازنها.

ترى، هل أستطيع انتشاله من وضعه المأساوي؟ سؤال شغل تفكيري...

وبناءً على تراكم خبراتي السابقة، وضعت حالته في ثلاث زوايا، ورسمت له مثلثًا مرعبًا لا يمكن أن يفلت منه. خمنت احتمالات مشكلته حسب الأولوية:....

أولًا: قد يكون فقد عزيزًا من أسرته، أو أحد أصدقائه، أو زوجته... وهو الاحتمال الأقوى، فالحزن والارتباك واضحان على وجهه وهيئته، والسيجارة المعلقة بشفتيه تنطق بما لا يُقال.

ثانيًا: ربما فقد وظيفته، فصار يضرب أخماسًا بأسداس، وتشتت فكره، وغرقت رؤيته في الضبابية، يدور في مكانه بعجز ظاهر... وهذا احتمال معقول.

ثالثًا: ربما فقد مبلغًا من المال لا يستطيع تعويضه... احتمال ضعيف جدًا قياسًا لهيئته، لكنه يظل واردًا، ففي هذه الأيام لم تعد الهيئة تعبر عن حقيقة البعض.

على أية حال، حملت كأسين من الشاي وتقدمت نحوه مسلّمًا:

- السلام عليكم...

لم يجبني، التفت يمينًا ويسارًا، غير مصدق أن السلام موجه له!

رد بهدوء:....

- تكلمني...؟

ابتسمت في وجهه قائلاً:...

- وهل يوجد غيرك في المكان؟ ما بك يا أخي؟ خذ، اشرب الشاي... هدّئ من روعك، أراك مهمومًا جدًا.

أخذ كأس الشاي بيد مرتجفة، وعيناه تخترقان الصمت، ينظر إليّ نظرة استفسار، كأنه يقول: من أنت؟ ماذا تريد؟ كأنه يحاول أن يتذكرني، إن كنت قد مررت بسكة حياته يومًا ما. قال بصوت ناعم منكسر، كأنه يتأمل من ينقذه:

- أأنت تعرفني؟
- لا يا أخي، ليس بالضرورة أن أعرفك، الناس لبعضها... لكني أتشرف بمعرفتك.

ثم قدمت له نفسي:.....

- أنا الصحفي ميلاد، ألم تسمع باسمي؟ أعمل في صحيفة "الرياضي" منذ سنتين... وأنت من تكون؟

رأيت علامات الاستفهام والاندهاش ترتسم على وجهه، ترى بمَ انشغل تفكيره في تلك اللحظة؟ فقال لي:......

- حقًا؟ أأنت صحفي رياضي؟
- نعم يا أخي، وما الغريب في ذلك؟
- أنا... صبري... أعمل في بلدية المدينة! انتقلت إليها منذ شهر تقريبًا.
- أهلاً وسهلاً بك، تشرفت بمعرفتك.

شعرت أن الأمور بدأت تتيسر لمعرفة مقاصد حزنه ومشاكله الدفينة، وهو غرضي وغايتي التي أجاهد من أجلها. بدا أن

الفرصـــة مواتيـــة للـــدخول معـــه فـــي تفاصـــيل تجهمـــه. اســـمه صــبري، لكنــه مــن الواضــح أنــه لــم يكــن صــبورًا علــى مشــكلته. فبدأت باستغلال الفرصة وطرحت عليه بعض الأسئلة:

- هــل كــان لــك ولــع بالرياضــة فيمــا ســبق؟ أقصــد، هــل مارستها؟ هل تحبها؟
- طبعًا... طبعًا يا أخي، لدرجة الهوس!

عجيــب أمــره، هيئتــه لا تــدل علــى أنــه شــاهد ملعبًــا فــي حياتــه. ترى، ما الذي يجعله يتولع بالرياضة؟ والكلام له:..

- أنــا... أنــا عــداء ســابق... كــان النــاس يلقبــونني بــ"صبري طيارة" لسرعتي في الجري – ههههههههه.
- إذًا، مــا بــك؟ لمــاذا أنــت مــتجهم وحــزين جــدًا؟ إن كنــت تــود أي مســاعدة، فأنـــا جـــاهز، ســـأكون بخـــدمتك دون تــردد، فقــط افــتح لــي صــدرك، وعبّــر عمــا يجــيش فــي خاطرك.
- وهل يهمك حزني؟
- أكيــد! يمكنــك أن تخبرنـــي بمـــا يعيــق مزاجــك، وبإمكانــك أن تعتمد عليّ.
- وهل تكتم السر؟

تبــادرت إلــى ذهنــي أمــور كثيــرة. طالمــا هنــاك ســر لا يريــد أن يُفتضــح، فــلا بــد مــن فجــوة واســعة فــي حياتــه يــود ترميمهــا. قــد تكــون فــي مجــال المــرأة، أو السياســة، أو أمــور أمنيــة، أو ربمــا

وقـع فريسـة فـخ أو نصـب خسـره مـا يملـك، أو... توقعـات كثيـرة بددت كل ما بنيته سابقًا في مثلث برمودا.

فقلت له بلا تردد:....

- اطمـئن يـا أخـي، سـرك فـي بيـر. أخبرنـي، ربمـا أسـتطيع مساعدتك.
- لا، لا، لـن تسـتطيع مطلقًـا مسـاعدتي، لا أنـت ولا غيرك!

تـرى، كـم حجـم المشـكلة التـي فاقـت طـاقتي وطاقـة الجميـع، بحيـث لا نستطيع تقديم حلول لعقدها؟

- يا أخي، جربني ولا يهمك!
- المشـكلة فـوق الـتحكم بهـا، إنـه قـدر وقـد حُسـم! إنـه الحـظ السـيئ للغايـة! وقـد وقـع مـا لـم أتوقعـه مطلقًـا فـي هـذا اليـوم المشؤوم...

كنـت أصـغي لـه وهـو يسترسـل، وكـل همـي أن أمسـك بـرأس الخـيط الضـائع فـي هـذه المتاهـة، المتمثلـة بهيكـل إنسـان ميـت، فاغر أذنيه وفمه بوجهي، أود التقاط سره.

- نعم، أسمعك، أكمل...
- أنـا مُولـع إلـى درجـة الجنـون، بـالفريق الكتلـوني (برشلونة)، الذي خسر اليوم بطولة أوروبا...

وبـدون أن أصـغي لنفسـي، وبـدون لباقـة أو تحضـير، صـرخت بوجهه:....

- نعم! كل هذا الحزن والتجهم والكآبة لخسارة فريق كرة قدم! وما دخلك أنت؟ لقد شغلتني ساعات من المتابعة في أمر تافه! الله لا يوفقك، كم أنت تافه وغليظ وثقيل دم!

لم أدرك حجم انفعالي وقوة صراخي، حتى انتبه كل من حولي للصعقة التي نزلتها على رأسه. أحرقت هشيم فكره السطحي... فلّ من المكان، لم يستطع تدارك نفسه، فقد زمام أمره، ترك مكانه وهو يجري بقدميه الهزيلتين باتجاه الجهة المعاكسة، مبتعدًا دون أن يلتفت خلفه، كأنه أدرك حجم تفاهته.

حينها أدركت: كم من بشر ترك همومًا تخصه وتخص الوطن والبيئة والمجتمع، ولم يكترث لها، وتمسك بدلًا من ذلك بأمور دنيوية تافهة، لا تجدي نفعًا ولا ضررًا. صحيح أن الناس معادن، ومعدن كل شخص بيئته وثقافته ودينه. فكم من معدن رخيص الثمن، وكم من معدن باهظ القيمة... فالإنسان مطبوع على الخطأ، والغبي هو من يتمسك بعنجهية تديم عليه أخطاءه. التافهون وحدهم منشغلون بقضايا لا تهمهم... كالذباب.

7- بياض الدم

بياض الدم

علـــى امتـــداد ســـنوات عملـــي الطويلـــة كطبيبـــة، لـــم أواجـــه عقـــدة استعصـــت علـــى الحـــل، ولا لغـــزًا عجـــزت عـــن فـــك خيوطـــه، كمـــا حـــدث فـــي أحـــد صـــباحات يـــوم جمعـــة. كانـــت مشـــكلة بـــلا أســـاس منطقـــي، نبتـــت مـــن رحـــم الجهـــل، وتطـــورت بســـرعة خاطفـــة، حتـــى التفـــت حـــول أعنـــاق أصـــحابها، لتغـــدو عقـــدة شـــائكة تثيـــر الغضـــب في الأطراف والجذور على حد سواء.

لقـــد أثقلـــت هـــذه المشـــكلة كـــاهلي نفســـيًا، وانبثقـــت كقـــدر أحمـــق لا ينطـــــق إلا بالصـــــمت. صـــــبّت جـــــام غضـــــبها علـــــى مشـــــاعري ومشـــــاعر زملائـــــي فـــــي المشـــــفى، وجعلتنـــــي عـــــاجزة، مكتوفـــــة الأيدي أمام سهامها، لا أملك سوى الانتظار حتى حين.

كانـــــت عقـــــدة هلاميـــــة، متجـــــذرة فـــــي أعمـــــاق العـــــادات والتقاليـــــد الخاويـــــة، غيـــــر المدروســـــة، والمترســـــخة فـــــي بطـــــون المجتمعـــــات الشـــرقية والدينيـــة، تغـــذيها الجهالـــة وســـوء الفهـــم. إنهـــا أزمـــة نفســـية خالصـــــة، لا تُحـــــل إلا بتكـــــاتف المثقفـــــين والخيـــــرين مـــــن أبنـــــاء المجتمع.

فـــي ذلـــك الصـــباح، جلســـت مبكـــرة علـــى وقـــع صـــراخ غيـــر مـــألوف، يتـــردد فـــي صـــالة الطـــوارئ. أحيانًـــا، يُفاجـــأ الإنســـان بـــأمر طـــارئ لا يعـــرف كيـــف يتعامـــل معـــه فـــي لحظتـــه الأولـــى: إلـــى أيـــن يتجـــه؟

ماذا يفعل؟ من يستشير؟ تلك الخطوة الأولى هي مفتاح فك الطلسم، وبداية الخروج من متاهة الحيرة.

قد يدور الإنسان في دوامة لا يخرج منها بنتيجة، حتى يركن إلى قرار صائب بعد حين. أحيانًا، تلهمه فكرة خاطفة، آنية، لكنها كفيلة بتغيير المسار. كل ذلك يتوقف على إدراكه، وعلى خبرته وبراعته، وعلى مدى ثقافته واهتمامه بالتفاصيل والعموميات، وعلى قدرته في عنونة القضية. غير أن سوء التقدير قد يقوده إلى غرق أعمق، وهمٍّ أكبر.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة فجرًا من يوم الجمعة، ليلة خفارتي الأسبوعية في مستوصف الرحمة، الواقع في جانب الكرخ من بغداد. شعرت بريبة من أن تصادفني مشكلة عويصة، لا أملك حيالها الحكمة الكافية ولا الحذق المطلوب. خشيت ألا أكون عند حسن ظن من يحتاج إلى معونة دقيقة ولائقة، وأن أُلام على تقصير غير مقصود، سواء من قبل المسؤولين أو المراجعين. يضاف إلى ذلك فقدان الراحة، وحالة الشد النفسي والعصبي التي ترافق مثل هذه الليالي، فأنا لا أرغب أن أكون في مواجهة مباشرة مع مريض أو ذويه، خصوصًا إن كانوا من الجهلة.

تكمن المشكلة في السلوك العام، حيث ينظر كل طرف إلى القضية من زاويته الخاصة، دون تقدير لحجم المسؤولية الملقاة على عاتق الإدارة، ودون إنصاف للعطاء المبذول من قبل العاملين في المستوصف.

أتذكر إحدى المرات حين تعرضت زميلتي لعنف وتهديد وتوبيخ وقذف من أهل مريض، وانتهى بها الأمر إلى المحكمة القضائية؛ لأنها لم تستطع إنقاذ طفل تعرض للدهس من عجلة مسرعة. صحيح أنه وصل إلى المشفى حيًا، لكنهم لم يدركوا حجم الكارثة التي أصابت جسده من نزف داخلي لا يمكن السيطرة عليه، مما أدى إلى وفاته. كثيرون يتصرفون في مثل هذه المواقف بعواطفهم، لا بعقولهم.

بدأت المشكلة في تلك الليلة المشؤومة مع أولى خيوط الفجر. كان عنبر مستوصف الطوارئ صغيرًا جدًا، ويبعد عدة كيلومترات عن مشفى اليرموك الرئيسي. الحي الذي يقع فيه المستوصف جميل، يطل على نهر دجلة، وتحيط به مواقع تاريخية تبجل زمن بغداد العباسي وما تلاه من حقب. فيه منتجع للراحة والاستجمام، وحدائق واسعة، وفندق حديث يطل على الشاطئ، غالبًا ما يقصده العرسان الجدد لقضاء ليالي شهر العسل، لما تتمتع به المنطقة من هدوء وسكينة، وإطلالة آسرة تستقطب الزوار.

انتفضتُ عن سريري مذهولة، أفزعني الصراخ الهادر في الصالة. في ثوانٍ معدودة، جهزت نفسي لمواجهة الأمر، ارتديت معطفي الأبيض، علّقت سماعة الفحص في عنقي، وانتعلت نعلي الطبي، ثم هممت بالخروج من الغرفة على عجل.

لكن للعجلة ثمنها؛ فقد فقدت تركيزي، وتعثرَت قدمي بكرسيٍ صادف أن يكون أمامي. ولولا أني استندت براحة يديّ على

الجـدار المقابـل، لارتطـم وجهـي بـه. أمسـكتُ بمقـبض البـاب بيـدٍ مرتجفــة، فتحتــه بقــوة، وفــي اللحظــة ذاتهــا اســتقبلتني الممرضــة نــدى، مذهولــة ومرتبكــة، تحــاول أن تشــرح لــي الموقــف وهــي تتلعـثم بكلمـاتٍ متقطعـة. بصـعوبة، تمكنـتُ مـن فـك طلاسـمها، إذ قالت:.....

– د... دكتـورة رجـاء... أسـرعي، عـروسٌ مغشـيّة بـدمائها، قسـى عليها زوجها في ليلة دخلتها.

فــي تلـك اللحظـة، تـداعت فـي ذهنـي احتمـالاتٌ كثيـرة. ربمـا كانـت العــروس صــغيرة الســن، لــم تحتمــل عنــف الرجــل فــي أولــى لحظــات زواجهــا، وهــي حالــة شــائعة بــين الأزواج قليلــي الخبــرة والثقافـة، أمـام انـدفاع الغريـزة. وربمـا كانـت مكرهـة علـى الـزواج مـن رجـل لا تحبـه، أو يكبرهـا سـنًا، فتعرضـت للقسـوة. أو ربمـا لـم تكـن مهيـأة نفسـيًا للـزواج، فأصـيبت بانهيـار عصـبي. وقـد تكون هائمة في حب شابٍ آخر، لا تستطيع البوح بعلاقتها.

كل الاحتمالات واردة.

تقـدمتُ نحـو الصــالة، التــي لا تبعـد ســوى خمســين متــرًا عــن غرفتــي. كــان صــوت الرجــل غليظًــا، يزمجــر كــوحشٍ علــى فريسـته المنهكـة، تلـك التـي لا حـول لهـا ولا قـوة، والصـمت يخنـق أنفاســها. تمكــن العــاملون والحــرس والممرضــون مــن تحييــد الـزوج الموتـور، كونـوا حـاجزًا بينـه وبـين زوجتـه، بـل احتجـزوا العروس في غرفة الحرس عند مدخل الصالة.

دخلتُ الصالة، فوجدت العروس منهارة تمامًا، جسديًا ونفسيًا، مرمية على سرير المرضى كدميةٍ بلا حراك، تزفر الآهات بألمٍ نفسيٍ عميق، يعكس حجم القسوة التي تعرضت لها، والجرح الذي تعشّق في أعماقها.

في مثل هذه الحالات، حيث العنف هو سيد الموقف، لا بد من تدخل الشرطة قبل أي إجراء علاجي، سوى بعض الإسعافات الأولية لوقف النزف إن وجد، أو تهدئتها بحقنة مهدئة كـ(بروفتين، تيفاني، أو أتراكس)، لتجاوز حالة الانهيار العصبي.

تم إبلاغ الشرطة، التي لا يبعد مركزها سوى 200 متر عن المستوصف. ولم تمضِ دقائق حتى وصل ضابط برفقة اثنين من معاونيه، أحدهما شرطي يحمل بندقيته، والآخر برتبة عريف يحمل ملف التحقيق.

عاين العريف الكدمات في وجه العروس وجسدها، وسجلها في دفتر الحوادث، فيما كان الضابط يستنطقها، وهي تجيب بصوتٍ خافتٍ مبحوح، تتخلله آهات ألم وحزن داكن، يخزق جوارحها كالسكاكين.

كان هناك جرحٌ بليغ تحت الجفن الأيمن، ونزفٌ في الشفة السفلى، وكدماتٌ في اليدين والقدمين والظهر. تمتمت بكلماتٍ تذم فيها زوجها، واصفةً إياه بالوحشي، الجاهل، الغبي، وقالت: ....

– يتهمني بشرفي، والله إني بريئة من كل تهمة كالها لي هذا الكلب...

المشكلة بدأت في ليلة دخلتها، تلك التي انتظرتها طويلاً، منذ اللحظة الأولى لفهمها معنى الحياة. ليلةٌ كانت تأمل أن تكون بداية الجزء الثاني من فيلم سيرتها الذاتية كامرأة، بعد أن أسدل الستار عن الجزء الأول من عزوبيتها.

بعد أن طوت حياة اللعب والعشق والمراهقة، تبدأ أهمية الفصل الثاني من سيرة الحياة. فصلٌ متخمٌ بالوقائع الحلوة والمرة، معلّقٌ بخيوط أحلامها البنفسجية. إنها مرحلة تنغرس فيها الجدية، ويُزرع فيها العمل والتخطيط للمستقبل البعيد؛ حياة زوجة، وأمومة، وأولاد، وعمل، وتربية.

أسمى أهداف المرأة في الحياة أن تنعم بصفاء العلاقة الزوجية، وتعيش بهدوء وكرامة تحت ظل زوجها، أن تنصهر بعواطفه في علاقة وطيدة، وتبلغ ذروتها حين تنجب منه طفلًا أو أكثر، فيصبح جدارًا تستند عليه لترتيب أولويات رحلتها الطويلة في السفر القادم من العمر.

المرأة دون طفل كغرفة بلا أثاث، حياة فارغة من البهجة والحركة، قفارٌ أجرد لا روح فيها، ناقصة بلغة الطبيعة. فالأمومة ليست مجرد دور، بل عالمٌ مجهول لا تفهمه إلا من دخلت حدوده، وتنشّقت عبقه، ومارست دورها فيه كسيدة. حينها تتجسد المعاني الحقيقية للمرأة، وتبلغ الأمومة قمتها، وتتحقق السعادة في أسمى صورها.

الحياة بعد الزواج تعني أسرة، كيان، واستمرارية. الإنسان بعد الزواج لا يفكر إلا بعقلين، ولا يعيش إلا بقلبين. لا يحلم ولا ينسجم إلا حين يتحول مع شريكه إلى مزيج من الوشائج والألفة، يتقاسمان الأحزان والأفراح كما يتقاسمان رغيف الخبز.

كانت الزوجة قد انتظرت طويلاً، حتى أمسكت بتأملاتها، وكَسرت مرآة عزوبيتها. لكنها في ليلة دخلتها لم تنزف بكارتها سوى بياض الدم. لم تتلون فوطتها البيضاء بحمرة الشرف. حينها جن جنون الزوج. لم يمنحها فرصة للدفاع، بل انهال عليها ضربًا، كأنها دمية بين يديه، مكبّلة تحت قدميه، عاجزة عن النطق أو المقاومة. لم يسألها، ولم يصدقها، بل لم يكن مستعدًا لسماع أي عذر.

سحلها من شعرها أمام الملأ، قادها كالنعجة إلى الشارع، تتبعه بخطوات متراخية، ساقٌ تلتف على ساق، قابضًا على يدها الرفيعة كمن يمسك بطرف عود من القصب بكماشة غليظة. تلك الحورية التي تأملها طويلا، باتت تتلوى بين يديه كثعبانٍ جريح. دموعها انهارت، وصخب أنينها لم يسعفها. دفعها بقوة إلى داخل سيارة الأجرة، هددها بالقتل، بصق على وجهها الناصع، كأنها لم تكن يومًا من توسّل إليها ليكون زوجًا لها.

الناس، بطبعهم، لا يتدخلون دون معرفة، لذا اكتفوا بالنظر باستغراب، وكأنهم يشاهدون مشهدًا تمثيليًا حيًا. الآراء تضاربت، أحدهم ينصف الرجل، وآخر ينصف المرأة، والحقيقة معلّقة في غارب الظن.

تقطرت الدماء على ثنايا ثوبها الرمادي البراق، ذات الأشرطة الصفراء. فقدت الإحساس بالألم، بل فقدت حواسها كلها، ومشاعرها تبخّرت بعد أن ألصق بها تهمة البغاء.

لم يكن الألم هو ما أوجعها، بل عصف الشرف الذي داهمها على حين غفلة. اجتاحها طوفان السخط قبل أن تلملم أوراق حلمها. غربت شمس السعادة في ليلة ميلادها. تحولت إلى قطعة جماد، لا روح فيها، لا سمع، لا بصر. وطأة الصخب، وصوت الضرب المنهمر كالمطر، أفقدها صوابها. بكفه الغليظة ثلم فمها، أخرس لسانها، صبغ شفتيها بحمرة الدم، ووجهها بلون زعفران الخجل.

دخلت في غيبوبة من شدة الصدمة، ارتقت حالتها إلى درجات الشيزوفرينيا. لم تعِ ما حولها، ركنت إلى دكة الصمت، ولم تستعد وعيها إلا بعد أن رُشّ وجهها بالماء البارد، ثم زُرقت بحقنة مهدئة لتستعيد ذاتها.

كسفت شمس سعادتها، دبّت القشعريرة في جسدها، أفسد حلمها الفتي، أفسد فرحها في يومٍ كانت تعتبره الأسمى في حياتها. حلمٌ راودها منذ أن اقتحم فكرها سلطان الوعي، ودغدغ قلبها شغف الحب. لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن. جعلت لحياتها عناوين بؤس شتى. كانت تلك أولى الكبوات التي لم تخطط لها، نزلت كالطامة على رأسها، كسرت مرآة عفتها التي طالما كانت أمينة عليها.

أصبح للهم السليط حبل التفَّ على عنقها، قيد حريتها، فلن تمشي كما سبق، ولا تضحك كما سبق، ولا تفكر كما سبق. تجربة مريرة دكت عفتها، جعلت من جلدها حسيرة لمداس الزمن

\\\\\\\\\\\\

المسألة تحتاج إلى مرونة، إلى مطاطية في فهم المجتمع، وإلى قواعد راسخة في علم النفس. فالعقدة لن تنجلي رواسبها من الأذهان والقلوب دون فعل واعٍ من قبل الزوج. بل بالأحرى، تحتاج إلى قدرة إلهية لترميم صدأ الجدران، الناتج عن عبثية مفرطة في التعامل.

المخلفات المترسبة في قيعان المجتمع هي ذاتها من صنعت المشكلة. وقد نحتاج إلى جيل أو أجيال لتشطف ترسبات العقد من أحواض الوعي الجمعي، من الأعراف والتقاليد الغائرة، التي زادت من تعقيد المسألة. فهي لا تحتمل الإسفاف في إدارتها، ولا يمكن تجاوز تأثيرها بسهولة، ولا هي بالأمر الهين للقبول بها. إنها من العقد التي تحتاج إلى تنازل القمم عن مواضعها.

المشكلة فيها من الهشاشة ما يغوص بها العقل، ومن الصلابة ما يتكسر عليها العظم. يصعب وصفها لتشبثها بملابسات الأعراف والتقاليد الدفينة. وفي ظني كطبيبة، لم يكن من السهل أن أغض الطرف عن أساس العقدة، فهي من الأقدار المليئة بالقسوة النفسية، والعنف، وقلة الحياء. فيها تعسف

أعمى، برع في حفر تجاويفها الظن السيء، والتخلف، والجهل.

أما الرجل الذي كان يرعد ويزمجر كبطلٍ همام، واثق من ظنه وتصرفاته، فقد ألحّ بشدة على إجراء الفحص لعروسه، راغبًا في إثبات براءته من الملامة على فعلته الشنيعة. كأنه لا يدرك أن للحق سطوعًا يخترق حاجز الظلم مهما جنّ وعلا، وأن للحق نورًا يراه الجميع من خلف الجدار.

الحقيقة دائمًا ما تكون حبلى، أو تكون كحيلة العين، تجذب الانتباه، كفتاةٍ بتول في العشرين من عمرها، لا تكبر ولا يخمد بريقها، وإن كانت مدفونة تحت صرة الحرج والخجل. الحقيقة أشبه بولادة هلال جديد، تبحث عنها بين هباب الشك.

أراد الزوج أن يثبت للآخرين سوء ظنه بها، أن يطعنها في عفتها وشرفها بلا دلائل مقنعة، متوقعًا فقدانها بكارتها قبل أن يلج بها..... ترى، بأي روحية تصرف؟ ماذا سيجني من فعلته النكراء سوى العار واللوم والكراهية؟ أنا أتكلم هنا كأنثى، لا كطبيبة. أنانيته لا تُفسر إلا بالتساؤلات التالية:...

ما الغرض الحقيقي وراء سعيه المستميت للتنكيل بها؟

لماذا القذف المقزز بشرفها؟

لماذا التمسك ببند الفضيحة؟

ألم يكن الصمت والتأني أفضل الطرق؟

لقد شوّه صورته قبل أن يشوّه صورتها أمام المجتمع. تصرف دون لياقة أو لباقة، دون إدراك أن العواقب ستعود عليه. هل فعلاً خيّبت أمله في حلمه الذي كان ينشده؟ هل انتقم لشرفه؟ أم للمبالغ التي صرفها على عرسه؟ أين تكمن الحقيقة في دافعيته العدوانية؟

ولو فرضنا أنه كان يبحث عن الشرف، فما هو مفهومه الحقيقي للشرف؟

الشرف يُعرّف بأنه الهوية الشاملة للإنسان، التي تعبر عن تكوينه النفسي، والروحي، والخلقي، وتبرز في سلوكه الشخصي والاجتماعي. الشرف الحقيقي يعني: الكرامة، النخوة، النزاهة، الصدق، الأمانة، المروءة، الشجاعة، الإحسان، العفة، والتضحية بالمال والنفس من أجل القيم..... بهذا المعنى، الشرف لا يتجزأ، سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي. ومن يحمل تلك الصفات، فهو شريف بأعلى المراتب، خاصة الوطنية منها. العلاقة بين الإنسان والشرف علاقة صميمية، جدلية، لا تنفصم.

قال المتنبي:...

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى - حتى يُراق على جوانبه الدم

وقال ميخائيل نعيمة: شرف الإنسان في إنسانيته؛ فإن افتقدها، فقد شرفه وتجرد من إنسانيته.

وقالوا: كنز الشرف أفضل من كنز الذهب.

ومن علامات الشرف: إغاثة الملهوف، كما فعل المعتصم حين لبّى نداء امرأة أسيرة في عمورية، فخرج على رأس جيش عرمرم لإنقاذها، وكانت تلك الصيحة سببًا في فتح عمورية.

عزة النفس، كما يُروى عن قيس بن زهير حين أصابته فاقة، فلم يمد يده لأحد، واكتفى بالصبر على الحنظل المر حتى ضعف ومات.

وللشرف معانٍ كثيرة: فالعالِم، والحاكم العادل، والمجاهد، والمحسن، والصانع، والتاجر، والمزارع، متى ما كانوا أمناء في عملهم، فهم شرفاء.

أما الشرف الذي يقصده البعض بانتقائية، فهو ما يتعلق بسلوك الفرد، وهو جانب من جوانب الحياة، لا ينبغي حصره في زاوية ضيقة مقرونة بسوء سلوك الذكر أو الأنثى. هذا المفهوم يمثل إحدى فضائل سلامة الفرد والعائلة، والتي تؤدي إلى صلاح المجتمع بأسره.

الشرف الحقيقي لا يُقاس بالدماء، من يسعى في الأرض فسادًا، رجلاً كان أو امرأة، ويمارس الرذيلة ويتبنى طرق الفاحشة، فإنما هو عديم الشرف، فاقد للكرامة والإنسانية. الفساد لا يقتصر على الأفعال الجنسية، بل يشمل الغش، الإهانة، القتل، الحرق، الاغتصاب، التعذيب، مصادرة الأحلام والطموحات، وحتى التحالف مع أعداء الوطن أو الاستقواء بالأجنبي. هذه

هـي المقـاييس الحقيقيـة للشـرف، التـي يجـب أن نقـيس بهـا تصرفات الآخرين، لا قطرات دم على ملاءة بيضاء.

فـأين نضـع العـريس الـذي ارتكـب فعلتـه الشـنيعة بحـق عروسـه، على ضوء هذه المبادئ؟

لا يـزال كثيـرون فـي مجتمعاتنـا يربطـون شـرف الفتـاة بقطـرات دم فـي ليلـة الزفـاف، متجـاهلين الحقـائق العلميـة حـول غشـاء البكـارة، الـذي يختلـف مـن فتـاة لأخـرى فـي الشـكل والنـوع وكميـة الـدم الناتجـة عـن فضّـه. **هنـاك سـبعة أنـواع لغشـاء البكـارة: الحلقـي، المطـاطي، الهلالـي، الغربـالي، الهـدبي، الفسـتوني، والحـاجزي.** بعضـها لا يُفـض إلا بـالولادة، وبعضـها لا ينـزف إلا بعد تكرار الجماع، وبعضها لا يُظهر دمًا على الإطلاق.

حـين اسـتدعيت العـريس إلـى غرفتـي، كـان كـالمجنون، مـذهولًا ممـا يسـمع ويـرى. شـرحت لـه أنـواع الأغشـية بالصـور، ليهـدأ ويبـدأ فـي إدراك حجـم الكارثـة التـي افتعلهـا. عنـدها تحـوّل مـن أسـد مفتـرس إلـى فـأر مـذعور، يطـأطئ رأسـه خجـلًا، يتصـبب عرقًـا، ويغـرق فـي ندمـه. لـم يعد يملـك مـا يـدافع بـه عـن نفسـه، فقد انكشفت هشاشة ثقافته، وتعرّى جهله أمام الجميع.

طلبـت منـه أن يرافقنـي إلـى عروسـه، التـي كنـت قـد أجريـت لهـا فحصًـا أوليًـا، وتيقنـت مـن أن غشـاء بكارتهـا مـن النـوع المطـاطي الـذي لا ينـزف إلا مـع ولادة طفلهـا الأول. حـين رأى ذلـك بعينيـه، انهـار باكيًـا، يعتـذر ويتوسـل، يقبّـل قـدميها ورأسـها، لكـن هيهات أن تُصلح الجرة بعد كسرها.

المشكلة تجاوزت حدود الاعتذار، وأصبحت بحاجة إلى وساطة من وجهاء العائلتين، وخبراء في الإصلاح الاجتماعي، لتجنب نزاعات عشائرية قد تشتعل بسبب الجهل وسوء الفهم.

أما العروس، فكانت بحاجة إلى رعاية نفسية وجسدية مركزة، لتتجاوز آثار الصدمة، وتستعيد توازنها الداخلي. ستلازمها الكآبة لفترة، ولن يسعفها إلا صلحٌ حكيم، يقوده أصحاب رأي يتصفون بالحياد والحكمة، بعيدًا عن العصبية والانحياز.

العقدة في هذه المسألة أن المرأة، حتى لو كانت على حق، تبقى ضعيفة أمام المجتمع، وتُجبر على التنازل كي لا تُلام. وهذا ما يجب أن يتغير.

8- الصدمة

جميل وفتنة: قصة عنادٍ أكلته السنون

قطع جميل شوطًا طويلًا في مضمار حياته، لكنه لم يفلح في تليين الظروف لصالحه، ولم يتمكن من فك طلسم العقدة التي أُبرمت حول حلمه بعروسه المنتظرة، ابنة عمه فتنة. رغم قربه منها نسبًا، كأنما هو أقرب من حبل الوريد، إلا أن المسافة بين قلبيهما كانت أبعد من مدارات الكواكب.

تعقدت أموره، وضاقت عليه السبل، وأسدل الستار على النوافذ التي كان يتأمل منها قبس سعادته. عاش في دوامة صمت مجحف، أطبقت على فكره، حتى وجد نفسه يخسر كل شيء في محفل الحياة.

إصراره على امتلاك فتنة كان موازياً لعنادها وكراهيتها له. كانت صلبة، حادة، لا تأبه أن تكون تحفة يتباهى بها. تمسكت برفضها القاطع، بينما هو تشبث بها كحق شرعي حسب الاعراف، مستندًا إلى جذوره القبلية والتي لاتزال تردد: "بنت العم لابن العم".

حاول مرارًا أن يلين عودها الصلب، لكنها أوصدت الأبواب في وجهه. شخصيتها القوية أجبرته على احترامها، وعلى انتظار موافقتها وتحمل مرارة الصبر. كانت فتنة بحق، فتنة شرسة لا يمكن تجاوزها، جعلته يقتنع بأن الحياة دونها لا طعم لها. هجس بها كمفقود يدير به شؤون رحلته الطويلة، ونظر إليها كما ينظر الجواهري إلى مكنوناته، تحفة لا تُفرّط.

لكنها لم تثنه عن عزمه، ولم تجد فسحة لحياتها خلال عقدين من العناد المتبادل. كانت أشبه بصرة محكومة بالنسيان، أقفل على حظها وتأملاتها بعنادها. وعلى الرغم من هاجس الخوف الذي سطا عليه بعد أن تخطى مرحلة الشباب، بقي جميل جالسًا على رأس الطريق، يمنع كل من يقترب منها، منتظرًا رجاءها الذي تلاشى مع الزمن.

كان يافعًا حين تقدم لخطبتها، لم يتجاوز الخامسة والعشرين. أما الآن، وقد مرت عشرون سنة، فقد ذبل عوده، وأصفرت أوراقه، وانكسر ظله، لكنه بقي متمسكًا بها. حارب كل من سعى للتقرب منها، وأحرق كل فكرة استفحلت باسمها، حتى لو كانت همسًا في نجوى عاشق.

عنادها زاده إصرارًا، وكلما ازدادت فتنة جمالها، ازداد هو عجرفة وتمسكًا. ومع مرور السنين، كبرت العقدة، وعرف بها القاصي والداني، حتى التفت خيوطها على ساقيه ويديها معًا.

أما فتنة، فقد أبحرت في مركب العناد، وحاولت الارتباط بغيره دون أن تفلح. لم تتوقع أن للزمن سطوة، وأن النار التي أضرمتها بيديها ستحرق جمار عمرها. بدأت تشعر بوخز العنوسة، يترك آثاره على وجهها وجسدها، آفة تجذرت في الفكر قبل أن تظهر على الجسد.

ترهلت عضلاتها، وظهرت هالة السواد حول عينيها، وتكورت الأوهان على جدران القلب والجفن والشفة، كأنها وهن العنكبوت. أضحت تلك الآفة لمعة في عيون الناس،

إحساسًا ينخر جبل الصبر كنخر العث لجذع الشجر. افتقدت زينة الألق، تبددت الأحلام، وتجردت من سمة الحبور والفرح.

\\\\\

ما إن هجست بـ كش ألق الفتنة، حتى بردت جمرة العناد التي كوِيت بها قبل أن تكوي بها ابن عمها. ذبلت نضارة الجسد، وابيضّت ذوائب الفودين، وشفّ جدول الشباب، وخفّ بريق النهدين. أحسّت بانكسار في قامتها، وبهوت في نورها. ملت الجلوس تحت مظلة الانتظار، هجست بخشونة مقعدها، لم تعد تجيد المناورة ولا المقاومة أمام تآكل جدران أنوثتها.

تيقّنت أخيرًا أن لا حلّ سوى الرضوخ لابن عمها. لم تجد من يرمي حجره في مستنقعها ليحرّك أمواج القلب بعيدًا عنه، ذلك الذي وقف سدًا منيعًا أمام كل من تسوّل له نفسه العبث بمياهها.

قررت أن تتجرد من عجرفة المناورة، تعلمت الدرس واتصفت بالعقلانية، بعد أن صقلتها التجربة المريرة. غدت جمرة عنادها رمادًا تهفّ به الريح، هجست ذاتها في خريف العمر، لم تعد تحتمل سقم الزمن. تحوّلت من نمرة شرسة إلى قطة أليفة. أدركت أنها وصلت إلى نهاية المطاف، وأن العقدة لن تُحل إلا بتنازل أحد الطرفين عن عرشه. تيقّنت أن ابن عمها أضحى كمسمار صدئ في موضعه، لا يُقلع. تلك الحالة أوصلتها إلى مرحلة الاستنزاف. لم تعد في المقدمة، بل باتت

تزحف خلف قريناتها في الركب. وقبل أن تتجاوز فاصل العنوسة، قررت أن تعيد النظر في إصرارها وقرارها.

بدأت تطرق حلولًا وسطية لإنهاء الأزمة التي تعقّدت في الظلمة، تبحث عن بصيص ضوء في عتمة الطريق. ومن تحليل شخصية ابن عمها، أدركت أنه لن يتخلى عن موقفه، فقد ضحّى ببذرة شبابه، وما بقي من العمر لن يزيد عمّا مضى. القضية أصبحت بالنسبة له مسألة كرامة.

الأسباب جعلت أسافين العناد تثبت في خاصرة الزمن هي ذاتها قلعتها عن موضعها. لم يعد أمامها سوى أن تتحرك بذاتها لكسر الجمود القائم، خاصة بعد أن افتقدت رونق الحسن وعصا الأنوثة. لذا أنصبت أفكارها على تسليم تفاحة أنوثتها لسيف ذكوريته، عسى أن تجني ثمرة أحلامها بعد أن تجاوزت السابعة والثلاثين.

وعلى غير العادة، فاجأته بالموافقة على الزواج. قرارها كان أشبه بقنبلة موقوتة فجّرتها بين يديه، لم تترك له فرصة التهيؤ والاستعداد. الغبطة فضحت أساريره، وإن جاءت متأخرة. المفاجأة أعادت له حيويته، لم يصدق أنه يلمس باكورة صبره بعد عناء أرهقه.... وأخيرًا، صار الحلم قاب قوسين أو أدنى. تلك العقدة التي قوضت صبره ونخرت لبيب عمره، تفتّت بفعل الزمن. أصبح لنضوج الفكرة أصداء في النفس، ولابد من قطاف الثمار. جرد نفسه من كل اهتمام إلا تهيئة بهرجة العرس، ليكون في مقام يليق بصاحبة المقام، ويتجنب انتقاد الأقارب والعقارب.

أشـرقت شـمس الحلـم مـن جديـد، أوقـد شـموع ليلتـه المرجـوة بكـل مـا فيهـا مـن سـحر وبهـاء. إنهـا ليلـة الهنـاء، تلـك التـي جاهـد مـن أجلهـا عبـر السـنين العجـاف. ابتـدأت بضـيافة القمـر، فـازدادت الأنــوار بهرجــة وبريقًــا، وســاد الجـو هـدوء نثـري غطّــى علــى متاعب العمر.

لكـن علـى قـدر أهـل العـزم تـأتي العـزائم، وعلـى قـدر الانتظـار المـرّ، كانـت الصـدمة الثانيـة. ففـي ليلـة الدخلـة التـي انتظرهـا، انطفـأت شـمعة ذكوريتــه تمامًــا أمــام تفاحــة أنوثتهــا. لــم تتــوهج رجولتــه قـط. انهـار مغشـيًا علـى وجهـه، فقـد سـلبه الـزمن كـل شيء.

حــاول جاهـدًا تخطــي قنطرتــه الأخيـرة دون جـدوى. لـم تتحـرك ذبابـة الغريـزة فـي جسـده. كسـرت هيبتـه أمـام صـرح أنوثتهـا، لـم يســتطع إرضـــاءها ولا إرضـــاء ذاتـــه. عطفـــت عليـــه، حاولـــت استثارته، شدّته إلى صدرها مرارًا، لكنه لم يستعد نبضه.

تفصّـد جبينــه بــالعرق، أحـسّ بطوفــان الهـمّ يجرفـه. إنهـا النهايـة. انهــار جبـل الـثلج بوقـع حـرارة الأجـواء. صـكّ فاهـه، فلـم ينـبس بشـفة. أصـبح فـي تيـه مـن أمـره، عاقبـه الـزمن علـى جريـرة فعلـه، وثأر منه بالقسوة ذاتها التي فرضها على ابنة عمه.

بعـد أن تجـرد مـن كـل شـيء، بعـد أن قتـل ذاتـه ومـن أحـب، تخلـى عن حلمه إلى الأبد.

لا تكن كالسيف على من تحب

فالزمن كفيل بثلم السيف

الشمس إن اختفت فلن تغيب أبدًا

وما من مجانة تزجل بالكيف

9- الرحلة المؤجلة

لـم يكـن تجمعنـا فـي محـل سـكنانا إلا صـدفةً ولـدتها الغربـة اللعينـة؛ تلـك التـي لا يشـعر بمـرارة صـبرها إلا مـن تجـرّع ألـم الهجـر، بحثًـا عـن صـيغة حيـاة مقنعـة فـي مغـارب الأرض. غربـةٌ قاسـية منحتنـا صـداقةً مـا مـن خيارهـا بـد، فرضـتها الظـروف، وصـاغتها الأقـدار علـى هيئـة نكـدٍ دنيـويٍّ ارتـديناه كيفمـا اتفـق. عشـنا خلالهـا صـداقةً آنيـة، مرحليـة، غيـر مقنعـة، تربّعـت علـى أكتاف الظرف، وأتحفت طابعها بلغز الحياة.

كنـا ثلاثـة مدرسـين جمعتنـا المصـادفة لـنقطن فـي عزلـةٍ داخـل مبنـى جديد ملحـق بـآخر، تعـود ملكيتـه لأحـد أشـياخ الـيمن. المبنـى عبـارة عـن "دولـج" مكـوّن مـن ثـلاث غـرف صـغيرة مصـطفّة أفقيًـا، يـربط بينهـا ممـر ضـيّق بعـرض متـرين، ينتهـي بسـلم يـؤدي إلـى فنـار الأرض. الغـرف المعزولـة تكـاد تكـون أشـبه بسـرداب، مدفونــة فــي الأرض إلــى حــدّ أن نوافــذها بالكــاد ترتفــع عــن مسـتوى التـراب. يقـع هـذا السـكن فـي حـي الحصـبة، أحـد أحيـاء مدينة صنعاء، عاصمة اليمن.

سـكنّا فيـه نحـن الثلاثـة: أنـا، وزيـاد، وإيـاد. اخترنـاه لحداثـة بنائـه، وقربـه مـن مدارسـنا، ولأنـه غيـر مـأهول مـن قبـل، فضـلًا عـن موقعـه الهـادئ البعيـد عـن صـخب المدينـة، واسـتقلاليته التـي وفّـرت لنـا شـيئًا مـن الخصوصـية. أمـا الحمامـات والمطـبخ، فكانـت مشـتركة، تقـع فـي نهايـة الممـر مـن جهـة اليمـين، تخـدمنا جميعًـا فـي تلـك العزلـة التـي فرضـتها الغربـة، وصـاغتها الحيـاة على طريقتها الخاصة.

كـــان إيـــاد يتصـــف بـــالثرثرة المفرطـــة، وقصـــر القامـــة، وفـــرط البدانـــة، حتـــى ليخيـــل إليـــك أنـــه أقـــرب إلـــى عجـــائز النســـاء فـــي جلسـات المقـاهي والـدواوين، يـروي القصـص كمـا لـو أنـه عاشـها، لكثـرة مـا حفـظ مـن أحـداث سـمعها. تفكيـره يكـاد ينحصـر فـي بطنـه وشـــهواته، لا ســـيما الطعـــام، يلـــتهم كـــل مـــا يصـــادفه فـــي طريقـــه كجـرادٍ يزحـف علـى الحقـول. ممتلـئ البـدن، أبـيض البشـرة، حسـن الملامـح، يتقـدّم كرشـه علـى صـدره، فيمـا أردافـه بـارزة بشـكل لافـت، تهتـز معـه فـي مشـيته المتهاديـة. يـدخل أنفـه فـي كـل نقـاش، يـدّعي الفهـم والمعرفـة رغـم محدوديـة معلوماتـه التـي يسـتقيها مـن جلســات المقـــاهي والنـــوادي الليليـــة. أحاديثـــه أحيانًـــا تبـــدو كأنهـــا مقتطفـــات مـــن بانورامـــا خياليـــة، أو أســـاطير لا ســـند لهـــا، ومـــع ذلـك، يتمتـع بخفـة ظـل ومـرحٍ لا يُنكـر. ضـحكته صـاخبة، تهـزّ جســده كالنـــابض، ويصـــاحبها صـــوتٌ أجـــشّ ينحـــدر مـــن أعمـــاق صـدره، يشـبه قهقهـة الأطفـال فـي عفويتهـا، حتـى أننـا كنـا نضـحك على ضحكته أكثر مما نضحك على النكتة ذاتها.

أمـا زيـاد، فقـد تعرفـت عليـه خـلال الرحلـة، لكـن علاقتـي بـه لـم تكـن وثيقـة، نظـرًا لمـا يُؤخـذ عليـه مـن طبـع الحسـد، الـذي يلتصـق بـه كمـا تلتصـق الشـعرة بالجسـد. أحيانًـا يبـدو وكأنـه يحسـد نفسـه إن لـم يجـد مـن يحسـده، فـالهوس يطغـى علـى سـلوكه، والضـغينة تنبعـث مـن كلماتـه وانتقاداتـه التـي لا تنتهـي، فـلا يعجبـه شـيء، ولا يرضـــى عـــن أحـــد. فـــي عينيـــه شـــرارة حســـد متقـــدة، وفـــي ملامحـه جمـودٌ حـادّ، يشـكّل حـاجزًا يمنـع الآخـرين مـن الاقتـراب منه أو الاندماج معه، وكأن بينه وبين الناس فجوة لا تُردم.

أما أنا، فكنت مختلفًا عنهما تمامًا. كنت أمتلك أثاث مطبخ شبه كامل، لولعي بالطبخ، وأمسك بزمام الأمور بتوازنٍ واضح. كنت حريصًا على العدالة في تعاملي، متزنًا في قراراتي، سواء كانت مادية أو اجتماعية أو نفسية. لا أحب النفاق، ولا أمارس الكذب أو الثرثرة. أجهل البغضاء والحسد، وتكاد تكون النية الطيبة، والبراءة، والصدق، والبساطة سمات تتحكم بتصرفاتي، بل إنها الثوب الأنيق الذي يُبرز ملامح شخصيتي في كل محفل.. فلا أعير أهمية للمال ولا يغرني جاه، ولا يسعدني منصب، كريم نفس، ليس لي علاقة بالموبقات، ولا أجامل على حساب الحق، أحترم ذاتي وأراعي الآخرين - لذا تجدني أشبه بالرأس الجامع بين الأقطاب المتنافرة في دائرة الوحدة التي تجمعنا.

***

كنا نتدحرج مع روتين الأيام بسلاسة، دون تعقيد يُذكر، نعيش أوقاتنا بين المدرسة والتجوال، نمضي في نمطٍ ثابت لا يتغير، حتى باتت الأيام تأكل بعضها بعضًا بذلك النسق الرتيب، إلى أن بلغنا نهاية السنة الدراسية في أواخر شهر مايو. حينها، انقلبت الدفة عن مسارها المعتاد؛ إذ شرفنا بالسكن الأستاذ فالح، قادمًا من إحدى القرى، ذلك الشاب الثلاثيني الذي أكرمه الشيخ، مالك المبنى، بأن جعله ضيفًا علينا دون استئذان، ودون سابق معرفة، فقط لأنه كان يدرّس أولاده في القرية.

فوجئنا به ذات صباح، نائمًا في الممر الضيق تحت درجات السُلّم، وذلك قبل نحو شهر من موعد سفرنا إلى أوطاننا، بعد

أن أنهينا عامنا الدراسي. عرّفنا بنفسه- الأستاذ فالح، مدرس مادة العلوم في إحدى قرى محافظة مأرب، وكان يُقدّم دروسًا خصوصية لأولاد وأحفاد الشيخ بلا مقابل مادي. في المقابل، كان الشيخ يغدق عليه بكرمه، في مأكله ومسكنه، معتبرًا ذلك تعويضًا ومساعدة آنية له.

كان الأستاذ فالح هادئًا، منطويًا، لم يسعَ إلى التقرب منا أو الاندماج في تجمعنا، ولم يحاول حتى مجاملتنا. ومن خلال الملاحظة، اكتشفنا فيه صفة البخل والقتر المفرط، الذي بدا وكأنه نال من صحته وعافيته الشيء الكثير، حتى بدت عليه ملامح البؤس المتجهمة، وكأنه غصن أجرد، فاقد للجاذبية، محنّط بالهم والغم ومرار الزمن.

تحمّل مشقة الجوع والذل في سبيل توفير بعض الريالات التي لا تسمن ولا تغني من جوع. فعلى سبيل المثال، لم نره يتبضع حاجات لأهله قبل سفره، ولم يدخل مطعمًا لتغيير نمط حياته، ولم نشاهده طوال شهر مكوثه معنا يتناول طعامًا صحيًا. كان يعتمد في معيشته على عطف الشيخ اليمني، الذي يغدق عليه بفتات طبخه، أو على سلطة الطماطم والبصل مع أقراص الخبز، يسد بها رمقه.

ذلك هو المنهج الذي تمسك به وسار عليه خلال فترة إقامته معنا، إلا في حالات نادرة؛ حتى حان موعد سفره.

بطوله الفارع، ونحول جسده، وسمرة بشرته، بدا أشبه بعمود إنارة انطفأت أنواره. تنبعث منه رائحة عرق نفاذة، نتيجة قلة

استحمامه وافتقاده للعناية الشخصية؛ لذا لم نلحّ عليه كثيرًا للاندماج معنا، ولم نحاول مجاملته لانطوائه الشديد وصمته العميق. كان في وحدته كالصندوق الأسود، مغلقًا على ذاته، لا يبادر بالحوار أو المشاركة، ولا يسعى للتقرب أو التفسح معنا في شوارع صنعاء. ونحن، من جانبنا، لم نحاول إدماجه في ألفتنا، احترامًا لخصوصيته.

وبسبب وضعه البائس، رقّ قلبي عليه، فعرضت عليه إن كانت له حاجة فلا يتردد في طلبها. وبالفعل، طلب مني أن أضع حقيبته الكبيرة، المحمّلة بأسراره وهداياه وأشيائه الخاصة، والمعدة للسفر، في غرفتي، فرحبت بذلك دون تردد.

مرت الأيام مسرعة، وكنا في منتصف شهر حزيران من عام 1997، نترقب ساعة السفر والعودة إلى ديارنا، بعد أن لسعتنا سنوات الغربة بالعناء، وسلبت منا نضارة الشباب، ووشمت وجوهنا بصفرة الزعفران، وعزلة التوحد لطول الفراق. كنا ننتظر العودة بفارغ الصبر، وفق جدول وضعته مديرية تربية صنعاء، الذي راعى الأولوية لمدرسي المناطق النائية عن مدرسي العاصمة.

خلال فترة انتظارنا أعددت سمكة كبيرة من نوع الهامور، تزن نحو أربعة كيلوغرامات، كمأدبة عشاء ووليمة وداع بيننا، رغبة في كسر روتين الحياة اليومية، وتخليد تلك الألفة بذكرى عطرة. فالذكريات، كفصول السنة، تتجدد وتستعيد حيويتها مع مرور الزمن، وتغمر نفوس أصحابها بالرحمة والحنين.

في مساء السبت الثاني من حزيران، كنتُ وزياد شوينا السمكة بأحد أفران مخابز الصمون (الروتي)، اجتمعنا أنا وزياد وإياد وضيفه حول صينية معدنية قطرها خمسون سنتيمتراً، تفترشها سمكة مشوية، كأنها لوحة فنية تتوهج بألوان الشفق. كنا في غرفة متواضعة، مساحتها ثلاثة في أربعة أمتار، مفروشة بطنافسة خضراء من النايلون، وبها سرير وخزانة ملابس صينية الصنع.

جلستُ بمواجهة الباب، زياد إلى يساري، ضيف إياد إلى يميني، وإياد قبالتي. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً، جلسنا حول المائدة كوحوش جائعة، نود افتراس السمكة بشيء من الهمجية، أعيننا تحاصرنا من جهة والشواء الذي أزكم أنوفنا وأغرى نفوسنا من جهة أخرى. السمكة تتلألأ بلون النضوج، أطرافها وعظامها في وسطها منغمسة في دكنة شهية، حوافها وذوائبها مسودة بسواد النار، تتراقص فوقها شرائح الطماطم والبصل والفلفل الأخضر، كأنها لوحة سريالية مغنجة بالإثارة، تثير الشغف وتغري المعدة.

استفحلت شهواتنا، وانبثقت أنفاسنا المتلهفة خلف اللهفة، كأنَّ الزمن انتفض من سباته، يحاكي لحظة عشق أزلية بين نواجذ الفم ونداوة اللحم المقدد. كانت هدنة قصيرة تسبق النزال، نترقب بها لحظة صافرة البدء، نكفكف لعابنا، ونمسح أفواهنا بأيدينا، استعداداً للعزف على أوتار النهم.

ما إن أطلقتُ إشارة البدء، حتى تسابقت الأيادي كأنها تعزف سمفونية الجوع على جسد السمكة، لتملأ البطون بلحم

المشـوي، والقلـوب بلـذة الشـبع التـي لا توصـف. امتـزج عبـق الشـواء برائحـة الفلفـل والطمـاطم والبصـل، وانسـكبت الشـطة والليمـون كخمـرٍ يسـكر الحـواس، فـذرفت العيـون دمـوع الاشـتهاء، وخـرت الأنـوف مـن لسـعة الحـرارة. صـار أحـدنا لا يفكر بصاحبه.

سـاد صـمت مهيـب، الكـل انشـغل فـي بطنـه وعينـه فـي تتبـع هبـر السـمكة، بعـد أن كانـت الأحاديـث تـدور حـول السـفر والوجبـات المؤجلـة. ونحـن فـي أوج صـراعنا، فـي ذروة العـزف علـى اللـذة، طـرق البـاب ربتـا خفيفـاً، كـان البـاب مفلجـاً بزاويـة ثلاثـين درجـة تقريبـا. كنـا لازلنـا فـي أول مشـوارنا، لـم تمـضِ سـوى لحظـات علـى بـدء سـباق الوليمـة، توجسـت النفـوس، توقفـت الأيـدي، وارتفعت الرغبة لمعرفة هوية الطارق...

مثلمـا أسـلفت، كنـت جالسـاً عنـد واجهـة بـاب الغرفـة، والكـل دار رقبتـه نحـو البـاب فـور سـماعه طقطقـة الربـت، وكـأنَّ الطـارق بطرقـه قـد قطـع حبـل الوصـل بـين الجـوع والسـمكة. ترقـب الجميع الخبر الآتي بشغف.

فـي تلـك اللحظـة، بعـد أن تراخـت أعصـابنا، وصـرنا نمضـي خلـف بعضـنا وخلـف رائحـة الشـواء، نستحضـر اللحظـة باللحظـة دون إفـراط فـي الـزمن، متعقبـين جوعـاً بـدأ يـنكمش أمـام تطلعنـا... طـرق الأسـتاذ فـالح بـاب الغرفـة، يطلـب حقيبـة سـفره. شـدّ انتباهنـا، وجفـت عيوننـا، وتطـايرت الهـواجس وهـي تصـغي لحديثه الذي سرق منا أجواء المتعة.

قلت له حينها:......

- تفضل يا أستاذ فالح، يا هلا بك، زارتنا البركة. شاركنا العشاء، لا زلنا في بداية المشوار.

فأجاب بأدب، وهو يرجو أخذ حقيبته:...

- شكراً لك يا أستاذ، دام فضلك. أنا في عجلة من أمري، أستأذنك بأخذ حقيبتي إن سمحت.

قلت مستفسراً:.....

- خيراً يا أستاذ فالح، لِمَ تأخذها؟

قال:...

- أتمنى لكم إقامة موفقة وسفراً ميموناً. بإذن الله، هذه الليلة وفي تمام العاشرة والنصف ستقلع طائرتي، وأود أن أصل إلى المطار في الوقت المناسب.

قلت له:.....

- على الخير والبركة، إن شاء الله تصل بالسلامة.. لكن يجب أن تشاركنا العشاء ولو بلقمة واحدة، لتتذكرنا.

ألححت عليه، لكنه اعتذر بأدب لضيق الوقت قائلاً:.....

- أعتذر منك أستاذي الفاضل، سامحني، ليس لدي وقت إضافي يسمح بذلك. يجب أن أكون في المطار قبل الإقلاع بساعتين.

اقترب من الباب، حيث كانت الحقيبة موضوعة بجانبه. مدّ يده بهدوء وسلاسة كما يفعل اللص، أمسك مقبضها وسحبها دون ضوضاء، سلت الحقيبة دون أن يدخل بكامل جسده إلى الغرفة، وكأنها حركة لصٍّ ماهر. فودعته قائلاً:..

- الله معك، تصل بالسلامة، بلغ الأهل السلام.

فردّ:...

- شكراً لك يا طيب.

وما إن انزوى خلف الباب، حتى ضرب زياد راحة يده بقوة على فخذه، قائلاً بصوت عالٍ:....

- آخ... هذا يسافر وأنا أبقى!

قالها بغصة شديدة، ملؤها ألم وحسرة. خرجت الآه من أعماقه، وانطلقت عبارته كالسهم إلى قلب فالح، وكأنّ الصوت لم يُنطق بلسانه، بل من كائن آخر يسكن جوفه. كانت عبارته كعصارة سمٍّ سكبت في كأس الأستاذ فالح، الذي سمعها ملء أذنيه، دون أن يرد، لأدبه.

لكن عيني زياد قدحتا شرراً دون لباقة، وأحرقتا أوراق المسكين قبل أن ينطلق. لقد غالى كثيراً في سلوكه، وتجاوز

قواعـد الأدب والتعامـل بـين الـزملاء. فالحسـد يولّـد البغضـاء، وكلنا لمناه على فعلته القبيحة، فقلت خلفه:.....

- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ صدق الله العظيم. ما بك يا أخي؟ دعه يمضي، لماذا تحرجنا معه؟ ثم إنك إن تأخرت يوماً أو يومين فالأمر سيان، كلها أيام ضائعة، وكلنا راحلون، لم العجلة؟ ثم أنت رجل أعزب، لا ينتظرك أحد في الوطن.

ضحك زياد ضحكة ساذجة ههههه لم نعهدها منه، وقال غير مبالٍ بما حصل:...

- ألا ترى القذارة التي يحملها؟ ألا ترى أساه وجهامة شكله وكآبته؟ أيسافر مثل هذا ونحن ننتظر؟ هههههههه!

انفجرنا ضحكاً معه، حتى وصلت ضحكاتنا إلى أذني فالح، وكأن شيئاً لم يكن. فقلت لزياد مازحاً:...

- والله يا زياد، على حسدك هذا لا أظنه سيسافر الليلة! هههههه.

قال إياد مستهزئاً وهو يشير إلى زياد:

- وعند جهينة الخبر اليقين. هههههههه.

وأضاف الضيف:..

- أظنه فاجأه بقصف عشوائي. هههههه.

قال زياد:....

- مـــااااع... ماااع... ههههههههههه.

ضحك إياد وقال:....

- دعنـا نعـود إلـى السـمكة قبـل أن تهـرب منـا، أمامنـا جولـة طويلة، لقد حضر بغير وقته. هههههه.

تحـول الحـديث إلـى هـزار، أغضـنا بـه زيـاد، احمـر وجهـه خجـلاً، لكنـه لـم يزعـل، وكـأن الأمـر سـيان، قـد تعـود عليـه. بعـدها بـدأنا نتجـاذب أطـراف الحـديث عـن فـالح، والسـفر، والسـمكة التـي لـم يبـقَ منهـا سـوى العظـام تشـهد علـى لـذتها، وعلـى المجاعـة التـي عبـر عليهـا هـؤلاء الشـرذمة. وبـين الجـد والهـزل، صـرنا نقصـف أسلوب زياد، إذ لم يترك لنا فرصة لتوديع فالح بشكل لائق.

فقلت مازحاً:.....

- مسكين اتمنى أن لا تؤثر به عين زياد. هههههه.

قال إياد:.....

- أرجو أن لا تحترق الطائرة به. هههههه.

قال الضيف:....

- يا رب يصل بالسلامة.

قال زياد:.....

- لن أدعه يسافر قبلي. هههههههههه.

قلت له:...

- لِمَ يا زياد؟ ماذا فعل لك؟

قال:....

- كبرت في رأسي، رجلي على رجله. هههههههههه.

ضحكنا خلفه، ثم انزوى كل منا في فراشه، نعيش تلك الأجواء بين الضحك والفرفشة، حتى غلبنا النعاس، ومضى كلٌ منا يتبع خرافة أحلامه.

في صباح اليوم التالي، حوالي السادسة فجراً، سمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتي. فتحت الباب، فإذا بزياد واقفاً يبتسم. قلت له:....

- خيراً يا زياد، ما وراءك من الصبح؟

ضحك قائلاً:

- هههههه، الأستاذ فالح نائم تحت الدرج! وحقيبة سفره بجانبه!هههههه.

قلت بدهشة:.....

هل أنت جاد؟

قال:......

والله، ههههههههههه.

استغربت الموقف، وجلّ أصاب قلبي من غرابته. قلت له:

- أكاد لا أصدق! دعنا نخبر إياد.

قال:....

- تعال وانظر إليه...
- أصبت بالدهشة، وبت أخاف من لسعة عينه الحاسدة. قبل هذا الموقف، لم أكن أؤمن كثيراً بالحسد، ولم أتوقع أن تكون له سهام من نار تحرق الفريسة. لكن بعد هذا الحدث صرت أتحاشاه، أتجنب الاصطدام به، أكتم أسراري وأخباري السارة عنه، وأتوخى الحذر منه. تعلمت منه درساً في المبالاة بأبسط أمور الحياة، وأثبت لي صحة النظرة المأخوذة عليه، فكان كما يقول المثل: "جنت على نفسها براقش".

خرجت مع زياد بهدوء لنخبر إياد، والدهشة مرسومة على وجوهنا، والضحكة محبوسة على أطراف أشداقنا، يشكمها الخجل، لا نستطيع إطلاقها احتراماً لفالح، فالعلاقة بيننا لم تبلغ درجة الألفة بعد.

حيرة صماء كتمت أنفاسنا، دهشة راغت في هواجسنا، طغت على الوجوه، لا نستطيع أن نستكين على نار الصمت، يكبلنا وجل شفيف وخجل واستحياء من ردة فعله، كأنها تنتظر الفرصة المواتية لتنفجر وتنطلق لساحة الفوضى.

حين سمع إياد الخبر، التمعت عيناه بالعجب، رغم وشاح النعاس المسيطر على محياه. كان معروفاً بالأكل المفرط والنوم العميق، وشخيره يكاد يعبر لضفة الجيران. وجدنا ضيفه المسكين صاحياً في فرشته، يفرك عينيه من التعب الموشوم على وجهه، كأنه عوقب تلك الليلة بمشاركته إياد المبيت.

تحركنا نحن الثلاثة إلى مكان مبيت الأستاذ فالح، نمشي بهدوء كشياطين أربكها المفاجأة، نرتدي بجامات النوم، فيما كان إياد يرتدي لباسه البكيني فقط! هذه عادته، لفرط سمنه لا يطيق غطاء جلده.

كان الأستاذ فالح مطروحاً تحت السلم، أشبه بالمغمى عليه، مترنحاً تحت سلطان نوم شبيه باليقظة، متكئاً على عصا النكد، مغشياً بعصف قلق جاح ظنه، مشغول الفكر، مشتت الذهن، كئيب الملامح، تائه، ضائع، يتأمل معجزة تنتشله من نار الهم، مغمض العينين دون أن ينام.

دكنة العناء تغشي ملامحه، يختلف كثيرا عما كان عليه قبل وداعه تماما.

ما إن شعر بوجودنا حتى جفل في مكانه، كأن الشياطين حضرت فوق رأسه، تفاجأ بغارتنا المباغتة، فقلنا له بصوت واحد:...

- صباح الخير يا أستاذ، ألم تقل إنك ذاهب إلى المطار؟ ماذا حصل؟ لماذا أنت هنا؟

كأنّ سؤالنا صفعة أيقظته من غفوته، سرقنا الوسن من عينيه، وجردناه من شروده. اضطرب، وجلس متربعًا على فرشته، والهم يغطي ملامح وجهه، ثم قال:.....

- بلا، ذهبت إلى المطار! لكنني حين وصلت، تفقدت جواز سفري فلم أجده! كأنني نسيته في عجلة التاكسي التي أقلّتني!

وقبل أن يكمل حديثه، انفجرت بالونة الضحك من أفواهنا هههههه، كأن كلماته كانت شوكة غرزت في تلك البالونات، فانطلقت الضحكة من سجنها، أفرج عنها الأستاذ فالح بإشارة ضوء أخضر. اهتزت الجدران من شدتها، وانطلقت كطيور من أيكة الصمت، حرّة، طليقة.

ضحكنا حتى تهاوت طاقتنا، بينما إياد افترش الأرض، مستندًا إلى الجدار، يشهق بضحكته، وكرشه يهتز كالنابض، حتى صرنا نضحك على ضحكه واهتزاز كرشه.

وسط تلك الأجواء، لم أتمالك نفسي، فوجهت اللوم لزياد مازحًا:......

- والله يا فالح، ما منعك من السفر إلا عين زياد التي حسدتك! هههههه

انطلقت صيحات الضحك، وابتسم فالح رغمًا عنه، فأسعفناه بضحكة أقوى، كأننا مسحنا هالة الحزن عن وجهه، فانشرحت أساريره، وشفّ الحزن، وأسفر عن ابتسامة صفراء ملأت شدقيه، ثم قال لزياد:....

- الله يسامحك يا زياد، لم تجد أحدًا غيري لتحسده؟ هههههههه

فرد زياد مازحًا:.....

- رجلي على رجلك، لن تسافر قبلي! هههههه

صارت الضحكة تتبع أختها، كأننا في مسرح كوميدي علني، العبارات تنطلق بعفوية خالصة، دون تخطيط، من الجميع. استمرت تلك الأجواء ساعة كاملة، جلت الهم من صدورنا، كانت رياضة صباحية نشّطت القلب.

حينها أمسكت بمقبض حقيبته لأعيدها إلى غرفتي، وقلت له:

- اِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الحَسُود، فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُه، هههههههههههه... سأحتفظ بحقيبتك حتى موعد سفرك القادم، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، فلا تبالِ، ربما أراد الله لك خيرًا، فقط ابتعد عن حدود زياد! هههههههه

شكرني، والألم يعتصر وجهه رغم ابتسامته المجاملة، ولم يتقطر منه إلا صمت رهيب.

وأخيرًا، تأجلت الرحلة إلى موعد قادم.

لكن همّ الأستاذ فالح لم يكن في تأجيل السفر فحسب، بل في فقدان جواز السفر. فإجراءات استخراج بدل ضائع طويلة، قد تتجاوز ستة أشهر، وتتطلب نشر إعلان في الصحف، وجهدًا ومصاريف إضافية، قبل أن يُسمح له بمراجعة السفارة.

كان متأكدًا من نسيانه الجواز داخل عجلة التاكسي، حين وضعه على "الدشبول" وهو يدفع الأجرة، فرحته بالسفر واستعجاله أربكاه، ولعنة زياد لاحقته، أراد الهرب منه فتعثر به.

تكمن مشكلة فالح في أنه لا يعرف رقم عجلة التاكسي التي أوصلته، مما جعله يعيش قلقًا مضاعفًا. فقد يكون سائق التاكسي من أولئك الذين لا يبالون، أو ربما جاهلًا لا يدرك أهمية الجواز، أو ساهيًا لم ينتبه له، فيضيع الجواز وتضيع معه أحلامه. وقد يكون طيب القلب، يبحث عن صاحبه، أو خبيثًا لعوبًا ينوي بيعه والاستفادة منه... كل الاحتمالات واردة.

لذا، ساعدته بالصبر والتأني، واقترحت عليه أن يذهب إلى السفارة العراقية ليستفسر قبل اتخاذ أي إجراء، حتى لا تتعقد الأمور وتلتف خيوط الشبكة حول عنقه. وإذا لم يجده هناك، يمكنه أن يسأل شرطة المرور أو مصلحة سيارات الأجرة الخاصة بخط المطار.

قال إياد معقبًا:....

أفرض لم يجد الجواز في السفارة ولا المرور ساعده... ماذا يفعل؟

أجبته مازحًا:.....

- ينصب خيمة عزاء أمام السفارة ويجلس! ههههههه.
فعقب زياد:
- يحتاج جماعة يلطمون وياه، المشكلة يأخروه للسنة القادمة، وعقده منتهي! هههههههه.

وفعلًا، أخذ بنصيحتي وتوجه إلى السفارة، وهناك وجد جواز سفره ينتظره في الاستعلامات، فانفرجت الأزمة.

لكن المسكين أصبح حديث الشارع، وزياد لم يرحمه، جعله هدفًا لسخريته، وأطلق عليه سهامه بقوة البعد الثالث الكامنة في عينيه.

مرت الأيام، وأُدرج اسم الأستاذ فالح ضمن الوجبة الجديدة المعدة للسفر، رأفةً بما أصابه من صدمة نفسية. تم إبلاغه بموعد الرحلة: ليلة الأربعاء الساعة العاشرة مساءً، حيث كانت الرحلات تُسيّر يومي السبت والأربعاء.

في مساء الأربعاء، وبعد جولتنا في شوارع صنعاء، خاصة شارع جمال وباب اليمن، عدنا متأخرين. طرق فالح باب غرفتي ليأخذ حقيبته استعدادًا للسفر. بدا وكأنه يريد التملص من أنظار زياد، لكننا كنا نعرف موعد رحلته من قائمة

الأسـماء المعروضــة علــى جـدران وزارة التربيــة، فودعنــاه بشـكل عادي، متمنين له سلامة الوصول.

فــي فجــر اليــوم التــالي، ومــع زقزقــة العصـــافير النــادرة بســبب ارتفــاع صـنعاء عــن سـطح البحــر، جلســت علــى صــوت قهقهــة زياد العالية. فتحت الباب وسألته:...

- خيــر يــا زيــاد... مــا بــك؟ لمــاذا تضــحك؟ قــال بصــوت مبحـــوح، والـــدمع يترقـــرق فـــي عينيـــه، مشـــيرًا إلـــى السلم:...
- أنظر... فالح نائم تحت الدرج!!

ضـحكت لا إراديًـا، وانفجـرت القهقهـات. فـتح إيـاد بـاب غرفتـه، مرتــديًا لباســه البكينـــي المعتـــاد، ومـــا إن رأى فـــالح حتـــى غـــص بضـحكة نـادرة، يهتـز ويـرتعش كمـن صُـدم بالكهربـاء. اسـتند إلـى الجــدار، وكرشـــه يهتـــز كطشـــت مـــاء، كـــاد يختنـــق مـــن شـــدة الضـــحك. جلســـنا علـــى الأرض، مفترشـــينها، ممـــددين الأرجـــل، نضحك حتى فرغنا من الطاقة.

بعــد أن هــدأت العاصــفة، توجهنــا إلــى فــالح نستفســر عــن ســبب وجــوده. مــن الطبيعــي أنــه لــم يــنم تلــك الليلــة، فقــد جهــز نفســه للسـفر، وذهـب إلـى المطـار قبـل الموعـد بسـاعتين، وانتظـر بعـد الإقــلاع ينــاقش مصــيره. لكـن المشـكلة الجديـدة لـم تكـن الجـواز، بل صفعة أخرى فاقت التوقعات.

عيناه واجفتان، حائرتان، يتقلب في فراشه كأصحاب الكهف، دون أن ترقد عينه لحظة واحدة. الصدمة كانت أكبر من أن تُحتمل، ولا يملك عصا موسى لتغيير مجرى الأحداث.

لقد آمن بالله، وبالنصيب، وبقلة الحظ، لكنه لم يؤمن بعقدة السفر التي لازمته كظلٍ لا يفارقه. تعمقت في ذاته عقدة الحسد، وجعلت من صبره فيضًا لا ينضب. في المرة الأولى، ظن أن تخلفه عن السفر كان نتيجة خطأ ارتكبه بنفسه، لكن حين تكررت الحادثة، تيقن أن للحسد يدًا في منعه، وأن ما حدث لم يكن صدفة ولا عبثًا، بل عين زياد تلاعبت بنصيب الفرصة، أحرقت جدول خططه، وألقته في دوامة من الهم والتخبط، دون أن يرفق به الحظ.

لم تسلم محاولتاه السابقتان، فهل ستنجو الثالثة؟ وهل تمنحه اللجنة المنظمة فرصة أخرى؟

سألناه بشغف: ـ

- بالله يا أستاذ فالح، ماذا حصل في المرة الثانية؟ ولماذا نائم هنا؟....

أجابنا منهكًا، يكاد الدمع يتفجر من عينيه، والحزن يقطر من غضبه: ـ

- كنت واقفًا في طابور المسافرين، ننتظر دخول الطائرة، فجأة حضر وفد رئاسي يمني متجه إلى

الأردن لأمــر طــارئ، فحجــزوا آخــر 25 مقعـــدًا، وتأجلت رحلتنا، وكنت من بينهم...

حينهــا انفجــرت ضــحكاتنا، ههههههــه، خرجــت مــن أعماقنــا كأنهــا بلونــة انفجــرت فــي وجــه الــدراما، وانــدفعنا نحــو الهــزل والســخرية دون إرادة. بعــد المحــاولتين الفاشــلتين، كنــا قــد رفعنــا الكلفة، واندمجنا كأننا أصدقاء منذ زمن.

ضــحكنا حتــى ســكرنا مــن المــرح، ســكارى ومــا هــم بســكارى، ولكــن الظــرف جنــى علــى فــالح، فصــار كــل منــا يجــر نفســه نحــو الاتــزان دون جــدوى. نســجنا النكــات والقصــص دون أن نراعــي الحــزن الموشــح فــي وجهــه، فالغربــة قاتلــة إن لــم تدعســها بالضحك تقتلك.

قلت له مازحًا: –

- يــا أســتاذ فــالح، لقــد قصــرت فــي دفــع الــبلاء، كــان عليــك إخــراج كفــارة العــين الحاســدة... الحســد يــلازم صــاحبه أربعين يومًـا، وأنـت لـم تكمـل أسـبوعًا! يبـدو أنـك سـتخيس في صنعاء حتى نهاية العطلة. ههههههه.

ضحك معنا ضحكته الباردة، ونظر إلى زياد بعين شزراء: –

- الله يســتر يــا زيــاد، اتركنــي بحــالي، أرحمنــي يرحمــك الله... هههههههه.

فرد زياد: –

- كم تدفع لي لأكف عنك وأدعك تسافر؟ هههههه.

أجابه إياد: –

- ما يكفي إطعام 60 مسكينًا حسب الشرع. هههه.

فقال زياد ساخرًا: –

- دعه يطعم نفسه أولًا! هههههه.

ضحكنا حتى خارت قوانا، وسجلنا يومًا لا يُنسى في سفر العمر. جلسنا نفطر معًا، نتداول القصص، نحاول فك عقدة فالح، ونتنبأ بما سيحدث في الرحلة القادمة.

قال إياد: –

- أكيد هناك تأجيل آخر ينتظره. هههههه.

فرد فالح: –

- فأل الله ولا فألك، ألا يكفي ما جرى؟

قلت: –

- بمَ تفكر يا إياد؟
- قال: – لازلنا في الأسبوع الأول من الحسد، وأكيد هناك مفاجأة أخرى! ماذا تقول يا زياد؟

- قال زياد: – بعد أن شهرته في اليمن، سأشهره في الوطن العربي والعالم، ليدخل موسوعة جينيس! هههههه.

قلت لفالح: –

- دعني ألتقط صورة تذكارية معك، فإذا اشتهرت، سأشتهر معك! الصحافة ستهتم بنا كأصدقاء المشاهير. هههههه.

قال إياد: –

- رأيي أننا جميعًا سندخل موسوعة جينيس، هناك جائزة من شركة الطيران لمن يتأخر ثلاث مرات دون إرادته، سأجرح نفسي وأشكيه للشرطة ليلة السفر، ونقتسم الجائزة اربعتنا. هههههه.

قلت له: –

- بايخة يا إياد، سيعتقلونه لأنه يدخل المطار يوميًا دون أن يسافر. هههههه.

قال فالح: –

- أعوذ بالله من أفكاركم السوداء. هههههه.

قال زياد: –

- لا هـذا ولا ذاك، سيضـرب المطـار زلـزال يمنـع إقـلاع الطائرات إلى أجل غير مسمى. هههههه.

رد فالح بامتعاض: –

- دخيلك يا زيـاد، كلامـك سـم، أخـاف مـن توقعاتـك، ومـن عينك ولسانك. هههههه.

قلـت لـه: – لا تهـتم يـا فـالح، هـذه المـرة سـيدعو لـك بسـلامة الوصول.

قال زياد: –

- هههههـه، لا والله، لـن أدعـه يسـافر قبلـي، رجلـي علـى رجله. هههههه.

كـان فصـلًا ممتعًـا، نشّـط الـدورة الدمويـة، وكسـر رتابـة الأيـام، وترك في القلب ذكرى لا تُنسى.

\\\\\\\\

حقيقـة مـا جـرى للأسـتاذ فـالح فـاق حـدود الخيـال، لا يُصـدق، بـل كأننـا بتنـا نـرى بـأم أعيننـا أحـداثًا مـن نسـج الأسـاطير، تصـب فـي جحـره دون رحمـة، لـم تخطـر لنـا علـى بـال. لقد جـرّه الحسـد إلـى عـالم التحنـيط، فأضـحى فـي واقعـه كموميـاء ممـددة تحـت السـلم، مكبّل بالبؤس والكآبة.

مضـــت الأيـــام متســـارعة، ونحـــن نســـتذكر الموقـــف، نؤلـــف القصـص والطرائـف حولـه، حتـى صـار موضـوع سـفره الشـغل الشـــاغل لحـــديث الشـــارع. قصـــة نـــادرة، طريفـــة، مســـتحيلة التكـرار، لا تجـد لهـا مثـيلًا حتـى فـي أغـرب حكايـات الخيـال، ولا فـي "ألـف ليلـة وليلـة". واقـع مـؤلم، نكـد متتـابع، وتسلسـل أحـداث يجعـل لهـا نكهـة أشـبه بالأكـل الهنـدي الملـون، مـن بهـارات وكـركم وزعفـران وفلفـل وبصـل، نكهـة حـارة لاذعـة، وكـأن القصـة لـم تنتـهِ بعـد، بـل لهـا بقيـة، وقـائع أخـرى لا تقـل مفاجـأة عمـا سـبق. صـرنا ننتظـر نهايـة قصـة فـالح بشـغف، نترقـب مـا ستسـفر عنـه الأيام القادمة.

فالأقـدار أحيانًـا ترسـم لنـا مسـارات الحيـاة، وأحيانًـا تلازمنـا بعسـرٍ همـيم، تلـف حبـال اليـأس والعقـد حـول الأعنـاق. فالمسـكين فـالح، لم يخطُ خطوة إلا والعسر يكبّل ساقيه.

أمـا نحـن، فلـم نصـدق مـا حـدث، تشـبثنا بالعقـد، ونشـرنا الوقـائع علـى نطـاق واسـع بـين معارفنـا فـي صـنعاء، وهـم بـدورهم تـداولوا الخبـر كمـا تفعـل العجـائز النمّامـات. طرقنـا قصـته فـي مقـاهي المدينـــة مـــن بـــاب الفكاهـــة لا التشـــهير، تلـــك المقـــاهي التـــي تُعـد ملتقى للأغراب والمدرسين، ومرفأً لتداول الأخبار الطازجة.

كنــا ننتظــر دوره، وبتنــا نترقــب اســمه فــي قائمــة المســافرين علــى جـدار مديريـة التربيـة. كلنـا فـي شـوق لمعرفـة مصـيره فـي الرحلـة القادمـة. هـل سـتتجدد المغـامرة؟ هـل سـينجو مـن عـين زيـاد التـي أقسم ألا يدعه يسافر قبله؟ كنا ننتظر الموقف القادم بشغف.

وحين نُشرت أسماء الوجبة الجديدة للرحلة، وجدت اسمي إلى جانب اسم الأستاذ فالح ضمن القائمة المصرّح لها بالسفر. إدراج اسمه جاء بأمر من إدارة المطار، بعد أن اشتهر بين الملأ بسوء الطالع.

تحدد موعد السفر في تمام الخامسة مساءً من يوم السبت، غير أن الرحلة تأخرت كثيرًا، ولم تُقلع الطائرة إلا عند الخامسة صباحًا من اليوم التالي. بقينا ننتظر اثنتي عشرة ساعة كاملة، حيث شُحنت الطائرة في تلك الليلة بأطنان من السمك إلى الأردن.

كنت واقفًا وسط طابور طويل، فيما كان الأستاذ فالح يقف خلفي، متذيّلًا الطابور. أميّزه من بعيد، بطوله الفارع، وسمرة بشرته البرونزية. سألت نفسي وأنا أنظر إليه: لماذا لا يخالف تسلسل الطابور؟ ألا يتّعظ مما جرى له في الرحلات السابقة؟

لكنه لا يستطيع مخالفة القواعد، لأدبه، لورعه، لأخلاقه العالية. لن يتجرأ على تجاوز النظام، فالتربية والوازع الديني يمنعانه من ارتكاب الخطأ. إنه محصّن بتقاليد وأعراف ومبادئ قبلية جليلة.

صعدت إلى الطائرة، من نوع بوينغ 737، وجلست في الجزء الأمامي حسب رقم تذكرتي. كنت حريصًا على تتبع الداخلين، أبحث عن الأستاذ فالح... أغلق باب الطائرة ولم ألحظ صعوده. انتابني ريبٌ من حجزه مرة أخرى، فصرت ألوم

زياد على عينه الحاسدة، تلك التي تنطق بما تفيض به نفسه المريضة، وكأنها لا تشعر إلا بالنقص تجاه الآخرين.

صرت أتساءل عن تأثير "البُعد الثالث" في لغز العين؟ وبعد المناظرة والتفسير، وتكرار تأجيل رحلة فالح الدراماتيكية، تيقنت تمامًا من شر عين الحسود. "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ"

بتّ أُحادث نفسي وأجيبها: كيف ستكون حالته النفسية حين يُبلّغ بتأجيل رحلته الثالثة؟ أكيد سينهار، فقد تجاوز مرحلة الصدمة والتكرار، ودخل مرحلة العذاب النفسي. حالته مجروحة، لا تُرمم، بعد ما لحق به من تأجيلات متكررة، تلك التي جزلت شوقه للسفر. كيف سيتخطى أزمته الجديدة؟ صرت أفكر بحظه العاثر، والنحس الذي لازمه.

على أية حال، وصلت الديار، ووصل من بعدي بأسبوع كل من زياد وإياد. وقد حدّثني زياد عن حجز الأستاذ فالح، وثلاثين آخرين، بسبب شحنة الأسماك الكبيرة المصدّرة للأردن، لينتظر رحلته الرابعة...

قال زياد وهو يصف حالته: –

- لقد انهار نفسيًا، صار عصبي المزاج، لم نستطع أن نقيم حفلة ضحك بوجوده. أصابه يأس شديد، وقرر أن تكون محاولته القادمة هي الأخيرة، وإن تعسّرت، سيعزف عن السفر نهائيًا. صار يتجنبني، يتهرب من

لقـائي، زعـل منــي ولـم يعـد يتحـدث معــي، فتـرت العلاقـة بيننا.

لكنّــه أخيــرًا نجــح فــي تخطــي فشــله فــي الرحلــة الرابعــة، برفقــة زياد وإياد، كما قال له زياد :...

- لن أسمح لك بالسفر قبلي، رجلي على رجلك.

وبعد عناء وضيم، فكّ قيده، وبطلت تلك العين الحاسدة.

10- مدن دافئة

مع بزوغ شمس يوم جديد، وهي تفرش بساط حنينها على أديم الأرض، اجتاحت هواجسي أطياف شتى، رفقها عبقٍ منداحٍ من ثغر الزهور البهيجة، ترشق موجات الكرى في أجفاني بنفحاتٍ من ضوعها الزاكي. تلك اللحظة اشتطت بخاطري عن سيل الأرق، وأضفت على شاطئ الذهن ملأى من السعادة، غزلتها من وحي الصبح البشوش.

نهضت متثائبًا، العياء يغز أوصالي، فيما رونقي وزهوي يخامراني، ينعكسان في المقل. وأنا أنهض، هجست بذاتي كعربةٍ تجر خلفها جسدًا أجدب، مثقلًا بالكسل، نحو شرفة الدار، لألقي نظرة على وجه الصبح الجديد، كما اعتدت أن أشرك ذاتي في مهرجان الورود البهيجة خلال فصل الربيع.

أعددت نفسي ملاحظًا، مستمتعًا، متشوقًا لتلك المجاميع من الزهور المسترسلة ألوانها، القابعة تحت ظلال أشجار باسقة، نضرة. أطنبت أذني بزقزقة العصافير وتغاريد البلابل المسرة، وأشفقت نظري بتنهدات قوس قزح تلك الزنابق المشتعلة بهجةً وراء، وهي تغازل خيوط الشمس المستطيرة.

وخلال استرسالي في تلك الأجواء المبتهجة، لفتت انتباهي حمامتان تتحاوران همسًا كحبيبين! لم أألفهما من قبل، تهدلان بشغف وسط الحديقة، في ظل تآزرٍ ملفتٍ للنظر، مجتمعتين على نهر الود، في جذوةٍ تمتد لضفاف الحب والرجاء.

كانـت إحـداهما بيضـاء اللـون، ذات منقـار أحمـر صـغير كحبـة الـرز، يكسـو قـدميها ريـش كأجنحـة الفراشـة، تـوحي بأنهـا قادمـة مـن بـلاد الـثلج البـاردة. أمـا الأخـرى، فزنجيـة اللـون، ذات منقـار أسـمر داكـن طويـل، وقـدمين أملسـين، تعتلـي رأسـها قلنسـوة بيضـاء براقـة، تحمـل فـي كيانهـا أوصـاف الشـمس المحرقـة، وكأنها قادمة من بلاد الشمس الحارة.

أطرقتُ السمع إليهمـا، مصـغيًا لمـا دار بـين الحمـامتين مـن حـديثٍ عجـب، أغـدقت كـلٌ منهمـا بأسـرار قـدومها إلـى الأخـرى، فاستمتعت بقصـص خـلاف وتنـاقض شـجية، اسـتلذذت بهـا، كـأنني أقرأ فصولًا من روايةٍ لا تُروى إلا في حضرة الطبيعة.

قالت البيضاء:...

هجـرتُ بـلاد الثلـوج، حيـث الصـقيع يـروج بـين القـيم، فتتجمـد المبـادئ وتُعقـص الـنِعم. عواصـف هوجـاء لا تبقـي ولا تـذر، اجتاحـت سُـنن الأعـراف والشـرائع، اسـتباحت الأمـان، زلزلـت النفـوس، وعصـفت بالميـادين. تسـلل الفقـر إلـى المـدن، طـاف الأزقـة، جـاش فـي العيـون، لاك النفـوس والأهـواء، عـسَّ بـين الأضـواء، دس رعشـة الخـوف والجنـون فـي قلـوب الطيـر والبشـر. غـدا البيـت بـلا سـقف، بـلا سـماء، بـلا دفء. احـتكم الـدخلاء واللصـوص بمقـدرات الشـعب، فافتُعلـت الأزمـات، وانتشـر الكـرب، وانحـدرت الحيـاة. طغـى الظلـم، وتعـددت الغايـات، صـارت الأقـدار أحجيـة تُـدار بـأهواء المتسـلطين وثلـة مـن اللصـوص والشـياطين. لا مسـتقبل يُـرى، ولا أمـل يُرتجـى. الفكـر يتـأوه فـي قعـر الظـن، والشـخوص عـاجزة، مركونـة

كالحجـــارة المؤذيـــة فـــي قارعـــة الطريـــق. لا كرنفـــالات، لا طقـوس، لا مواسـم حـب. البلـد صـرّة منسـية، لا أحـد يهـتم، ولا أحـد يـرمم دسـتوره. أحـلام المسـاكين تبعثـرت، صـارت شراشـير ذاكـرة تلهـو بهـا الـريح. حيـاة جـرداء، بـلا رجـاء، بـلا صـفاء. الشـــرف مكبـــول، الحيـــاء نضـــب، المشـــاعر متجمـــدة، الرحمـــة مهلهلـة، والنفـوس تـرتعش تحـت ظـل سياسـة التقتيـر، بـلا مقيـاس، بـــلا احتـــرام. وخوفًـــا مـــن المصـــير المجهـــول، هربـــتُ مـــن ظلـــم الفلول.

قالت الزنجية:.....

ربمـا كانـت الحيـاة عنـدكم أيسـر، لكننـي رأيـت القسـر والمـرار. بلـدي مركـون فـوق كـوة مـن نـار، مثقـل بـالغموض، غـارق فـي الأسـرار. الظلـم سـائد، والحكـم مجـارٌ زائـف. رغـم الخيـر الـوفير، والـــرزق الميســـر، والكـــلأ المفـــروش كـــالحرير، نعـــيش عيشـــة التعسـاء. حيـاة مريضـة، تزحـف خلـف الرجـاء، بـلا مـورد، بـلا رخـــاء. الأطيـــاف ترتعـــد، البـــأس طـــاغٍ، الحريـــة مهلهلـــة، الفكـــر محجـــور، والنفـــوس مغشـــية بجريـــرة الكـــأس. الظـــن الســـيء مكنـــون، الخـــوف منتشـــر كالعشـــب، الأحـــزان عائمـــة، الأفكـــار طيـور مهـاجرة، السـعادة سـراب. بلـد يمضـي بـلا أمـن، بـلا اقتنـاع. إن انتقـدت، اقتـدت للسـجون. وإن سـكت، مـتَّ فـي الـديون. وخوفًـا من أن يبلعني الإعصار، هجرتُ الأهل والأخيار.

قالت البيضاء:....

مذلــة سـلب الحريــة لا تــداني مذلــة الجــوع والحرمــان. إذا سُــلب الفكــر جهــرة، يمكــن ممارســته فــي الخفــاء، بعيــدًا عــن أنظــار المغرضـين. لكـن إن سُـلبت الـروح، تتوقـف الحيـاة. الجـوع وحـش مفتــرس، لا تصــمد أمامــه المبــادئ ولا الضــمائر. فقطــع الأعنــاق أهـون مـن قطـع الأرزاق. وخوفًـا مـن أن يقيـدني الـزمن فـي سـجن الحرمان، أطلقتُ لجناحي العنان.

قالت الزنجية:.....

الفقــر قنطــرة صــغيرة، يمكــن عبورهــا مــع الــزمن. البــؤس غيــوم صــيف كذابــة، تنقشــع مــع بــزوغ الشــمس. لكــن المشــاعر المهانــة، لهــا وقــعٌ علــى صــفاء الــذهن واســتقرار النفــوس. إذا جُــرِّد المخلــوق مــن عقلــه، صــار هــيكلًا بــلا ســحر، بــلا نــور، كالمصــابيح المطفــأة. وإن جُــرِّدت الحريــة مــن الــذات، تعقــدت صــيغ الحيــاة. فــلا خيــر فــي روح تشــقى فــي العــدم. لــذا، قــررت أن أعــيش ملكًــا، بعيــدًا عــن الغِلّ وإذلال القيم.

البيضاء:.....

سأروي لك قصة مما رأيت، تفتقر إلى الشفقة والرأفة...

حــلّ بيننــا رجــل غريــب، غريــب فــي طباعــه وكرمــه، لكنــه أصــيل فــي نسـبه وانتمائـه. عـاد إلـى وطنـه بعـد غربـة طويلـة، وقـد اشـتعل فيــه الحنــين، فــأنفق جــلّ مــا يملــك علــى المدينــة. كــان ميســور الحــال، يخلــق فــرص العمــل مــن العــدم، اشــترى بيتًــا مرموقًــا وســيارة فارهــة، اســتثمر أموالــه فــي مشــاريع تخــدم المجتمــع. فرش أحلامه أمام أعين الحاسدين دون أن يدري.

استقر في ذاته، لكنه لم يستقر في فكره. تفقد من حوله ولم يتفقد أثر خطاه. ساعد الفقير والضعيف، ولم يدرك نزق الأحمق والحاسد والسخيف. أراد الخير للجميع، لكنهم أرادوا النكال به وسلب ماله، فقد رأوه كنزًا لا يُعوّض.

وذات صباح، وهو في طريقه إلى عمله، أقلّ رجلًا يبدو معتوهًا في سيارته، بدافع الرحمة والإنسانية. كانت هيئته توحي بالمسكنة، لكنه كان يخفي تحت جلده خبثًا دفينًا. لم يكن معتوهًا ولا مسكينًا، بل لصًا ماكرًا من العابثين.

لم تعد للإنسانية جذور في المجتمع، وإن ظهرت، فهي غالبًا في غير محلها. السطو صار من شعائر الناس، والعقد النفسية أصبحت مفخرة، والعادات السيئة ترسخت كأنها تقاليد.

كان المعتوه بارعًا في تمثيل دور المسكين، فخدع الغريب بمهارة. أخرج رزمة نقود مزورة، وبدأ يرميها من نافذة السيارة وهو يضحك ضحكة هستيرية، ينظر إلى الغريب بازدراء، بينما الغريب ينظر إليه بعين الشفقة، محاولًا ثنيه عن سلوكه دون جدوى.

تمادى المعتوه، وزاد من قيمة الأوراق المرمية، حتى استحوذ على مشاعر الرجل الطيب، الذي أدرك حينها أن طيبته أعمت بصيرته. امتلأت عيناه بدموع الأسى، وحين رمى المعتوه الرزمة كاملة، أوقف الرجل سيارته ليجمعها، غير مدرك أنها مزورة.

وما إن ترجل من سيارته، حتى تحول المعتوه مكانه وانطلق بالعجلة إلى جهة مجهولة، تاركًا الرجل الطيب في ذهول، يتابع بعينيه أثر العجلات حتى تلاشت.

خارت قواه، واحترقت أحلامه، وتقطعت به السبل. صار يمشي خلف أوهام، متكئًا على عصا أفكاره الهشة. كانت تلك بداية الانهيار، حيث بدأت الآمال تزحف نحو حتفها.

استحضر حساباته، وندم على غفلته. فالسلطات لا تعنيها الأمان، والرشوة سائدة، والفصل خريف دائم، والسرقة وظيفة يمتهنها الكثير.

وبعد ليلتين، رنّ هاتفه، أخبره فاعل خير عن مكان سيارته. تفاءل، وحزم أمره، وغاص في المجهول بحثًا عنها، لكنه حين عاد وهو مثقلًا بالهموم، خائبًا، منزوِيًا في جحر أحزانه. فوجئ بسرقة أثاث بيته بالكامل. تفاقمت أحزانه، وتحول قصره إلى كوخ أشباح. وبعد أن ذاق الويل، عزم على الرحيل من حيث أتى.

الزنجية:

ما رأيتِه لا يُقارن بما سمعتُه من قصص أشد قبحًا. عرفتُ رجلًا متزنًا، وقورًا، حكيمًا، يصغي له الجميع، يجير الضعفاء، يرشد الأقوياء، يشارك الفقراء أفراحهم وأتراحهم، ويعمل في الخفاء بعيدًا عن أعوان الحكم الجائر. لم يكن غنيًا، لكنه كان فقيهًا من المزارعين، يبذر سحره بين الناس،

ويترقب حصاده. صار في نظرهم صومعة يُؤمّ إليها الناس، ولحنًا يطرب الأرواح، وسيفًا بين العصي.

لكن الحسد حين يتفشى، يحرق الأخضر واليابس. وشى به أحد الفاسدين إلى الحاكم الظالم، فاستُدعي إلى البلاط بتهمة التطاول. اتُهم بالخيانة، وكاد يُعدم لولا تدخل المستشار، الذي اقترح منحه فرصة للدفاع، درءًا لفتنة الشعب.

قال له الحاكم:

"مثلما تدخلت في ما لا يعنيك، ستلقى ما لا يرضيك. لن تمخر عباب البحر دون إذني، وإلا سيجرفك التيار إلى الهاوية."

ثم سلمه خروفًا هزيلًا، وأمره بإعادته بعد شهر على أن يزيد وزنه حبة خردل، وإلا فمصيره حد السيف.

أراد الحاكم أن يغلق باب النجاة، لكن الحكيم أدرك النوايا، فالتزم الصمت، واستنبط فكرة من كيدهم ليجعلها سلّمًا للنجاة.

مرت الأيام والأسابيع، ولم يزد وزن الخروف. تعجب الناس، ونسجوا حوله الأساطير. بعضهم قال إنه ملك، وآخرون قالوا ساحر، وغيرهم نسب الأمر لعدالة السماء.

استشاط الحاكم غضبًا، ودعاه لتفسير الأمر. فقال الحكيم:

"كنت أربط ذئبًا جائعًا أمام الخروف كل ليلة، فيدب الرعب في أوصاله، فيسهر مرعوبًا، ويهضم ما يأكل نهارًا، فلا يسمن."

بهذه الحيلة نجا من كيد الظلم، لكنه نُفي إلى جزيرة نائية، وترك أثرًا بليغًا في المجتمع، حتى صار الناس يتبعون أثره.

كنا نعيش عيشة الخروف: نأكل ولا نسمن، نحيا بلا تأمل، نكره بلا حب، نحلم بلا جرأة. نتستر بالخوف، والحياة تلسعنا كلما اقتربنا من العسل، فلا نلمس ظل أحلامنا. شهقت البيضاء ثم قالت:...

- حسبنا الله ونعم الوكيل، ذاك هرب وذاك نفي، والأثنان شاقهما بلاء الوطن، إذا حسنا فعلنا في تبديل ثيابنا، لا بد من تغيير نمط العيش كي ننتشي بلذة الحياة، لا بد من حركة تغنينا بالأمل. نحن ألآن نلتمس جزء مما كنا نحلم به في ربوع هذا البلد الدافئ، النخل باسق والثمار طازجة، والمدن عامرة، والأمان سائد. كل شيء سهل المنال، والحياة مستقرة، هانئة، هادئة.
- جمعتنا الإرادة بغير ميعاد، برفقتكِ سأعشق الحياة.

رفرفت البيضاء فرحة جذلى محلقة في أفق السماء، تبعتها الحمامة الزنجية بامتنان وحب وهيام، عندها حمدت الله على نعمة هذا البلد الدافئ.

11- صراط القلوب

منذ نعومة أظافره، تربّى على مبدأ العفّة والفضيلة ونكران الذات، حتى غدت تلك السمات الرقيقة ركائز متينة في بنيان شخصيته. أدّبه القرآن قبل أن تؤدّبه يد الأب والمدرسة، فنهل من آياته ثروة من الحكم والعبر، واكتنز من بحره ما لذّ وطاب، فرفد فكره بالأسس والقواعد، واتخذ منه منهلًا لا ينضب، به رسّ عقله، وثبّت قلبه.

منذ صغره، حفظ أجزاء كاملة من القرآن، وتعلّم أصول الفقه والتوحيد والسنة المحمدية، فغدا في تكوينه الشخصي نابغًا يقارع الجهل والجهلاء. وفي مراحل نموه، كان يعدّ نفسه فارسًا همامًا، يحقق حلم أبيه، ويجسّد المثل العليا في الأدب والسلوك والتصرف، كما أراد له والده، بل وزيادة.

لقد حرص والده على غرس مبادئ التربية الصحيحة في ذهنه منذ نعومة أظافره، فبذر في نفسه المثل العليا والقيم الرفيعة، لتمنحه مراتب الكمال، وتغرس فيه الثقة بالنفس. كانت تلك المثل بمثابة طاقة ثابتة ترفد شخصيته، وقناديل نيرة تسطع في ذهنه، وتبرز هيبته في مجتمعه.

ولوالده فضل كبير في غرس بذور الفضيلة، التي أثمرت في شخصيته صفات الإيثار والوجاهة والعفّة. انصبّ اهتمامه على التربية الإيمانية، والخلقية، والعقلية، والبدنية، والنفسية، كما أولى الجانب الاجتماعي والوطني عناية خاصة، ليحصّنه من المخاطر الداخلية والخارجية.

كـان يـدرك أن الطفـل انعكـاس لأبيـه، وأن صـورة الابـن هـي نسخة مـن أخـلاق وأدب والـده أمـام المجتمـع، مـع رتـوش تضـفي علـى شخصـيته بريقًـا خاصًـا فـي مسـيرة حياتـه. أوصـاه بـالتقوى وحسـن الأدب والمـآب، كمـا قـال العـالم الجليـل رويـم لابنـه: "يـا بنـي، اجعـل عملـك ملحًـا، وأدبـك دقيقًـا." أي: لـيكن الأدب كثيـرًا والعمـل قلـيلًا، كمـا يُضـاف الـدقيق إلـى الملـح فـي عجينـة الخبـز. فـالأدب الكثيـر مـع العمـل القليـل خيـر مـن العمـل الكثيـر مـع قلـة الأدب.

أراده أن يكـون مثاليًـا فـي سـلوكه، يفتخـر بـه، وقـد تحقـق لـه مـا أراد. تربّـى علـى ديـدن الصـدق، مبتعـدًا عـن الكـذب والغـش والتصـنّع والإباحيـة والتبـذير. غـذّى ذهنـه بخصـال المكـرّمين مـن الأوليـاء والصـحابة، وحصّـن فكـره بأحاديـث الرسـول ﷺ، وبكـم هائـل مـن العبـر والقصـص المسـتقاة مـن وحـي القـرآن والتـراث، لتكـون لـه أسـلحة يتفـادى بهـا مهـاوي الخطـأ، ومزالـق الـدنيا المفاجئة.

وعلـى سبيل المثـال، كلما هـمّ بالكـذب، ولـو كانـت كذبـة بيضـاء، تـذكّر قصـة أحـد علمـاء الحـديث، الـذي انتقـل مـن مدينـة الرسـول ﷺ إلـى البصـرة ليأخـذ حـديثًا عـن رجـل قيـل إنـه سـمعه مـن رسـول الله ﷺ. وبعـد أن قطـع المسـافة الطويلـة أيامًـا وليـالي، وصـل إلـى الرجـل، فـرآه يـوهم فرسـه الجائعـة بـأن فـي ثوبـه طعامًـا، حتـى أقبلـت عليـه الفـرس لاهثـة. فلمـا رآه يكـذب علـى فرسـه، عـاد أدراجـه دون أن يسـأله، وقـال فـي نفسـه: "والـذي بيـده الملـك، مـن يكذب على فرس بريئة، ليس أمينًا على حديث رسول الله ﷺ."

أكمـل محمد دراسـته الثانويـة بنجـاح، ثـم تقـدم لإحـدى الجامعـات الأمريكيـة، متـأثرًا بصـديقه عـادل الـذي سـبقه إليهـا قبـل عـامين، وكـان لـه دور كبيـر فـي تشـجيعه علـى الالتحـاق بهـا. تـم قبولـه فـي كليـة الهندسـة المعماريـة، ليبـدأ بـذلك مشـوار حيـاة جديـدة، غريبـة فـي أسـلوبها وسـلوكها وفكرهـا، لكنهـا كانـت بالنسـبة لـه فرصـة لتحقيـق طموحـه العلمـي، بمـا يتوافـق مـع ميولـه ويخـدم ذاتـه ووطنه.

كـان يـدرك أن هـذه التجربـة سـتمنحه مهـارات ثقافيـة ولغويـة، وتفـتح لـه آفاقًـا أوسـع فـي فهـم العـالم، خاصـة وأن معرفتـه السـابقة كانـت محصـورة بمـا يـرد عبـر شاشـة التلفـاز والصـحف اليوميـة. أراد أن يخــرج مــن روتــين الحيــاة، ويكتشــف معــالم العــالم الخارجي الذي بدا له كأنه لغز محير.

ومــن الطبيعــي أن تكــون الدراســة فــي الجامعــات الأمريكيــة مختلطـة بـين الجنسـين، لكـن محمد، بطبيعتـه وتربيتـه، كـان يتجنـب الاخـتلاط، واضـعًا نفسـه فـي إطـار خـاص يميّـزه عـن أقرانـه، يحميـه مـن الانحـراف، ويصـونه مـن الهفـوات التـي قـد تزيحـه عـن هدفـه فـي نيـل شـهادة علميـة مرموقـة. أحـاط نفسـه بسـياج مـن العزلـة، متجنبًـا مصـاحبة الفتيـات داخـل الجامعـة وخارجهـا، حتـى أنــه كــان يغــض الطــرف عــنهن فــي الطرقــات، لا يجالســهن، ونادرًا ما يكلمهن، إلا في حدود الضرورة الدراسية.

هـذا السـلوك جعلـه عرضـة للنقـد مـن قبـل زملائـه الـذين وصـفوه بـــ"المعقد" أو "المتخلــف"، لكنــه لــم يُعــر تلــك التعليقــات أي اهتمــام. كانــت ثقتــه بنفســه حصــنًا منيعًــا، وكــان هادئًــا، ذكيًــا،

متمكنًا من دراسته، متعمقًا في اللغة والعلم، منشغلًا بفهم المواد، غائصًا في ألغازها العلمية بتمكن. أدرك أساتذته حدود شخصيته، فبادلوه الاحترام والتقدير.

ورغم محاولات زميلاته التقرب منه، إلا أنهن لم يفلحن، حتى يئسن منه. لم يكن يصغي إلا لصوت عقله، تلك الدائرة المشبعة بمغناطيسية الأحاديث والقصص والعبر والآيات القرآنية التي حفظها عن ظهر قلب.

وقبل تخرجه بسنة، أغرم صديقه عادل بفتاة أمريكية شقراء، اقتنع بها تمامًا وأصر على الزواج منها. لكنه اصطدم برفض قاطع من والده، الذي لم ترُق له الفكرة إطلاقًا. حاول عادل مرارًا وتكرارًا إقناع أبيه، لكنه كان كمن يرتطم بجدار صلب، إذ لم تفلح محاولاته قط.

كان والد عادل يرى أن اختلاف العادات والتقاليد، والتباين في التربية والدين، مسائل جوهرية يصعب التوافق بينها. فالحكمة من وجهة نظره تقول: "نحن أبناء ثقافة لا تتطابق مع الثقافة الغربية، والاختلاف في المبادئ لا يُبنى عليه استقرار."

تلك الأسباب عقدت الخيوط بين أعمدة الشواهد، وجعلت هذه الزيجة تنزوي في زاوية ضيقة يحيط بها شبح الفشل. فقد ظن الأب أن زواج ابنه سيجرفه بعيدًا، وأنه سيفقده نهائيًا، متطبعًا بعادات الغرب وسلوكياتهم، ناسياً أدبه ودينه، متخليًا عن أصله وجذوره، ضائعًا في زحمة الغربة كإبرة في كومة قش.

هذا ما استحوذ على فكر الأب، وما لا يرضاه لابنه ولا يقبله لنفسه. كان يتمنى له زوجة من بنات جلدته، تشبهه في الذات والعادات والسلوك والتقاليد والدين واللغة، لتتلاشى الفوارق بينهما.

لكن عادل، لشغفه وهيامه بجمالها، تمسك بقراره. الحب أعماه، عطّل دائرة فكره، سلب إرادته، وصيره لعبة بين أيادي القدر. تقاذفته الأجواء بين أمواج الظرف الجديد، فلم يصغِ إلا لصوت عقله الباطني، الذي جرده من واقعه ليسكن خيمة شغفه، هائمًا بها، وحيد الفكر، حيث القلب وما هوى.

تعلق بها تعلق الروح بالجسد، لم تغفل عيناه عن شبح خيالها قط. غص في حبها دون حكمة، وولج بها في رؤاه وأحلامه، كما تتعلق النغمة بالوتر لحسنها وجاذبيتها. أينما ذهبت تبع خطاها، وأينما حلت، حل كقدر بين يديها، مأخوذًا برقتها وسحرها وطيب حواراتها في كل مجال يسعه عقله.

وحين تيقن من شعورها المتبادل، رضخ لتأملات أحلامه التي رسمت له أقداره، هام في تلك الوردة الشفافة التي شغفت قلبه بسحرها وعبق فتنتها.

وفي الوقت ذاته، ظل متمسكًا برضا والديه، لا يستطيع أن يحيد عن سراط تربيته، ولا أن يغفل عن رغبة والده. فهو ينظر إليه بعين الاعتبار، لا يريد أن يفسد حلمه الذي راوده طويلًا، ليفتخر به أمام أصدقائه ومجتمعه. فقد قدم له الغالي

والنفيس، صرف عليه جل عمره في تعليمه وتهذيبه، ولم يبخل عليه يومًا، ولم يقف عائقًا أمام رغباته قط.

لكن هذه الحالة كانت مختلفة، فقد وضعت حدًا فاصلاً بين رغبات النفس وأمنيات الأب. لم يستطع أن يتنازل عن رغبة قلبه، وفي الوقت ذاته لم يقدر على تجاوز والده أو بغضه.

كانت محاولاته كمن يتسلق جبلًا شاهقًا، وفي كل مرة يخفق في الوصول، لم يفلح في تليين عقل والده، ولا في بلوغ القمة التي تتلألأ فوقها كنجمة ساطعة. الرفض القاطع من الأب جعله يعيش صراعًا مرهقًا مع النفس، نقلته إلى حالة من شرود البال وقلة التركيز، وهموم عصفت بمشاعره، حتى كاد يختنق من دخان العطب المتقد في صدره.

الكلمات الأخيرة التي نطق بها والده بقيت ترن في أذنيه كجرس الشاة: "إن تزوجتها فأنت لست ابني!"

شكا ذلك مرارًا لصديقه محمد، فلم يجد من يصغي له ويسعفه في ديار الغربة سواه. طرق ظنه، فوجده جالسًا في ركن من أركان الجامعة، تقدم منه، سلم عليه، وشكى له ما يعتريه.

فقال له محمد:

– يا عادل، أنت أكبر مني سنًا وأكثر خبرة في الحياة. الزواج من غير المسلمة، في حالتك، ليس مجرد ارتباط عاطفي، بل هو عبور إلى عالم مليء بالتحديات. الحب وحده لا يكفي، فاختلاف الأهداف والتربية سيخلق عقدًا يصعب حلها.

صدقني، مع مرور الزمن، ستتآكل الروابط، وتذبل العلاقة. هذه نزوة شيطانية تحيط بك، تحرفك عن العادات والتقاليد، ولن تجد فيها سعادة تلين خشونة السرير. ستكون غربة داخل غربة، ومع الأيام تتكاثر المشاكل، وتلطخ الثوب الناصع بسواد العقد وتفاهة الفكر. ثم كيف تود مخالفة شرع الله الذي يقول: "وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ"؟

هنا لمح له فكرة، فتوقف عادل وقال:...

– لمَ تنظر إلى الأمور من نافذة قاتمة لا تعكس الحقيقة؟ أنا أحبها وهي تبادلني الحب، وسنتقاسم الصعاب، ونتجاوزها معًا. ألا توجد زيجات من هذا النوع نجحت وأسست أسرًا ساهمت في بناء المجتمع؟

– بلا، ولكن لكل حالة خصوصيتها، وأنا أعرف ظرفك جيدًا. أنت ابن بيئة شرقية مزدانة بجذور إسلامية، لا تنسجم مع أي بيئة أخرى. الزواج لا يُبنى على الحب فقط، بل على التوازن. لونك يختلف عن لونها، وكلٌّ له سراطه الخاص، ولن تلتقيا أبدًا. تذكّر جيدًا: للعقد أتراس مسننة، تجرح وتترك أثرًا لا يُشفى بالحب، بل بتلاقي الذهن والروح والعادات والرغبات. العلاقة قبل الزواج تختلف تمامًا عما بعده، كاختلاف الليل والنهار. لن تجد من يؤازرك ويتحمل وزرك سوى بنت بلدك المسلمة.

– يبدو أننا لا نتفق، كثيرًا ما تراودني الأحلام بالاستقرار هنا. في بلداننا، الحرية مكبوتة، والسعادة ناقصة، ووسائل الترفيه

شبه معدومة. ألم تعانِ أنت من هذه الأمور؟ ألم تلتمس الفارق التقني بيننا وبينهم؟

– السعادة يا عادل، لها ألوان كطيف الشمس. ما تراه هنا سعادة، قد يكون له لون آخر في بلدك. دخولك السينما والبارات وشرب الخمر لا يعادل صوم رمضان وطقوسه، ولا بهجة الأعياد عندنا. العلاقات المبنية على المصالح والجنس والتعري والملذات لا تعادل الصدق والعفة والنية الطيبة والحشمة والحياء والألفة والجيرة وحب الخير. نحن نحتفظ بالقيم، وهم يحتفظون بالقشور. يجب أن تفرق بين قيمنا وقيمهم.

عادل، وقد أعماه الحب، لم يقتنع بظاهر ولا جوهر أفكار صاحبه. كان تفكيره منصبًا على حبيبته، وعقله نافذة مغلقة لا يرى من خلالها إلا مسارات القلب. لكنه امتَنَّ لفكرة محمد، لأنها نبّهته إلى أمر جليل: فكرة إسلامها. ربما بإسلامها يرضى والده، وهو متيقن أنها لن تمانع.

جمع أفكاره واتصل بوالده:....

– ألو... كيف حالك يا أبي؟ وكيف الوالدة العزيزة؟

– الحمد لله يا بني، فكرنا منشغل بك، ننتظر عودتك بفارغ الصبر.

– أود أخذ رأيك في مسألة زواجي، فأنا لن أخالفك أبدًا. هل أكسب رضاك لو أنها أسلمت؟ أتسمح لي بالزواج منها؟

– نعم يا بني، سأفتخر بك أمام ربي، وسأكون أسعد الناس إن عاشت معنا وتعلمت عاداتنا وتقاليدنا.

انفرجت أساريره، وتكيف مع الوضع الجديد. المسألة انحلت، ولم يبقَ سوى إسلام حبيبته. لكن كيف ستُسلِم؟ كيف سيقنعها؟

في اليوم التالي، أخبرها بالحقيقة: أن العقبة الوحيدة في زواجهما هي إسلامها، حسب رغبة والده والدين الإسلامي. لا يريد أن يخسر والده، ولا أن يخسرها. أخبرها بشرط والده اللازم لجمعهما.

سألته الآنسة روز بشغف، وكانت في قرارة نفسها تود التعرف على الإسلام، لأنها غير متدينة:...

– وكيف أسلم؟ علّمني الإسلام أولًا...

اقتنى لها كتبًا باللغة الإنجليزية عن الإسلام، والقرآن، وأحاديث الرسول، والسيرة، وكتب الفقه، وأرفقها بتلاوة مجودة للقرآن باللغة العربية. ثم قال:....

– اقرأيها بتمعّن، مع التفسير المرفق.

– أمهلني أربعة أشهر، على أن لا نلتقي خلالها. كي لا يكون لك تأثير على أفكاري، ولا تكون لي حجة عليك مستقبلاً إن لم أقتنع. أريد أن تنبع القناعة من داخلي، كي أغيّر ثوب الجسد والعقل بقناعة ذاتية، لا بتأثير خارجي.

– وهو كذلك...

كـان الحـب كفيـلًا بـأن يعقـدا الاتفـاق بهـدوء. كمـا تعلـق بهـا، تعلقـت بـه روز. حبهـا المتـيم دفعهـا للانغمـاس فـي القـراءة بتـيقن وإمعـان، لـتفهم امتـداد حبيبهـا، وتـدرك إرهاصـاته الفكريـة التـي تكبـل بهـا، والتي ستتزوج منه برغبة.

انقطعـت عـن العـالم خـلال تلـك المـدة، وبـدأت تبحـث فـي أمـور الـدين عبـر الإنترنـت، لتوسـيع مـداركها أكثـر. أظهـرت ذكـاءً فـي فـرض شـرطها، لتسـتوعب مضـمون الكتـب، وكـان لزامًـا عليهـا أن تبتعـد عنـه تمامًـا. القناعـة ضـرورية لاتخـاذ القـرار، كـي لا تلـوم نفسـها لاحقًـا، ولا تضـع مبـررات للفشـل أو ملامـة الأهـل والأصدقاء.

سـارت علـى هـذا المنـوال، تقـرأ الكتـب بعيـدًا عـن الضـغوطات الخارجيـة، غارقـة فـي عزلتهـا الفكريـة، بينمـا اسـتمرت القطيعـة بينهمـا حتـى كـاد عـادل أن يفقـد صـوابه مـن غيابهـا. كـان يتـوق لرؤيتهـا، ليشـبع مـن جمالهـا الفـاتن مـا ظنّـه حبًـا، يعـد الأيـام بالسـاعات، والـدقائق، بـل بـالثواني، لكنـه لـم يشـأ أن يفسـد مشـروعه، ولا أن يكرههـا، ولا أن يضـع حجـر عثـرة أمـام رغباتـه. بحـث عنهـا فـي ذاتـه، وفـي عيـون المـارة، وفـي زوايـا الطرقات، دون أن يجدها أو يلتقيها.

أمـا هـي، فكانـت الأذكـى. تجنبـت لقائـه تمامًـا، وتحاشـت الأمـاكن التـي اعتـادا اللقـاء فيهـا. صـارت تنظـر إليـه كمـا ينظـر القمـر إلينـا مـن خلـف سـتار السـحب. حتـى انقضـت فتـرة السـبات الطويلـة، وخرجـت دودة القـز مـن شـرنقتها فراشـة جميلـة، براقـة بثـوب جديد.

لم يكن هو من التقاها، بل هي التي ظهرت أمامه، بلباس مختلف، وهيئة مغايرة لما عهدها عليه. لم تعد ترتدي القصير، ولا تفرط خصلات شعرها الأصهب، بل ارتدت حجابًا بسيطًا وثيابًا مستورة. فرح بلقائها، وهاجت في داخله رغبة احتضانها، قبلها.... لكنه فوجئ ببرودها. لم تكن لها تلك اللهفة القديمة، ولا تلك الرغبة الجامحة التي كانت تتملكها. كانت عادية، وكأنها تراه لأول مرة.

في الوهلة الأولى، سلمت عليه سلام الإسلام، فأصابته بسهم إيمانها في مقتله. غصّ في فرحٍ عميق، وانفرجت أساريره، لكنه غرق في صمت واندهاش. وقبل أن ينغمس في ألوانها الجديدة، أغلقت ظرف الحب بيدها إلى الأبد. أدركته بحقيقتها الجديدة قبل أن يثني عليها، وقبل أن يعدها بوعود الفرح والزواج. أفقدته توازنه، لكمته على فاهه، واختزلت صبره الطويل بمفاجأة مدوية.

قالت له بصراحة:...

"لقد أسلمت، واقتنعت بالإسلام، فهو دين حق. لكنني لا أستطيع الزواج بك، لأنك لست مسلمًا كما ينبغي، بل متجنٍ على الإسلام. أشكرك لأنك كنت سببًا في معرفتي بالحقيقة التي كنت أبحث عنها في دهاليز أفكاري. الله أرسلك إليّ لينقذني، لأنه يعلم مكنون قلبي الطيب. من اليوم، سأعتبرك صديقًا فقط، قد أستعين بك إن واجهتني معضلة."

صدمه واقعها الجديد، وقرارها الحاسم. لم يكن يتوقع أن تأتي مأساته على يدها. ضاق الكون به، بات لا يرسو على حجر، ولم ينم ليلته. كانت ليلة ليلاء، انشغل فيها تفكيره دون أن يخطو خطوة نحو هدفه، بعد أن تحطم حلمه وهُشِمَ صرحه.

في صباح اليوم التالي، لجأ إلى صديقه محمد، ليفرغ همومه في جعبته. كان محمد جالسًا على أريكة في حديقة الجامعة، منشغلًا بدروسه، يتأمل تفوقه كما وعد والده، ولم ينسَ نظرات والدته المليئة بالدعاء حين ودعته ورشت خلفه طاسة الماء.

– صباح الخير محمد...

– صباح النور... ما بك؟ وجهك متجهم، ودموعك محصورة في عينيك. هل أهلك بخير؟

– اطمئن، لا شيء من هذا القبيل... روز أخلفت وعدها، بعد أن تعلقت بها. لم ترضَ بي زوجًا، رغم توسلاتها السابقة.

– لماذا؟

– لقد أسلمت!

– عظيم.

– لكنها صارت تعدّني من غير المسلمين، حسب قياساتها. تغيرت نظرتها إليّ تمامًا، تأثرت بالإسلام، فوجدتني مخالفًا لشرائعه.

ضحك محمد وقال مازحًا:...

– هههههــه، والله لــم تقــل إلا الحــق. لمــاذا تغضــب؟ أليســت الحقيقة؟

– أنـا لسـت فـي مـزاج للمـزاح، أرجـوك قـدر وضـعي... مـا الحـل؟ أنا مشتت الفكر.

– قلــت لــك لا تحــاول معهــن. مقيــاس ثيــابهن لا يليــق بنــا. لــو تزوجتهــا وهـــي غيـــر مســـلمة، ســـتتركك يومًـــا مـــا. وإذا أســـلمت وتعمقــت فـــي الإســـلام، ســـترى حقيقتـــك كمـــا رأتهـــا الآن. أنـــت واقـف علـى الحـد، بـين أن تكـون مسـلمًا حقيقيًـا أو ملحـدًا. اغسـل اللـــون الرمـــادي مـــن وجهـــك ليبـــيض، فالبيـــاض رونـــق القلـــوب الصافية، وهو سيد الألوان.

– لـن أبقـى هنـا، سـأعود إلـى الـوطن بعـد اسـتلام شـهادة التخـرج. أنا بحاجة إلى النسيان.

أصـــبح عـــادل عبـــرة لـــه، وبقـــي علـــى حالـــه خـــلال الســـنتين الأخيـرتين، بعيـدًا عـن النسـاء والخمـر. لـم يكـن بحاجـة إلـى نصـح كـي يلتـزم بأدبـه وأخلاقـه. لـم يتغيـر طـوال مـدة دراسـته، تجنـب النســاء، خاصــة زميلاتــه، وتحفــظ فــي علاقاتــه، محتفظًــا بعاداتــه وتقاليده المشبعة بقيم الدين الإسلامي.

كـــان الـــدكتور المشـــرف قـــد قـــرأ صـــفحة محمد بعنايـــة، فـــاحترم خصوصـــيته وتفهـــم موقفـــه. حـــاول مـــرارًا أن يجنّبـــه المواقـــف المحرجـة، فـلا يُلزمـه بالاحتكـاك بزميلاتـه أو الحـديث معهـن. بـل إنـــه أحـــب محمد لمـــا رأى فيـــه مـــن صـــدق وأخـــلاق رفيعـــة وتربيـــة

فاضلة، حتى أصبح من المقربين إليه، يستعين به لفهم خفايا الشرق وجوهر الدين.

سارت الأمور على هذا النحو حتى بلغ محمد المرحلة النهائية من دراسته، حينها أخبره الدكتور بآلية العمل قبل التخرج قائلا له:

– أحترم رغبتك في عدم الاختلاط، لكن هناك عرف لا بد منه. ستعملون كمجموعات في بحث التخرج، والتوزيع سيكون إلكترونيًا، مختلطًا بين الذكور والإناث. لا خيار لك في اختيار المجموعة، وعليك أن تتعاون معهم لإنجاز البحث، فهو جواز عبوركم نحو التخرج.

– حاضر يا أستاذ، سأكون عند حسن ظنك.

لم يُبدِ محمد امتعاضًا، بل تقبل الأمر بصدر رحب. بدأت اللقاءات بين أفراد المجموعة، وكان بينهم فتاة أمريكية تُدعى ليما. تعامل معها محمد بأدب جم، لكنه كان يغضّ بصره عنها، لا يطيل النظر، ولا يبتسم، ولا يشاركها جلسة أو شراب. كان يأخذ منها الورقة دون أن يلتفت، يتحدث معها باقتضاب، وكأنها غير موجودة.

أما ليما، فقد شعرت بالإهانة. ظنت أن تجاهله لها تقليل من شأنها، فبدأت العلاقة تتأزم في داخلها، حتى تراكمت مشاعر الغضب والمرارة. وفي يومٍ مغبر، انفجرت كالعاصفة، وانهالت عليه بالسباب والشتائم، تهاجمه وتهاجم العرب

والإسلام، تصفه بالقبح والتخلف، وتكيل له كل ما في قاموس الذم من كلمات.

لكن محمد ظل ساكنًا، لم ينبس ببنت شفة، تركها تفرغ حمم غضبها، حتى هدأت، وبدأت تشعر بالخجل من نفسها. وجهها اصفرّ، وانكمشت داخل ذاتها، تود لو تعتذر، لكنها لا تجد مخرجًا.

قال لها بهدوء:...

– اهدئي يا ليما، اشربي قليلًا من الماء، سأجلب لك عصير الليمون ليهدئ أعصابك.

وبعد أن عاد، جلس بجانبها وقال:....

– سأوضح لك ما عانيت منه. نحن لسنا كما تصورتِ، نحن أرقى بكثير مما يخطر في بالك.

أصغت إليه، وقد فغر فمها دهشة، فقال:...

– لو كان لديكِ قطعة ألماس غالية، أين تضعينها؟ ألا تحفظينها في قطعة مخمل داخل خزانة بعيدة عن الأعين؟ ألا تتزيني بها في المناسبات لتزيدك بهجة؟

– بالطبع، لأنها جوهرة.

– نحن ننظر إلى المرأة كذلك، جوهرة ثمينة، أغلى من الألماس. نحتفظ بها لزوجها، لا علاقات قبل الزواج، لا صداقات مزيفة. كل طرف يحفظ الآخر، كما يحفظ الإنسان

عينيـــه وجوهرتـــه. الحـــب والاحتـــرام يجمعهمـــا، لا يجـــوز للمـــرأة أن تنظر لغير زوجها، ولا الرجل لغير زوجته.

– ألهذا السبب تغضّ النظر عني؟

– نعـم. عنـدكم المـرأة كسـيجارة الحشـيش، يتـداولها الجميـع، ثـم تُرمـى وتُـداس تحـت القـدم. نحـن لا نريـدها كـذلك، بـل نريـدها ماسة تزداد بريقًا وقيمة مع الزمن.

صمتت ليمـا، ثـم انقطعـت عـن المجموعـة لأسـبوع. لـم يسـأل عنهـا محمد، وكأنها لم تكن.

وذات يـوم، خـلال المحاضـرة، دخلـت امـرأة محجبـة وجلسـت فـي آخـر القاعـة. اسـتغرب الجميـع، فلـم يكـن بيـنهم محجبـة طـوال العـام. وبعـد انتهـاء المحاضـرة، تقـدمت نحـوه، فـإذا بهـا ليمـا، منحنية الرأس، تود الاعتذار.

– أنا آسفة، لم أكن أفهمك.

– لا عليـكِ يـا ليمـا، لـم أسـمع مـا قلـتِ، ولـم أفكـر بكلامـك، تلـك لحظات مضت.

– أود أن أعتنق الإسلام على يديك، علمني كيف أبدأ.

– يا بشراك! الحمد لله الذي يهدي من يشاء.

لقّنهـا الشـهادة، فشـهدت أمامـه: "أشـهد أن لا إلـه إلا الله، وأشـهد أن محمـدًا رسـول الله". ومنـذ ذلـك اليـوم، بـدأت تتعمـق فـي

الإسلام، يلتقيان يوميًا، يشرح لها، ويهديها كتبًا بلغتها، حتى تخضبت روحها بمبادئ الدين.

وبعد التخرج، وقبل أن يفترقا، قالت له:...

– أبعد أن هديتني تتركني؟ أريد الزواج منك. لقد أعجبت بأدبك، ووسامتك، وأخلاقك، ودينك. سأخلص لك ما حييت.

– وكيف تتركين واقعك، وعاداتك، وبلدك؟ أنا سأعود إلى وطني بعد التخرج.

– سأكون كما ترغب، مطيعة، أتبعك أينما ترحل.

– شرطي الوحيد موافقة والديّ، عليكِ أن تنتظري ردهم.

أرسل صورتها وقصتهما إلى والديه، وبعد يومين، اتصل به والده:

– على بركة الله يا بني، أحرص عليها، فلك أجر هدايتها وزواجها، توكل على الله.

لم يتأخر، أقام حفلاً صغيرًا بحضور أسرة العروس وزملائه. طوّق سواعدها وجيدها بالذهب الخالص. تغيرت نظرة الجميع إليه، صار جليلًا في أعينهم، فرض احترامه دون عناء أو تكلف.

مجموعة لغة العود والحجر

1- الصياد والسمكة..........
2- مملكة النساء ....
3- الملك والذهب.............
4- أبن آوى ....
5- الديك والقاضي ....
6- سر السعادة ....
7- حسن كاروب..............
8- فروة السبع ....
9- الأميرة والمؤذن ....
10- الطرائف في استكان الشاي.
11- لغة العود والحجر ....
12- المقصلة....................
13- الوفاء ....

1- الصياد والسمكة *

كـان يـا مـا كـان، فـي سـالف العصـر والأوان، رجـلٌ مـن أهـل بغـداد يُـدعى رداد. مزاجـيّ الطبـاع، فـظّ اللسـان، كثيـر العنـاد، هزيـل الشـأن، قليـل الخبـرة والخيـر والـزاد. جـرّب حظـه فـي صـنائع شـتى، فمـا أفلـح فـي واحـدة منهـا، حتـى صـار مضـرب المثل: "سبع صنائع والبخت ضائع".

لـم يُـرزق ميـزة ترفـع مـن قـدره، ولا اتخـذ قـرارًا يُجمـل بختـه. لا يُحسـن الظـن، ولا يُجيـد التـدبير، ولا يسـعى خلـف الـرزق بجـدٍّ أو تحضـير. منبـوذٌ بـين النـاس، ذليـلٌ فـي نفسـه، خـائر العـزم، عـديم الإيثـار، متطفـلٌ علـى نعـم الميسـورين والأخيـار. تراكمـت عليـه الهمـوم حتـى صـار فـي سـيره كالمسـطول، يُكنّـى بـين المـلأ بـ"الرجل الكسول".

خسـر فـي التجـارة، تعثّـر فـي النجـارة، ونفـر مـن البنـاء، فمـا جنـى سـوى الخيبـة والعنـاء. وجـد نفسـه يتكسـر فـي خـواءٍ مريـر، بـين سـوط الهـوان ومـرارة الرجـاء. عانـد السـعي فعانـده الـزمن، غـالى فـي صـبره فقسـت عليـه الأيـام، وطاردتـه المخـاوف دون أن يطـرأ تغييـر فـي أفـق حياتـه. لـم تسـتعر الغيـرة فـي صـدره، وظـل يرفـأ بكسـاد العـيش وقرقعـة همـوم الغـد، غيـر آبـهٍ لـزن الزوجـة ولا لمـدّ الحياة المتصاعد.

أمـا زوجتـه، فكانـت مـن معـدنٍ نفـيس. صـبرت عليـه، وتحملـت جلـد السـنين، لحيائهـا وحسـن سـيرتها وأصـل نسـبها. عزيـزة الـنفس، دمثـة الخلـق، لكنهـا كرهـت خمولـه وسـلوكه المهـين.

طواها الـزمن تحـت ظلـه، فباتـت جـزءًا مـن قـدره، كـأن القـدر الذي اصطفاها تحت جناحه، هو ذاته الذي كبّل زوجها بقيوده.

لـم تطـق جلوسـه فـي البيـت، فالبيـت لـيس مقامًـا لرجـلٍ قـادر. حثّتـه علـى العمـل، علـى تجـاوز فقـره المـدقع، علـى تغييـر صـورته فـي عينهـا وعـين المجتمـع. ففـي الحركـة بركـة، وفـي السـكون لعنـة. كانــت لا تمــلّ مــن الــزنّ علــى أذنيــه، تشــحن طاقتــه، وتدفعــه للمبــادرة. فالإنســان، مهمــا خــارت قــواه، يحتــاج دفعــة، حتــى لــو كانــت دون جــدوى. فبالأمــل تخضــر الحيــاة، وبالنيــة الصــادقة تُفتح الأبواب.

وفي لحظةٍ من لحظات الزنّ، قالت له بحزمٍ وحنان:...

- "يـا رداد، إن لـم تـنهض اليـوم، فلـن تـنهض أبـدًا. قـم، ولـو تعثّـرت، فـالتعثّر خيـرٌ مـن الركـود. غيّـر مـا بـك، فـإن الله لا يغيّـر مـا بقـوم حتـى يغيّـروا مـا بأنفسـهم. ابـدأ، ولـو بخطـوة، فكـل طريـقٍ طويـل يبـدأ بخطـوة واحـدة. تحـرك يـا رداد، أبحـث عـن الـرزق فـي أرجـاء الـبلاد، العمـل يجلب لك الحظ، والتقاعس يجعلك تمرض..
- أي عمـل يـا امـرأة؟ لـم افلـح فـي البنـاء والنجـارة، وعكيـت في الندافة والتجارة.

في لحظة غضب وانكسار، صاحت زوجته: –

- بـل إنـك كسـول وأعمـى، ألا تـرى حالنـا؟ يكفينـا صـدقة الآخـرين، لـم أعـد أحتمـل المهانـة والبـؤس. أجسـادنا باتـت ملكًــا لأولئــك "الأخيــار"، اســترد عافيتنــا وكرامتنــا،

استرنا من الأعين الزائغة، غدًا ستُحاسب أمام الله ورسوله.

ردّ بصوت خافت، كمن يهمس لنفسه: ـــ

- الأبواب كلها موصدة، لم أجد حظًا وسط ضجيج المنافسة.

قالت له بحدة: ـــ

- بل أنت عنيد، لا تعرف المرونة، لا تعلّق فشلك على شماعة الحظ. الإنسان يصنع حظه بجهده وفكره. أمامك أعمال كثيرة، جربها، مارسها، اعمل لنفسك ولا تجعل لأحدٍ فضلًا عليك.

تنهد وقال: ـــ

- فكرة جيدة... أعينيني بها، قولي لي: ماذا أعمل؟
- اعمل حطّابًا، فالجو بارد والناس بحاجة للحطب. اعمل زبّالًا، نظّف المدينة من قذارتها، ونظّفنا من قذارتك التي أهلكتنا بها. اعمل صيادًا، دعنا نأكل غذاءً مفيدًا، جلودنا يبست من الفاقة. اعمل أي شيء، المهم أن تعمل ليرحمك الله.

راقت له فكرة الصيد، فيها عزلة وظلال وارفة، فيها خرير الماء وألفة النوارس وطائر النوء والبط والوز... فيها زرقة السماء وحنان الشمس وخضرة الأشجار السامقة. منظرٌ يغريه، ينسيه كسله وهمومه، ويجمل صورته في عيني نفسه.

استقر على فكرة الصيد، فهي لا تكلفه سوى مفازة الطريق. في اليوم التالي، جمع عدته ومضى يطوي الدروب نحو الشاطئ، عسى أن يجد ضالته ويستفيق حظه.

جلس على صخرة عند منعطف النهر، حيث تبطئ المياه، وأخذ يرمي سنارته في عمق التيار. مضى يومه الأول دون أن يهتز خيط السنارة، دون أن تداعبه سمكة أو حتى قشة. قضى يومه سارحًا مع بساط الريح، متنقلًا بين مروج الذاكرة وصور أقرانه الذين سبقوه مناصب وثروة: عمر، علي، حسن، سعد، عادل، كاظم... كلهم ذوو شأن ومكانة، إلا هو؛ بقي يترنح على قارعة الطرق، لا يمسك بيده قشة يكش بها ذباب أنفه.

لكنه قضى يومًا مختلفًا، سعى فيه بصدق النية، اجتهد دون أن يجتهد الحظ معه، دون أن يختصر ذلك المجاز الموحل قيد شعرة. ابتعد عن وخز الملامة، عن قسوة نظرات زوجته التي تخزق جسده. أقنع نفسه بتكرار المحاولة، عسى أن تفرج عن خيرٍ ينسيه ظلف العيش.

حين عاد خالي الوفاض، قالت له زوجته: – استهدِ بالرحمن، صلِّ، اتقِ الله، تقرّب إليه، عسى أن ينير لك دربك ويرحمك. {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}.

ردّ ساخرًا: – أتظنين ذلك؟ تجاوزت الأربعين ولم أحظَ برزق. أبعد الأربعين سيرفأ بحالي؟ ماذا أفعل به؟ والله لو كان الحظ رجلًا لقتلته. كفي عن خرافاتك.

تركتْه في صمت، لعناده ومخه الصدئ، فلن تغير شيئًا تجلد في القدم. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، فالله يهدي من يشاء.

في اليوم التالي، عاد لتجربته. جلس على الشاطئ، تتعقب غيرته الطيور الدائرة من حوله، وهي تتبع حظوظها بخفة ورشاقة. راقب طائر النوء والنورس وهما يختطفان السمك من الماء بيسر، وتمنى لو كان له من خفتهم نصيب.

تمنى لو خلقه الله طيرًا، يحظى برزق سهل كما صار يظن، دون أن يدرك أن تلك الطيور تجهد وتكدّ في البحث، تقطع مسارات النهر عرضًا وطولًا، تغوص في الأعماق، وتصارع التيار. قضى نصف وقته متأملًا، ينتظر أن تنفك عقدة حظه المربكة، لكن خيط السنارة ظل ساكنًا، لا يهتز. أصابه الملل، وبدأ يلعن يومه الأسود، فالرزق غافل عنه تمامًا. لم يدرك أن بين الرزق والحظ ألفة، أحدهما يبحث عن الآخر بصمت، وأن العلة ليست في المحاولة، بل في النية والأسلوب.

لقد عجَن حظه بملح الكسل، فالمشكلة ليست في الحظ، بل في عزمه وسلوكه. من تعوّد على الهوان، سهل عليه الهوان.

وقبل أن يحل الغروب، توتر خيط السنارة فجأة. استبشر خيرًا، وابتسم له الحظ ابتسامة صفراء. شاع في وجهه أمل ضعيف، رأى سمكة لا بأس بها تلبط وتلعب قرب السنارة. تأملها، وتمنى أن يُكلل يومه بالنجاح.

راح الأمـل يتـراقص فـي عينيـه، اقتـرب مـن سـور ظنـه، وشـاعت فـي داخلـه بهجـة خجولـة. هـا هـي ماسـة الحظ تلمع فـي قـاع النهـر. كبـرت أحلامــه، مــع مغازلــة السـمكة للطُعـم، أنهـا تـدور حـول الخـيط، أذكـت مشـاعره بالأمـل. لمحهـا، وقـدّر حجمهـا، فوجـدها أكبـر ممـا توقـع وتمنـى. الحلـم أضـناه، صـار يشـعر بلـذة السـمكة وهي مشوية، غمرت أنفه رائحة الشواء.

غـدت لحظـات اللـين تجامـل صـبره، تحـرق همومـه، وتبـدد يأسـه مـع مداعبـة السـمكة للخـيط. آزرتـه نشـوة فـرح، وجـف فـي مكانـه يتأمـل السـمكة وهـي تحـرك المـوج بـذيلها الفضـي، كأنهـا تحـرك لذة الاشتهاء في أعماقه.

صـار يكلـم نفسـه: –" إنهـا كبيـرة، تكفـي خمسـة أشـخاص، جذابـة، مـن نـوع الشـبوط، أطيـب أنـواع السـمك النهـري. يـا إلهـي، أعنـي علـى صـيدها. يـا لطيـف، ألطـف بـي، دع زوجتـي تفـرح بصـيدي وترضى عني."..

ربمـا السـمكة تمثلـت لـه بـالحظ، وربمـا الحـظ تمثـل لـه بالسـمكة. ربمـا الشـيطان أغـراه، وربمـا القـدر سـعى يبحـث عنـه. كـل شـيء جائز بين الرغبة والرجاء.

بـات يرمـي سـنارته بعـد أن يعبئهـا بـدود الأرض. تـارة يتحـرك الخـيط بفعـل الريـاح والمـوج، وتـارة تهـزه السـمكة بـذيلها، كأنهـا تلاعبـه وتتحايـل عليـه. باتـت تـدور حـول الطُعـم، تشـده برفـق، وأحيانًـا تـداعب الخـيط بزعانفهـا فتشـد انتباهـه. أضـحى يـدرك غايتهـا، وهـي تـدرك غايتـه. أصـابته نشـوة أمـل عـززت مـن

صبره. مثلما سرّت السمكة بوجود العم رداد بتوفير الدود لها، سرّ هو بوجودها، متأملًا صيدها.

السمكة تتأمل أن يسد رمق جوعها، ورداد يتأمل أن يسد رمق جوعه. كلاهما لا يقوى على المماطلة طويلًا؛ هي بحاجة إلى غذاء يعينها على الحركة، وهو بحاجة إلى رضا النفس ورضا زوجته.

أدركت السمكة خطورة الشص، فسحبت الخيط برفق بفمها من طرفه العلوي، تحاول إيهامه ليسحب الخيط بقوة مفرطة، عسى أن يفلت الطُعم من أنياب الشص. تكررت المحاولة، لكن الحظ لم يستجب لها. بدا الجوع وكأنه يهرس معدتها، فتهاوت قواها واستسلمت لحدة الشص.

بزغت زعانف الشك تشك جسد الطرفين؛ هي هجست بنية الغدر منه، وهو هجس بنية سرقة طُعمه. في محاولتها الأخيرة، أرادت اقتناص الفرصة لخطف الطُعم، لكنها تفاجأت بنتلة قوية لخيط السنارة، لم تستطع الإفلات منها. تعلق الشص بجانب جسدها، لثقل الخيط استقام بفعل حركتها اللاإرادية.

اهتز الخيط في يد رداد، فغمره الفرح بنجاح المحاولة. سحب خيطه بقوة، فارتفعت السمكة فوق سطح الماء، ثم هوت إلى قاع النهر، ليفلت الشص عن جسدها، تاركًا شرخًا بليغًا في جانب بطنها، ينزف دمًا غزيرًا.

لم تكتمل فرحة رداد، ولا اكتملت نية السمكة بسرقة الطُعم. صار يلعن حظه العاثر وقسمته السوداء. سقطت السمكة، مثقلة

بالجرح وبثقل جسدها، وبقوة العت التي استخدمها في السحب، دلالة على غشمته وعدم درايته بفن الصيد.

انتشر الدم في المياه، واصطبغت المساحة المحيطة بها بلون قانٍ، صارت عرضة للافتراس من الأسماك الأكبر حجمًا. فرائحة الدم تزكم أنوف المفترسات، ولونه يثير فضولها، يجذبها كما يجذب الضوء الحشرات. بات وضعها ينذر بالخطر، فهربت تبحث عن ملجأ يكفل لها النجاة. الشر آتٍ لا محالة، وربما يحيط بها دون أن تدركه.

أنزوت بين ثنايا الطحالب والحشائش، خلف الصخور المتراصة في عمق النهر، تحت صرة عتمة تلك الدهاليز والأخاديد والمنعطفات. تبحث عن مأوى يعيلها، يحميها من شر الأسماك الكبيرة. لكن الدماء بقيت تتدفق، والشرخ واسع، لا يندمل. لم يلاعبها رداد كما كانت تلاعبه، لم يراعِ حاجتها، ولم يرأف بها.

علم الصياد بمصابها من بقع الدم المنتشرة في المكان. لا بد لها أن تطفو، بعد أن تفقد جهدها ووعيها. صار يتمعن في أفق النهر، عيناه شاخصتان في كل الزوايا. لا تزال الشمس تدر ضياءها في الأفق، تثير سطح النهر بأشعتها المستطيرة، تشحن ذاته ونيته بطاقة الصبر. لا تزال الرؤيا تسمح له بالمراقبة والمعاينة، ولا يزال في جعبته شيء من الحظ.

فيما احتارت السمكة في سلوكها، لم تعد تحتمل ضعفها. افتقدت توازنها، كلّت، تعبت، واستسلمت لقدرها. لم يخب ظن

رداد بمصيرها؛ ها هي تطفو فوق سطح النهر، يتلاعب بها الموج والتيار، يجرفها نحو مصيرها القادم. طفحت على السطح منقلبة على ظهرها، فاقدة الوعي من نزفٍ أرهقها.

بدت عن بعد كخرقة بيضاء تتراقص فوق صفحة الماء، أدركها رداد بنظراته الثاقبة. استعد، خلع ثيابه، ركنها جانبًا قرب الصخرة التي يقف عليها، فهي لا تبعد عنه سوى أمتار قليلة.

الزمن يجري مع جريان النهر، وكلما تأخر في سعيه، اتسعت المسافة بينهما. لم يعد هناك متسع للتفكير، فقفز خلفها، صار يعوم باتجاهها. ها هي أمامه، يكاد يدركها، وقبل أن يمسك بها، أحست بوجوده، فغطست فجأة، واختفت عن ناظره، تدحرجت مع المياه الجارية.

التفت يمينًا وشمالًا، احتار في ظنه، لم تتأخر في غطسها، لكنها ظهرت من جديد على بعد امتار منه، تدحرجها المياه أمامه. سعى خلفها، لا تزال على قيد الحياة، لا يزال فيها رمق يساعدها على المراوغة، متعلقة بخيط الحياة. تراءت له كقشة تهفو بها الأمواج، لحظات احتضار وتشبث بالحياة.

مضى خلفها مسرعًا، يتخبط بذراعيه وقدميه، لا يتقن فن السباحة على أصولها، بدا بدائيًا في عومه. وقبل أن يدركها، غطست مرة أخرى، ربما تكون غطستها الأخيرة. بدت وكأنها لا تريد أن تستسلم له، كأنها تخدعه، تلاعبه، هكذا شرع ظنه يفسر حالتها.

التفت للخلف، فشاهدها تلبط بحركات لولبية بطيئة، كانت أبعد مما كانت عليه. لن يترك رزقه عرضة للأسماك المفترسة، لابد أن ينالها.

انحدرت في المياه الباردة السريعة، فصار يستجير ربه: – كيف سأصل إليها؟ أشعر بالبرد يقرصني، ومع ذلك لن أتراجع. إنه النصيب الموعود، فماذا سأقول لزوجتي؟ كيف أبرر لها خيبتي؟ دعني أفلح أمامها ولو مرة في حياتي، دعني أريها لون الفرح يشع في وجهها...

جالت في ذهنه خواطر شتى، شدّت من أزره، دفعته للأمام. لابد من الإمساك بها بأي حال، رغم عمق النهر وبرودة المياه وسرعة جريانه.

كانت قد أغرته بحجمها، جرجرته خلفها، حتى وصل إلى بقعة صخرية كلسية يصعب المشي عليها. الطحالب التي تفترشها جعلت ملمسها كالصابون، زلقة لا ترحم. ومن جانب آخر، الرؤوس الكلسية الحادة والمدببة كالمسامير، تخزق القدم بشفراتها، تمنعه من الوقوف والمشي. لجريان الماء السريع، ولزلق الطحالب، حكم وقرار لا يُردّ. كل شيء بات ضده، إلا عزيمته التي ما زالت تقاوم.

هكذا استعصت عليه الحالة، فلا مناص من العوم لمجاراة انحدار السمكة، وتفادي المخاطر التي لا تُحمد عقباها. قدر بعدها عنه بعشرة أمتار، ومع مرور الزمن أخذ يقترب منها، يبذل قصارى جهده. ها هي تتراءى أمامه على بعد خمسة

أمتار، فلابد من سعي أكبر. شحذ أمله، وآزرته رغبة جامحة للنيل منها. ها هي على بعد خطوتين، الهدف بات قاب قوسين أو أدنى. اندفع بعزم جديد، يسبح بجهد غير معهود، دخل دائرة السيطرة والإصرار والتحدي. أفقدتها قواها، واستسلمت للقدر، لم تعد تملك حيلة للمراوغة أو الغطس من جديد.

غدا الحلم يتلألأ في عينيه كقنديل المساء، السمكة باتت في عداد المنال. هجس بها فكرة تتدحرج بها الأمواج، تنقله إلى مصافي العز والكرامة، يبدد بها خيبته وشكوك زوجته والمغرضين.

طالما خاصمه الحظ، وها هو أمامه يتقمص شكل السمكة، خطوة أخيرة تفصله عن اللقاء به. النجاح والفشل يصاحبانه في ذات المسار، أحدهما أقرب إليه من الآخر. لابد من الظفر بها، فقد ذاق مرارة الفشل مرارًا، وهو سلاح ذو حدين: إما أن يقتله، أو يمنحه دفقة من العزم تقيه مهازل المستقبل.

الفشل تكوّر في ذاكرته كالأرضة في لحاء الشجرة، آفة من الوهم تنهش الذهن، تدور في فلك الفكرة. عليه أن يتجنبه، ويستعيد ثقته بذاته وقدرته.

شد عزيمته خلف السمكة، استند إلى عصا الإرادة، وضوء الفكرة، والقمر بعد أن غابت الشمس. الفرصة مواتية ولن تتكرر. فإن نجح مرة، فلن يعود لدكة الفشل مرة أخرى، ولن يدع مهازل الضعف تغلبه مجددًا.

رغم تعقّد العقدة بينه وبين السمكة، إلا أنه بات يمسك برأس الخيط، لا يفصله عنها سوى متر واحد، سوى خطوة أخيرة لينتشل ذاته من واقع البؤس. لابد من العزم والمجازفة لحسم الصراع، فلن يثنيه عنها سوى القدر، ليعود منتصرًا كجندي عصامي استمد قوته من ضعف موقفه.

اندفع نحوها بقوة وحزم، تعلق برمق الحلم المتدحرج أمامه، هفَّ بذراعيه كمروحة قارب تدفع المياه خلفه... وقبل أن يخطفها، اقتنصتها سمكة كبيرة من أمامه. صعقه القدر، تجلّد في مكانه، خرَّ صريعًا أمام المفاجأة التي هزّت أركانه. إنه الصراع من أجل البقاء.

كأنها كانت على دراية بنيّته، فنافسته على الفوز بها، وأجهزت على أحلامه، أنهت فصول مسرحيته. إنها إرادة الله والحظ العاثر، لم تكتمل فرحته، لم يفلح عزمه، وبقيت أموره معلقة على أعمدة الفشل.

أصيب جسده ببرود تام، قطّب جبينه، هبط ضغط دمه فجأة تزامنًا مع وقع الصدمة التي أرخت عضلاته. لم يعد يسيطر على ذاته، صار يندفع وسط التيار، كما جرف التيار السمكة، صار يجرفه بين منعطفات السير. لم تعد قواه تعينه على مواجهة ديناميكية الأمواج، أصيبت أطرافه بالخدر والإنهاك.

كغصن ينحدر مع التيار، تغطسه موجة وتطفو به أخرى. هجس بذاته يبتعد عن حافة الجرف، حلّ به ما حلّ بالسمكة. الظلال افترشت اليباب، والرعب غشي فكره، أضحى وحيدًا

في مواجهة الموت، لا يرى من يستنجد به، بات صراخه لا يتجاوز حدوده، لا أحد يسمعه في تلك العتمة.

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" – صدق الله العظيم.

حاول أن يعيد توازنه، أن يقاوم مدّ الرعب، دون جدوى. الموت زحف نحوه، أصيب بتشنجات، استسلم لمصيره، صار يستنجد بالرحمن والشيطان، يصرخ بأعلى صوته ولا من يستجيب، بل يرتد إليه صداه بالخيبة.

امتلأت بطنه بالماء، تقطعت أنفاسه، بات يشهق ويغطس، لم يفك لغز السمكة، كما جردها من حياتها، جردته من حياته. العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم. في نهاية المطاف، غطس غطسته الأخيرة، بعد أن انتُزعت منه إرادته، ولم يُعثر عليه إلا جثة هامدة على سواحل بغداد الجنوبية.

حاول أن يلعب مع الحظ لعبة القط والفأر، لكنه لم يدرك أسرارها جيدًا. فالنعم التي تُتجاهل تتبخر، ومن يستهين بالفرص، يستهين به الزمن.

من موروثات الوالدة العزيزة، طيّب الله ثراها، وجعل مثواها الجنة برحمته تعالى.

2- مملكة النساء

يحكى بأنه كان هناك شابا يافعا قوي البنية فقير الحال، يعمل مزارعا في حقل أحد الأشرار، ود أن يتزوج أبنت سيده بعد أن هام بها وهامت به، غير أنه اشترط عليه مهرا يفوق قدراته، تقديرا لحسن ومكانة أبنته بين بنات القرية.

ذلك ما دعاه أن يستعين بنصح الأخيار، فذعن لرأي شيخ بعد أن مل التوسل والرجاء. فقال له:...

- عليك أن تغير عملك وتسعى خارج حدود القرية، عسى أن يستيقظ حظك بين العباد، ويفلح فألك لتنال المراد.

ترك الشاب قريته في ليلة ظلماء، دون أن يخبر أحدا عن وجهته، دام به المسير أيام تتبع أيام، حتى وجد ذاته مرهقا عند تلة تحتوي على كهف صغير فقرر أن ينام تلك الليلة بذاك الكهف. شاكيا حاله لذاته نتيجة عسر الظرف والعناء والوحدة،

دخل الكهف مبهوتا، هجس به كهف يمتد جذوره لعمق التأريخ، قديم قدم الخليقة، دشنت معالمه صوره على الجدران، وجد فيه من آثار بقايا قُلل ومعول صغير مدفون وسط الكهف وعظام. يبدو عمره يتجاوز عمر الحضارات.

لجهده وجوعه ومسيره الطويل، أستسلم للرقاد، أمتد على ظهره في وسط الفج كالموتى، لم يأبى للحيوانات المفترسة من أن تفترسه، لحاجته الملحة للنوم وهوان جسده..

وهو غائر في سكرة النوم؛ حلم بحبيبته ترقد جانبه، تعتني به، تقبله، ثم همست بأذنه قائلة له:...

- يا حبيبي، تحت رأسك يوجد كنز ثمين، أن أفلحت في إخراجه سيجعلك من أغنى رجالات القرية..

على تلك الواقعة فزَّ من نومه وهو مبهور من حسن الفأل، غارق بفيض ذلك الامل الذي يبحث عنه، جلس في مكانه وعينيه تدوران في أرجاء الكهف، فلم يجد غير ذلك المعول البالي...

أعاد شريط الحلم على ذهنه بشيء من البهجة والسرور والتركيز، أخذ بيده المعول الصغير وصار يحفر في موضع رأسه كما أخبرته حبيبته.....

خلال الحفر كان قد لمح في الكوة التي حفرها حجرا صغيرا يمنعه من تكملة مشوار الحفر. قرر قلعه من مكانه. وهو يحاول برفشه الصغير إزاحة الأتربة من حول الحجر، وإذ به يكتشف بأنه راس تمثال بحجم طفل صغير.

فرح كثيرا وصار يعتني به، محاولا إخراجه من الكوة بيسر، وما أن رفع التمثال من موضعه؛ حتى خسفت به البقعة التي تحت قدميه، ليسقط على حين غفلة في هوة عميقة دون أن يعلم عمقها ومداها....

أفتقد وعيه، ولم يفيق إلا بعد أن وجد ذاته مرمي تحت شجرة تفاح قرب نبع ماء زلال. أغتسل منه، شرب حتى أرتوى،

تنــاول تفاحــة، ثــم ود أن يســتطلع المكــان، نحــا فــي ســيره مســلكا حجــري أنحــرف بــه يســارا، ليجــد ذاتــه تخــور فــي مدينــة جميلــة كمــدن ألــف ليلــة وليلــة، لفسيفســاء الأبنيــة ونظافــة الطــرق وكثافــة الأشــجار وانتشــاء ضــوع الــورود البهيجــة فــي الســبل، مــا أبهتــه وجدها كل ساكنيها من النساء ذوات الفتن وحور العين.

يا ترى أين أصبح؛ هل دخل الجنة دون أن يعلم؟؟؟؟

ومــا أن وجدنــه يجــوب الشــوارع؛ حتــى القــين القــبض عليــه، قيدنــه إلــى قصــر الملكــة. وجــد ذاتــه أســيرا مســجونا فــي غرفــة مــن غــرف قصــر الملكــة. الغرفــة تحتــوي علــى ســرير مــن خشــب الصــندل وفرشــة مــن الحريــر، فيهــا نافــذة تطــل علــى بحيــرة الطيــور، تحــيط بــه النســاء والخــدم أحــداهنَّ أجمــل مــن الاخــرى، لشــدة النــور الساطع في مفاتن وجوههن وقوامهن.

عنــدها نســيَّ وجــه حبيبتــه التــي تماهــت فــي رشــفة مــن حســن تلــك الفتيــات المحيطــات بــه. صــار يجهــد ذاتــه محــاولا تــذكر شــيء مــن ماضــيه دون جــدوى، جــرد تمامــا مــن كــل مــا كــان يربطــه بقريتــه، وكأنه ولد من جديد.

هكــذا نســـي قريتـــه وأهلـــه وحبيبتـــه، ليســـقط فـــي هـــوة الســـحر والجمــال، لا يعــرف عــن المدينــة ســوى فــيض فــتن تتــدفق فــي ناظريه أينما يتجه.

عــرف مــن الخــدم بأنـــه فيمـــا ســبق كانــت هــذه المدينــة تقتــل كــل رجــل تطــأ قدمـــه ارضـــها.. الفكــرة فــي ذلــك؛ بــان الرجــل فــي تركيبـــة عقلـــه جحـــف، يحـــب التســـلط، كبريـــاءه يجعلـــه يفـــرض

سيطرته بالقوة على القرار والسلطة، يحيد المرأة، يجعلها تنكمش على ذاتها في الزوايا. لذا لم يدعن رجلا يعيش بينهن في المدينة...

كان من عادات هذه المدينة اختيار ملكتها على حسب نسبة الجمال المكنون في الفتاة. بتلك القاعدة يتم حسم الخلاف بين المتباريات. لابد أن تكن الملكة أجمل نساء المدينة، أكثرهنَّ فتنة، أرشقهن قواما لتتوج ملكة على المدينة.

كما أنه يتجدد اختيار الملكة كل أربعة سنوات مرة على ان لا يتجاوز عمرها أربعة وعشرين سنة، وكان قد ألقي القبض على الرجل في يوم تتويج الملكة الجديدة، فتاة في غاية الرقة والجمال، تحمل من الفتنة أجمل ما أبدع الله في خلقه، لدقة معانيها واتزان طولها الرشيق.

ما أن أدخلن هذا الشاب الى القصر الملكي؛ حتى أرفقت به الملكة، كونه ذا فأل خير قد حضر في يوم تتويجها، لذا ودت الاحتفاظ به، فأمرت بإعداد حجرة خاصة له في قصرها، خاصة بعد أن وجدته شابا وسيما قويا لا يكبرها إلا ببضع سنوات، لذا أحبته وودت أن تقترن به.

كانت كل يوم تزداد به حبها وشغفا وفتنة، فقابلها بذات الشعور والطيبة؛ حتى تعلق بها تعلق الروح بالجسد، تناسى كل ما كان يشغله ويربطه بماضيه.

مرت الأيام بسلاسة وكأنَّ الزمن قد أوطف الشوق بين عينيهما، غرز العشق في دروبهما؛ حتى ثبتت القناعة في

قلبيهمـا. إذا اقتنعـت الملكـة بـه زوجـا لهـا، فأصـبح ذلـك الشـاب المزارع ملكا على المدينة دون أن يدري.

قالت له الملكة بعد أن تزوجته:.....

- كل شيء في هذا القصر هو تحت يديك. وكل من في المدينـة يـأتمر بأمرتـك، ولـك حـق التصـرف بشـؤون البلـد، مـا عـدا مكـان واحـد فقـط يحـرم عليـك دخولـه، أو تسأل عنه من باب الفضول...

فأشـارت الملكـة بيـدها إلـى بـاب مغلـق معـزول فـي الجانـب الجنوبي من القصر، قالت له:...

- الا هـذه الحجـرة الوحيـدة، غيـر مسـموح لـك بـدخولها بتاتا.

مـرت عليـة فتـرة وهـو منـتعش بوجـوده فـي القصـر، معـززا، مكرمـا، يعيش عيشـة لـم يحلـم بهـا، لا ينقصـه شـيء، التـزم بتعـاليم الملكة إلى أبعد حد، كان كالريشة بيدها ترسم به سعادتها.

ذات يـوم بينمـا كانـت الملكـة تسـتطلع شـؤون الرعيـة، هـو كـان وحيـدا يتجـول فـي القصـر، تملكـه الفضـول وحـب اسـتطلاع مـا تحويـه تلـك الحجـرة مـن اسـرار لا تـود الملكـة أن يعرفهـا. لحبـه الشـديد لهـا ود أن يعـرف مـا تخفيـه عنـه الملكـة مـن أسـرار، ومـا سر تلك الحجرة الغامضة؟ لماذا تمنعه من الدخول إليها؟؟؟؟..

حيـث دائمـا مـا يكـون للفضـول دور فـي تحفيـز الـذات علـى تجربـة مـا هـو خفـي وممنـوع. كأنـه هجـس بذاتـه قليـل شـأن، ولـن يشـعر

بكرامتـه حتـى يكمـل فضـوله فـي معرفـة السـر.. لـذا قـرر أن يتجـه نحـو ذلـك البـاب المغلـق تحـت سـتر الوحـدة، فـي لفتـة خـالف بهـا قرار زوجته الملكة، راغبا معرفة ما فيها من غرائب وأسرار.

غافـل الخـدم متجهـا للغرفـة المغلقـة، وبهـدوء اللـص أدرك البـاب وهـو يغشـيه الـوجس... مـا أن فـتح البـاب؛ حتـى عصـفت بـه ريـح سـهكة، أغشـت أحداقـه، كشـفاطة سـحبته لـداخل الغرفـة، ليجـد مرمـيٌ فـي ذات الكهـف الـذي سـقط مـن خلالـه مغشـي علـى روحه، وجد ذات المعول ومطواته ملقاة على الأرض بجانبه.

حـاول جاهـدا إعـادة الكـرة ليعـود للمدينـة، إلا أنـه لـم يفلـح بمسعاه، أخذ يتفحص المعول عسى أن يجد فيه حلا للغز، وجد تحتـه عبـارة مكتوبـة عليـه بخـط الثلـث **" لا تحـاول الكـرة، الفرصـة مـرة "** حينهـا فهـم مغـزى مـا جـرى لـه، شـعر بالنـدم الشديد على عدم التزامه بتوصية الملكة.

قـال لـه؛ يـا آدم اسـكن أنـت وزوجـك الجنـة فكـلا مـن حيـث شـئتما ولا تقربـا هـذه الشـجرة فتكونـا مـن الظـالمين فوسـوس لهمـا الشيطان. صدق الله العظيم....

هكـذا عـاد الشـاب لقريتـه خـالي الوفـاض، فقيـر الحـال، معـدم ليبـدأ كما كان من الصفر، يبحث عن مهر لبنت المزارع....

- من مورث الوالدة طيب الله ثراها*

3- الملك والذهب

كـان يـا مـا كـان، فـي سـالف العصـر والأوان، ملـكٌ مـن الملـوك الحِسـان، صـديقٌ للأنـس والجـان، رهيـف القلـب، يحكـم بالعـدل والإحسـان جزيـرةً نائيـة تُـدعى الزبرقـان. جزيـرةٌ تتوسـط البحـر، تفـيض سـحرًا بفـيض الشـجر، لا يزيـد سـكانها عـن بضـعة آلاف، يعيشـون علـى الصـيد والزراعـة، ويغزلـون أيـامهم بخيـوط البساطة والرضا.

ذلـك الملـك العـالِ الشـأن، كـان محبوبًـا مـن شـعبه، كمـا أحـبهم هـو، لورعـه، وعطفـه، وإنسـانيته. وكانـت لـه زوجـةٌ غايـةٌ فـي الجمـال تُـدعى "صـدف"، شـاء القـدر أن يخطفهـا فـي لحظـة ولادة ابنتهمـا البكـر "لؤلـؤة"، التـي فاقـت أمهـا حسـنًا وجمـالًا. اشـتد حزنـه علـى فراقهـا، لشـغفه الكبيـر بهـا، وقـرر ألا يتـزوج امـرأةً غيرهـا، لتبقـى شاخصةً في ذاكرته كالماسة، حتى يدركه الأجل.

كلمـا داعـب لؤلـؤة، خفـق طيـف صـدف فـي خيالـه كالشـهقة، فتخـتلج صـورها فـي شـريط ذاكرتـه، وتنهـال عليـه لحظـات سـعده وأنسـه معهـا. هكـذا بقـي حزينًـا علـى زوجتـه أربـع سـنوات، يعتنـي بلؤلـؤة كمـا تعتنـي الأم بطفلتهـا، فلـم يـنسَ دوره كـأبٍ حنـون قـط. كبـرت لؤلـؤة وترعرعـت أمـام عينيـه، فانبجسـت بالفتنـة مـن رأسـها لأخمـص قـدميها، وصـارت شـعلةً تـبهج حياتـه برقتهـا، وحيويتهـا، وذكائهـا. أفضـت عليـه سـعادةً أنسـته أرقـه وهمومـه، وصارت ولعه في الدنيا، وحضن أمانه ومستقبله.

وذات مساء، بينما كان يتجول في أطراف المدينة يتفقد أحوال الرعية، رأى رجلًا كهلاً أنهكه الجوع والعياء، يحمل حزمةً من الحطب. لتواضعه وشدة ورعه، نزل عن عربته، وأراد أن يتعرف على حاله. أخذ بيده، وسار معه حتى أوصله إلى بيته المترامي في أطراف المدينة. وعرف منه أنه يجمع الحطب ليعيل ابنته الوحيدة "تفاحة"، تلك التي يخاف عليها من الطير أن يخدش حياءها، لفتنتها، وحسنها، وكمال تربيتها، وهي في ريعان عمرها، في العشرين.

ما إن وصل الملك إلى البيت، حتى فتحت له الباب تفاحة، فأعجب بفتنتها، ورشاقتها، وانبساط ملامح وجهها. أوهجت في ذهنه فكرةً لماحة، لمعت مزاجه، دغدغت قلبه، وحركت عواطفه. تلك الفكرة استحوذت على مشاعره، طافت بخياله، وارتقت بصفاتها وحيائها عبق أنفاسه. تعلّق بها، وهجس بها قدرًا يكمل به قيافته وسعادته وحياته.

هكذا دخلت تفاحة مزاج الملك، فأحبها من النظرة الأولى، وسيطرت على أفكاره ومشاعره. ودّها شريكةً لحياته، وأمًا للؤلؤة، لعلها ترفع عنه وعنها كاهل الوحدة السليطة. فأمر مرافقه بتسجيل اسم الرجل وعنوان بيته، واستدعائه هو وابنته يوم الخميس القادم لحفل غداء في القصر، بمناسبة ذكرى تتويجه ملكًا على العرش.

وفي ذات الوقت، شكا الملك ذاته لربه، لثقل همّ الرعية، وضعف إمكانات المملكة المادية، وتمنى لو يخفف وطأة الفقر عن شعبه، فقال في سره:...

"يا رب، لو كنت أملك قناطير الذهب والفضة، لجعلت كل فقراء الجزيرة أغنياء".

سمع همسه صديقته الجنية الورعة، فحنّت عليه، وودّت أن تطيب خاطره، فقالت له:...

- يا جلالة الملك، سمعت دعاءك، وقد صعبت عليّ حالتك، لذا سأحقق لك أمنيتك كما تريد وتسعى.

قال الملك متعجبًا:.....

كيف يا جنية؟ هل لك أن تعلمينني؟

قالت:...

- سأضع في يديك علامة قدرة التمكين، سأجعلك ساحرًا، بحيث ما أن تلمس الشيء بيدك الكريمة، حتى يتحول إلى ذهبٍ أو فضة كما تشاء، وذلك من صباح يوم الغد، الخميس.

شكر الملك الجنية التي حلت له معضلته، وفي صباح اليوم التالي، استيقظ بنشاطٍ غريب وحيويةٍ غير معتادة. ود غسل وجهه بالماء والصابون، وما إن أمسك الصابونة حتى تحولت إلى قطعة ذهب! بهت، وتعجب، ولم يصدق حاله. أخذته النشوة والفرح، فتناسى ذاته ومركزه، وصار يطير في أرجاء القصر، يلمس الجدران والتحف، فتحول القصر لتحفةٍ من ذهب وفضة.

انطلق خارج القصر إلى الحقول والمزارع، وحوّل حول شارع الموكب وأشجار المملكة إلى بستانٍ من فضة وذهب. ثم توجه إلى مزرعة الدواجن والأبقار، ولمس الحيوانات واحدةً تلو الأخرى، فتحولت إلى تماثيل بهيجة من ذهب وفضة. أضحى أغنى رجلٍ في العالم، وفرح فرحًا شديدًا في داخله. تحولت الجزيرة إلى جنينة صفراء، يختلجها نورٌ من ذلك المنظر البهيج، وبدت ككوكبٍ جانح بين أمواج البحر العاتية.

غلبت النشوة على عقله، وغطّت على فكره، لهوسه بتفاحة التي أفرجت عن كربه، وأرسخت في داخله حيويةً جديدة. بظهورها، رفعت عنه غلّ الوحدة والوحشة التي كبلته بعد غروب شمس صدف عن دنياه. كما أن فيض بهجته وانغماسه في ريق الغنى أضفى عليه بسمةً ورفعة، إضافةً إلى وجود لؤلؤة كصدفةٍ تلمع حياته وتذكره بأمها.

أحضر مبعوثه الرجل الفقير وابنته تفاحة إلى القصر، قبل عودة الملك بساعة. وطلب من الحاشية إعداد وجبةٍ دسمة على شرف الضيف وابنته. وما إن حل الملك، حتى جالس ضيفه وابنته على سفرةٍ مذهبة في وسط جنينةٍ من ذهب وفضة، وأوضح إعجابه بتفاحة، فقال:....

- سيدي الكريم، دعوتك إلى قصري لأني أعجبت بابنتك تفاحة، وأود أن أخطبها منك لتكون زوجتي وشريكة حياتي، وأمّا لابنتي لؤلؤة التي افتقدت أمها منذ أربع سنوات. فما رأيك بأن يكون الملك نسيبك؟

قال الرجل الفقير، والفرحة لا تسع قلبه:...

- الرأي رأيك يا سيدي، نحن من رعاياك، ونتشرف بك كأبٍ وصهرٍ لنا.

تهلل وجهه بالفرح، كما تهلل وجه تفاحة بالحياء والخجل، فغطّت بوشاحها أفق وجهها النير. ترقرقت عيناها بدموع الفرح، وهجست بذاتها كطيرٍ حطّ على جنينة القصر.

بعد ذلك، قُدّمت وجبةٌ فقيرة: دجاجة صغيرة، وطبق رز، وشوربة عدس. نظر الملك إلى السفرة، واستدعى الطباخ ليوبّخه:....

- لماذا هذا البخل أيها الأشعث؟ ألم أنبّهك على وجود ضيفٍ عزيز؟

قال الطباخ مرتبكا:....

- بلى جلالة الملك، لكني لم أجد شيئًا أطبخه. الدواجن والأبقار تحولت إلى تماثيل ذهب، مثلها الفواكه والخضروات. لم أجد سوى هذه الدجاجة الفارة من المزرعة.

سكت الملك، وأحسّ بغلطته وطياشه. وما إن أمسك الملعقة، حتى تحولت إلى قطعة ذهبية. خاف أن يلمس الفاكهة، فصار الحرس يطعمه بالشوكة والسكين.

بعد الغداء، أنسته فرحته ذاته، فتقدم ليقبّل يد تفاحة ويأخذها في جولة تفقدية يعرفها على القصر ومحتوياته.. ما أن لمس يديها حتى تحولت لتمثال باهر من الذهب وثياب لماعة من الفضة كثياب العرس.

حينها حزن عليها حزنا شديدا، باتت الدموع تنهمر من مقلتيه، افتقد سروره بالذهب الذي صار يفيض بين يديه، حينها جلس على كرسيه مغشيا، يفكر بأمر الجنية عسى أن تنجده من حيرته.. في تلك اللحظة ودون أن ينتبه قفزت لؤلؤة في حضنه لتتحول هي الأخرى لتمثال صغير من الذهب بين يديه...

أشتد بكاءه ونحيبه، صار يلعن حظه العاثر، يبحث عن الجنية في أعماق فكره، وفي الهواء الذي يتنفس، والريح العابرة على الجدران، عسى أن تخلصه من تلك الشائكة التي جلبت عليه الأحزان أكثر من الأفراح، تلك الجائحة كان قد غص بها، صار يكرهها، حملته على الألم والمشقة.

جلس الملك مذهولًا، والدموع تنهمر من عينيه، يحتضن تمثال ابنته الصغيرة، وقد تحجرت بين يديه، لا دفء فيها ولا حياة. صار يصرخ في أرجاء القصر، يبحث عن الجنية، يندب حظه، ويستغيث بها في الهواء، وفي الريح، وفي كل زاوية من زوايا مملكته التي تحولت إلى ذهبٍ لا يُؤكل، ولا يُحب، ولا يُعانق.

وفي لحظةٍ من الحزن العميق، ظهرت له الجنية، بهيئة نورانية، ترفرف حوله كنسمةٍ من رحمة، وقالت له بصوتٍ حنون:...

- أيها الملك، لقد رأيت بعيني ما فعلت، حولت مملكتك إلى ذهب، لكنك خسرت كل ما تحب. لم يجد شعبك ما يأكل، ولم تجد من يعتني بك، ولا من يزيل عنك هموم الدنيا. الذهب لا يعوّض مباهج الحياة، ولا يملأ فراغ القلب. كان الله قد أعطاك الكثير، لكنك لم تقتنع. كن قنوعًا بما قسمه الله لك، فالقناعة كنزٌ لا يفنى، وهي التي تجلب السعادة الحقيقية.

حينها، جثا الملك على ركبتيه، وتوسل إليها، والدموع تغسل وجهه:...

- أرجوكِ، أعيدي إليّ ابنتي لؤلؤة، وحبيبتي تفاحة. لقد أدركت أن الذهب لا يساوي شيئًا أمام دفء الحب، وحنان العائلة، ورضا الشعب. لقد أخطأت، واستعجلت، وهُزمت أمام هوسي بالثراء. أرجوكِ، خلّصيني من هذه اللعنة.

نظرت إليه الجنية بعين الرحمة، وقالت:...

- سأعيد كل شيء إلى ما كان عليه، وسأرفع عنك صفة التمكين. ستعود مملكتك كما كانت، وإن كنت تبحث عن الغنى، فستجده بالعمل الدؤوب، وبحب شعبك، وبقلبك الرحيم.

ومــا إن أنهــت كلامهــا، حتــى عــمّ نــورٌ ســاطعٌ أرجــاء القصــر، وعــادت تفاحــة إلــى طبيعتهــا، حيّــةً ناعمــةً كمــا كانــت، وعــادت لؤلــؤة إلــى حضــن أبيهــا، تضــحك وتلعــب، وكــأن شــيئًا لــم يكــن. وعـــادت المزرعـــة، والـــدواجن، والأبقـــار، والحقـــول، والفاكهـــة، وكـل شـيء إلـى حالـه الطبيعـي، وعـاد القصـر إلـى رونقـه البسـيط، المليء بالحب والدفء.

تـزوج الملـك مـن تفاحـة، وعاشـت معـه حيـاةً سـعيدة، وصـارت أمًـا حنونـةً للؤلـؤة، ورفيقـةً للملـك فـي حكمـه، وسـندًا لـه فـي أيامـه. أمـا الجزيـرة، فقـد ازدهـرت بالعـدل، والعمـل، والمحبـة، وصـار أهلهـا يـروون حكايـة الملـك الـذي لمـس الـذهب، فعـرف أن السـعادة لا تُشترى، بل تُصنع بالرضا والقناعة.

 مــن موروثــات الوالــدة العزيــزة، طيــب الله ثراهــا، وجعــل مثواها الجنة بإذنه تعالى.

4- أبن آوى*

حكاية ابن آوى وتوبته المزعومة

مـرت علـى ابـن آوى أيـامٌ عصـيبة، جـف فيهـا رزقـه، وذبـل جسـده، ووهـن عـوده. لـم يعـد قـادرًا علـى مطـاردة الطيـور والـدواجن والجرابيـع والأرانـب والثعالـب التـي طالمـا عشـق لحومهـا. شـيخوخة مبكـرة أرهقتـه، وعجـزٌ أوقفـه عـن مجـاراة أقرانـه فـي فضـاء الصـيد. صـبره تآكـل، وأمانيـه تحولـت إلـى فقاعات تتفجر أمام عينيه.

صـار يشـتاق لوجبـة دسـمة تشـفي غليلـه، تطفـئ شـرر عينيـه المفجوعـة، وتلبـي رغبـات معدتـه الشـرهة. لكـن الطبيعـة، كأنهـا تخلّـت عنـه، فلـم تسـنده بفريسـة واحـدة. اضـطر إلـى التهـام الجـرذان والحشـرات، بـل حتـى الحشـائش وأوراق الشـجر، فقـط ليبقي على رمق الحياة ويعوض فشله المتكرر.

الفكرة الماكرة

فـي لحظـة يـأس، خطـرت لـه فكـرة أشـبه بفرقعـة رمضـانية، أيقظتـه مـن غفلتـه: هـو أن يتظـاهر بالتوبـة والـورع أمـام فرائسـه. استلهمها مـن مشـهد صـياد يرمـي شـباكه فـي نهـر دجلـة مـن علـى "الكلـك" — ذلـك القـارب المصـنوع مـن سـيقان الأشـجار والمربـوط بالحبـال، والمسـنود بطوافـات مـن الفلـين أو إطـارات العجلات.

بنــى ابــن آوى كلكــه، وارتــدى جلبابًــا أبــيض، وعصــب رأســه بعصــابة بيضــاء، وعلّــق مســبحة طويلــة فــي يــده، وأرخــى ســنارة في الأخرى. بدا لمن يراه أنه عازم على رحلة حج مباركة.

الدجاجة المسكينة

كانــت الدجاجــة أول مــن خــدع بمنظــره الجديــد. لطالمــا أرعبهــا اسـمه، فكيـف لا ترتبـك حـين تـراه متحـولًا إلـى شـيخ ورع؟ دفعهـا فضولها لتسأله:.....

- هــاي، أبــو الويــو، مــاذا جــرى لــك؟ هــل جننــت؟ إلــى أيــن أنت ذاهب؟

ردّ عليها ببرود وحنكة:

- والله يــا صــديقتي، أنــا ذاهــب إلــى الحــج، لأعلــن تــوبتي مــن أكل الدواجن والأرانب.
- هل أنت جاد؟ أم أنك تخدعني؟
- أقسم بالله أني تبت، وهذه مسألة بيني وبين ربي.

اطمأنــت لــه، وطلبــت مرافقتــه، فوافــق بكــل ترحــاب. نطّــت إلــى الكلـك، وأجلسـها بجانبـه، ثـم أخـرج غتـرة بيضـاء لـفّ بهـا رأسـها. سألته:

- أرى بيدك سنارة! هل تحب السمك؟

فأجاب:

- الطريق طويل، وقد نحتاج إلى الطعام، جلبت معنا خبزًا يكفينا.

كشف عن أقراص الرغيف، فزاد ذلك من طمأنينتها، وقالت له:

- صدقتك، ربنا يجازيك كل الخير.

الديك

مع انحدارهم، لمحهم الديك الذي كان يبحث عن قرينته قرب جرف النهر، تلك التي اختفت فجأة عن ناظريه. توقف مذهولًا، وقد رأى صاحبته الدجاجة جالسة بجانب ابن آوى، ترتدي فوطة بيضاء، والطمأنينة تكسو ملامحها. اخترقته المفاجأة كالسهم، وغرق في صمت طويل. تُرى، ما الذي دفع بها للجلوس بجانب عدوها ومفترسها؟ كيف أقنعها؟ وما الذي تغيّر؟

لم يستطع أن يصمد أمام عاصفة مشاعره، فلوّح لها بجناحه مناديًا: – -

- هاي... يا حبيبتي، هل أنت بخير؟ ماذا أرى؟ أكاد لا أصدق عينيّ! ما سر هذا الجمع؟ وما هذه الأوشحة البيضاء على رؤوسكم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟

سيل من الأسئلة انهمر على وقع اندهاشه، فأجابه ابن آوى برزانة ويقين:-

- إنـي ذاهـب للحـج، وقـد تبـت عـن أكـل الـدجاج والطيـور والأرانب، وسأعلن توبتي أمام الملأ في مكة.

نادته الدجاجة بنبرة مؤمنة: –

- مـا رأيـك أن ترافقنـا يـا رفيقـي؟ تعـال لنعتمـر سـويةً، فهـذه الـدنيا فانيـة، اعمـل لآخرتـك قبـل أن يحـين أجلـك، فمـا لنـا فيها من مآرب سوى حسن الختام.

تـاه الـديك فـي فكـره المضـطرب، محتـارًا بـين عقلـه المتـوجس وقلبـه المخـدوع بمـا تـراه عينـاه المرتجفتـان. أغشـى المنظـر بصـيرته، ورقّ فـؤاده لحبيبتـه، بينمـا أعيـاه التفكيـر. الحقيقـة شاخصـة أمامـه، والفرصـة مواتيـة لزيـارة الكعبـة، لكـن الـزمن لا ينتظـر مـع مجـرى النهـر. القـرار صـعب، والقسـمة جـاهزة تنتظـر منه الاختيار.

وبعـد تمحـيص وتـردد، لان قلبـه، ورضـخ لإرادة حبيبتـه، مسـتغلًا الفرصـة السـانحة بـين يديـه. ربمـا حقًـا تـاب ابـن آوى، فـالله يبـدّل النفوس في ليلة وضحاها.

قال الديك: –

- هل تسمح لي أن أرافقكم؟
- علـى الرحـب والسـعة، المكـان واسـع كمـا تـرى، تفضـل، أسرع، فالنهر جارٍ، لا نستطيع التوقف أو الانتظار.

رمى بنفسه مرفرفًا بجناحيه حتى سقط وسط الكلك، وجلس بالقرب من حبيبته التي ظللته. أخرج ابن آوى من جعبته غترة بيضاء جديدة، لفّ بها رأس الديك قائلاً: ـ

- سعيًا مشكورًا، وحجًا مبرورًا مقدمًا.

كان ابن آوى قد رسا تمامًا على غايته، كما ترسو السفينة في مينائها. استقر بثبات على ما يدور في فكره، متظاهرًا بالكياسة والهدوء، دون أن يفضح سره أو يكشف نيته.

البطة وعلجومها:

وصل الكلك إلى منتجع الطيور، فاستوقفت البطة مشهدًا لم تألفه من قبل. جمعٌ غريب يقترب منها، فيه من التناقض ما يثير الحيرة. خاطبت نفسها بدهشة:

"يا ترى... ماذا جرى لعالم الحيوان؟ أيمكن أن تنشأ صداقة بين المفترس والفريسة؟ ألفة بين الجاني والمجني عليه؟ لا أصدق ما أراه!"

غرابة المنظر أربكتها، فالتفتت إلى علجومها تسأله:

- هل لك تفسير يا علجومي العزيز؟

أجابها وهو يحدق في الجمع:

- أنا مثلك، في حيرة واندهاش. لم أشهد في حياتي مشهدًا كهذا.

دفعها الفضول إلى الاقتراب من المركب، حيث كان الديك والدجاجة وابن آوى يجلسون في انسجام مريب. خاطبتهم:-

- يا هذا، ما قصتكم؟ وما هذه الأوشحة البيضاء على رؤوسكم؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟

أجابها ابن آوى بوقار مصطنع:

- نحن ذاهبون إلى الحج. لقد تبت عن أكل الدجاج والبط والأرانب، وسأعلن توبتي هناك.

قالت البطة وقد خفّ قلبها:

- جميل، الله يهدي من يشاء. وكم ستستغرق رحلتكم؟

ردّ وهو يسبّح بمسبحة براقة:

- شهرٌ تقريبًا، إن شاء الله.

أضفت المسبحة على هيئته وقارًا، حتى بدا كالمعتكفين في الصوامع. قالت الدجاجة:

- ما رأيكم أن ترافقونا؟ لعلها تكون رحلة فلاح وإحسان وجنة الفردوس.

سألت البطة بتردد:

- وهل تسمحون لنا بالرفقة؟

أجاب ابن آوى:

- بالطبع، في الجماعة ثبات وقناعة.

صعدت البطة وعلجومها إلى المركب، وربط ابن آوى رأسيهما بغترتين بيضاويتين، كما فعل مع الآخرين. بدا المنظر أكثر غرابة، فقد أحاط نفسه بأطيب مشتهياته، في هيئة من الورع والتوبة.

كان يعلم أن وجبتي الغداء والعشاء قد أمنت، فتابع رحلته بهدوء وخشوع، متظاهرًا بالإيمان، بينما يخطط لوليمة دسمة.

ومع انكسار الشمس نحو الأفق، ظهر أرنب يتدحرج بين الحشائش، هاربًا من صقر كاد أن يفتك به. مرعوبًا، وجد في المركب الغريب ملاذًا، فنادى بصوت متعب:

- هاي... إلى أين أنتم ذاهبون؟

أجابه ابن آوى:

- إلى الحج، وقد تبت عن أكل الطيور والأرانب.

قالت الدجاجة المخدوعة:

- ما رأيك أن ترافقنا؟ تكسب أجر الآخرة.

رد الأرنب، وقد وجد فيهم طوق نجاة:

- أتسمحون لي بالرفقة؟

أجاب ابن آوى:

- على الرحب والسعة، اقفز حين نقترب من الجرف.

مد له خشبة، فوثب الأرنب بخفة، وصعد إلى المركب، غير مدرك أنه ارتقى سلم المكيدة برغبة، وجلس خلف ابن آوى، الذي ربط رأسه بغترة بيضاء، كما فعل مع الجميع.

الثعلب:-

فيما كانت الشمس تتهيأ للغروب، انعكست صورة القافلة في عين الثعلب الماكر، الذي لم يستسغ اجتماع تلك الحيوانات خلف ابن آوى، فنادى عليهم باستخفاف:

– هاي! ما خطبكم أيها الجهلة؟ إلى أين يأخذكم مفترسكم ابن آوى؟

أجابه ابن آوى متصنعًا الورع:

– أنا ذاهب للحج، أعلن توبتي أمام الملأ، لقد هداني الله للحسنى، ولزمت الصلاة منذ ذلك الحين...

فبرر مسعاه، بينما قالت الدجاجة:

– نحن ماضون في سعينا، فلا تضيع فرصتك السانحة، هلم معنا.

وقال الديك:

– لا تسيء الظن، فبعض الظن إثم.

وقالت البطة:

– الخير فيما اختاره الله.

وأضاف الأرنب:

– نحن جماعة، وعمل الجماعة أفضل من عمل الفرد.

شعر الثعلب بوخز الوحدة، فقرر الانضمام إليهم، متخفيًا خلف غترة بيضاء توحي بالإيمان والنية الصادقة، بينما كان ابن آوى يبارك انضمامه، والشلة المخدوعة ترحب به.

مع حلول الغسق، وابتلاع السماء لوحل الدماسة، بدأ الظلام يجلد القلوب بالجوع والخوف والتعب. قرقرت البطون، وتساءلت العيون الشبقة: متى يجود ابن آوى بكرمه؟ وقد نجحت خطته تمامًا، ولم يبقَ إلا إتمامها بسرية وكياسة.

اقترح عليهم أن يقضوا ليلتهم في جحره خلف تلة اعترضت طريقهم، على أن يستأنفوا الرحلة مع الفجر. وافقت المجموعة المنهكة، ودخلوا الجحر، بينما جلس ابن آوى عند المدخل ليمنع الهرب.

في أول الليل، بطبطت البطة بصوتها المزعج "واق-واق"، تبحث عن ما يسد رمقها، فزجرها ابن آوى:

– أصمتي يا وجه الشؤم! سيسمعنا الإنسان ويفتك بنا!

ثم انقض عليها وعلى علجومها، وجعلهما لقمة سائغة، تاركًا الريش يفترش الأرض كبساط يقئه البرد.

وقبل منتصف الليل، قأقأت الدجاجة برائحة الدم، فزجرها، ثم انقض عليها، واستساغها كوجبة دسمة أخرى، زاد بها نعومة البساط تحت قدميه.

المفترس لا يُؤتمن، وإن تظاهر بالرقة... لا تأمن الشوكة وإن كانت في غصن وردة.

تعلقت الشلة بمصيرها المشؤوم، وكل منهم يتسمر في عين الآخر، ينتظر لحظة تسفيره إلى جوف ابن آوى. دب الرعب في أوصالهم، وتشبعت أساريرهم بالخوف، حتى صاروا كأوراق خريفية.

مع أول الشروق، صاح الديك، ناسياً نفسه، فأيقظه ورفاقه من النوم. فزجره ابن آوى:

– ما بك جالس من الفجر تسلب راحتنا؟ أتريد أن يعرف الإنسان مكاننا؟

ثم انقض عليه، وهرسه بين أسنانه، تاركًا ريشه يتناثر في المكان.

بقي الأرنب والثعلب في صمت قاتل، لا يستطيعان الهرب، وسيف الخوف مسلط على المدخل. أصيب الأرنب بالهلع، فبدأ ضغيب بصوت مرتعد، وأفرج عن غازات نتنة أزكمت خياشيم ابن آوى، فغضب وانقض عليه، وجعله وجبة غداء دسمة.

وقبل أن يفرغ من الأرنب، تمتم الثعلب:

– أسمع صوت بشر قرب الجحر...

ارتبك ابن آوى، وخرج يستطلع الأمر، فاستغل الثعلب الفرصة وهرب، منقذًا نفسه بفطنته، قائلاً:

– ربي، نجيتني من ابن آوى، فلك عندي نذر قربة دبس، على ألا تريني وجهه ثانية.

وفي طريقه، رأى قافلة، فتتبعها، وثقب إحدى قربها بأسنانه، فخر منها دبس مراق، وبه وفى نذره.

الخدعة كانت درسًا وعبرة: لا تثق بعدو مهما لان واستتر.

ويصدق المثل الشعبي: "من يعيش بالحيلة يموت بالفقر" ينطبق على ابن آوى وكثير من أمثاله ممن يتخذون الكذب والخداع منهجًا.

5- الديك والقاضي *

خلال سرحه في البقيع، وجد الديك بذرة شعير، التقطها، أحتفظ بها، فكر أن يستغل عقله الراجح في الاستفادة منها بممارسة الدهاء والحيل ضمن مضمار السذج من البشر، لتدر عليه فائدة وسعادة تغنيه عن مشقة العمل.... فصار يشهر بها بين الملأ.

دخل في أحدى المقاهي التي يجتمع بها لفيف من الحمقى والسذج العاطلين عن العمل، الذين ليس لديهم ما يشغل بالهم سوى التبجح والملاسنة بهموم وقضايا الناس.

نادى بهم الديك.....

- من يريد بذرة شعير، من يريد بذرة شعير...

أحد السذج (رقم1) ود الاستفادة منها، فطلبها منه، فأعطاه البذرة ثم ذهب لداره.

وفي اليوم التالي جاءه طارقا باب بيته، طالبا بذرة الشعير منه، قائلا له:......

- يوم أمس أمنتك على بذرة شعير، وأني اليوم أود أن أستردها، فلو زراعتها في الحقل، ستصبح سنبلة تحمل عشرات البذور..
- لكني فقدتها خلال عودتي للبيت!----
- إذا سأشكيك إلى القاضي!

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه قائلا:...

- يا قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي بذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين.

قال القاضي للمغفل:...

- أعطيه قندة عجين مقابل الحبة التي أمنك عليها، وإلا ستسجن.

رضخ لأمر القاضي فأعطاه قندة عجين.

*****

كرر الديك فعلته في مكان آخر --

نادى بين جمع غفير من الجالسين على الرصيف:...

- من يريد قندة عجين !من يريد قندة عجين....
- الساذج (2) : أنا أريد قندة عجين.

أعطاه قندة العجين، رجع بها مسرورا إلى البيت.

في اليوم التالي جاءه الديك طارقا باب بيته، مطالبا بقندة العجين قائلا له:..

- يوم أمس أمنتك على قندة العجين، أرجو ان تعيدها إلي.

- لكنك وهبتها إليَّ وأنا أكلتها.
- بل أني استأمنتك عليها، فلو خبزتها وبعتها لشريت بثمنها حاجة تنفعني. فأن لم تعيدها إليَّ سأشكيك إلى القاضي.

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه:..

- يا قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين – قندة عجين -- صفطة رغيف. أي (صف رغيف)

قال القاضي للمغفل(2): أعطيه صف رغيف وإلا تدخل السجن.

رضخ لأمره، أعطاه صف رغيف....

*****

كرر الديك فعلته في موقع جديد لم يطرقه من قبل، وجد أنها طريقة مربحة، لذا صار يستلذ بمردودها.

صار يعلن بين الملأ: من يريد صفطة رغيف ؟ من يريد صفطة رغيف ؟

الساذج(3): أنا أريدها.

أعطاه صف رغيف وكل ذهب لبيته.

في اليوم التالي طرق الديك باب بيته مطالبا إياه بصف الرغيف، قائلا له:...

- يوم أمس أمنتك على صفطة رغيف، اليوم أني بحاجة إليها، أعد لي صفطة الرغيف التي استأمنتك عليها.
- لكنك وهبتها إليَّ، وأني أكلتها.
- لم أهبها لك، بل استأمنتك عليها، لو تصدقتُ بها أو بعتها في حي الأغنياء لشريت بقيمتها خروفا. إن لم تعدها ليَّ أشكيك إلى القاضي .

ذهب الديك للقاضي يشكيه:...

- يا قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين-- قندة عجين صفطة رغيف – صفطة رغيف جلب الخرفان.

قال القاضي: أعطيه خروفا لأنك خنت الامانة، وإلا تدخل السجن.

أخذ الديك منه خروفا.

*****

كرر الديك فعلته في مكان جديد:...

- من يريد الخروف ؟ من يريد الخروف؟

الساذج 4: .. أنا أريده.

اعطـاه الخـروف، ذبحـه، بـاع الجلـد والصـوف والكرعـان، بـاع بعض لحمه وترك جزءا منه للبيت.

في اليوم التالي جاءه الديك مطالبا بالخروف!!قائلا:...

- يوم أمس أمنتك على الخروف، أرجو أن تعيده إليَّ.
- لكنك وهبت الخروف لي، فذبحته وأكلت لحمه!
- لـم أهبـك الخـروف؛ بـل اسـتأمنتك عليـه، هـو كـل مـا أملـك، فلـو ذبحتـه وبعـت لحمـه وجلـده وصـوفه بثمنـه استطيع أن أتزوج!، أن لم تعيده إليَّ سأشكيك للقاضي.

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه قائلا:..

- يـا قاضـي قاضـي – ربـك عليـك راضـي – أنـا دويـج الحسـين – رابـي فـي ذاك البطـين – لقيـت حبـة شـعير – حبـة شـعير قنـدة عجـين – قنـدة عجـين صـفطة رغيـف – صـفطة رغيـف جلـب الخرفـان – جلـب الخرفان جذب النسوان.

قال القاضي: أعطيه بدل الحروف امرأة! وإلا ستسجن!!

أعطاه عروسة جميلة.

أخذ الـديك عروسـته التـي جاهـد مـن أجلهـا بـالمكر والخـداع، حتـى وصـل غايتـه، مسـتغلا رجاحـة عقلـه بـين السـذج– معتمـدا علـى فكرة (الغاية تبرر الوسيلة).

غايتــه قــداس حياتــه، أنهــا جــوهرة، تســتحق المجازفــة والحيــل، فمــن لا شــيء تمكــن مــن ان يرفــد حياتــه بســعادة فيهــا كــل شــيء، مستغلا بساطة وسذاجة بعض البشر.

الحكمــة؛ يســتطيع الفــرد أن يصــل لمبتغــاه بتشــغيل عقلــه، عليــه أن يعمـــل فـــي وســـط مناســـب، دون التجنـــي واســـتغلال الآخـــرين كالديك.

نعيب زماننا والعيب فينا - ترانا نلام على ما فينا

من يقنع الديك بحماقته - ومن يمنع ثعلبا يقاضينا

----

* (من الموروث الشعبي – من حكايات أبي رحمة الله عليه)

6- لغز السعادة

يُحكى أن تاجرًا ثريًا جاور حطّابًا فقيرًا في حيٍّ متواضع، وكان بيت التاجر شامخًا يطلّ على بيت جاره البسيط، حتى بات يلمح تفاصيل حياته اليومية من نافذته العالية.

كان التاجر غارقًا في تجارته، يتعامل في كل شيء: غذاء، أدوات، أجهزة، حتى بات الزمن عنده سلعة تُقاس بالدقائق. لا وقت لديه للراحة، ولا فسحة لعائلته، فزوجته وأطفاله كانوا يعيشون على هامش أيامه، يمرّ بهم مرورًا عابرًا، كأنهم زبائن لا أكثر.

زوجته، التي كانت يومًا مرآة أنوثة وبهجة، بدأت تذبل. الوحدة أكلت من روحها، والروتين كسر ألقها، حتى صارت تشعر بأنها فقدت جاذبيتها، وأهملت أناقتها، وتحوّلت إلى ظلّ امرأة كانت. لم يعد في البيت دفء، ولا في العلاقة حنان، فالمادة بطغيانها أرهقت العاطفة، وأطفأت شعلة الألفة.

أما الحطّاب، فكان يعمل يومين في الأسبوع: يوم للحطب، ويوم للبيع. يعيش بالكفاف، لكنه يعيش. كان يجد وقتًا لعائلته، يمازحهم، يتنزه معهم، يضحك من قلبه، ويشعر أن فأسه رفيق لا أداة. أحب عمله حتى صار بينه وبين الفأس تخاطر روحي، يستمد منه طاقة، ويجد فيه سكينة.

العمل اليدوي، رغم مشقته، كان مصدرًا لحيوية الحطّاب، يمنحه جسدًا قويًا ونفسًا مطمئنة. يعود إلى بيته بروح مرحة،

يمــلأ البيــت ضــحكًا ودفئًــا، فتغــدو زوجتــه ســعيدة، وأطفالــه فــي انسجام، والبيت في حالة من البهجة الدائمة.

راقبـت زوجـة التـاجر بيـت الحطّـاب، فـرأت فيـه مـا افتقدتـه: بسـمة دائمـــة، هيصـــة بريئـــة، لا شـــجار، لا تـــوتر. شـــعرت بـــالغيرة، بالحسـد، بالخـذلان. كيـف لبيـت فقيـر أن يكـون أغنـى مـن بيتهـا بالحب؟ كيف لفأس أن يهزم ثروة وتجارة؟

أمــا التــاجر، فقــد بــدأ يلاحــظ تغيّــر زوجتــه، عصــبيتها، افتعالهــا للمشـــاكل، انعكـــاس ذلـــك علـــى أولاده، وعلـــى عملـــه. أدرك أن هنـاك خلـلًا، لكنـه لـم يعـرف أن الخلـل فيـه، فـي نمـط حياتـه، فـي أولوياته.

فــي المقابــل، كــان الحطّــاب لا يهــتم للغــد، ولا للمــال، بــل للحظــة. يعيشـها بكـل تفاصيلها، يسـعد بهـا مـن يحـب، ويكتفـي بمـا يجـود بـه رزقــه. كــان زاهــدًا، قنوعًــا، مســتقيمًا، فغــدت حياتــه متناغمــة مــع الزمن، لا تصارعه بل ترقص معه.

راقبــت زوجــة التــاجر بيــت الحطّــاب لأشــهر، فلــم تــرَ فيــه ســوى ســـعادة شـــفيفة، لا شـــجار ولا زعـــل ولا قهـــر، حيـــاة هادئـــة، متجـذرة فـي الرضـا. أدركـت أن السـعادة لا تُشـترى، بـل تُصـنع من الحب، من البساطة، من الوقت الذي يُقضى مع من نحب.

ومــع كــل لحظــة مراقبــة، كانــت الغصــة تكبــر فــي قلبهــا. فعلــى الــرغم مــن ثــراء زوجهــا، لــم تجــد فــي بيتهــا طعمًــا للهنــاء. كــل شــيء متــوفر: المــال، الراحــة، حتــى مظــاهر الحــب... لكنهــا لــم

تجد القناعة، ولم تلمس دفء العلاقة. تساءلت: كيف لبيت فقير أن يفيض بالسعادة، وبيتنا الغني يضج بالفتور؟

تسلل الحسد إلى قلبها، فبدأت تحتقر فتور العلاقة، وتشتكي غياب الحميمية. كادت أن تنزلق إلى هاوية اليأس والانحراف، لولا مخافة الله التي كبحت جماحها. فقررت أن تواجه زوجها، أن تصارحه بكل ما يعتمل في صدرها، قبل أن يجرفها سيل الندم.

قالت له:....

- يا زوجي العزيز، ألا ترى كيف تتفاقم العقد بيننا؟ ألا تشعر بأنك غائب عنّا؟ علاقتنا تفتقر للحميمية، وأنا لم أعد أراك إلا كقطعة أثاث في البيت. حتى الأثاث أعيش معه أكثر مما أعيش معك. المال الذي تكدسه جلب لنا العلل، لا السعادة. أنظر إلى بيت جارنا، رغم فقره، إلا أن السعادة تملأ أركانه. دعنا نحل مشاكلنا، دعنا نحدد ما ينقصنا.

رد الزوج، وقد بدأ يستشعر الألم في كلماتها:...

- وماذا ينقصك يا حبيبتي؟
- ينقصني وجودك، دفؤك، اهتمامك. ما نفع المال إن كنا لا نشعر بطعم الحياة؟ حتى اللقمة باتت ثقيلة، كأن الحسد تسلل إلى طعامنا وملبسنا. الوحدة تحاصرنا، أولادك بحاجة إليك، وأنا أحتاجك كزوج. جارنا فقير،

لكنه سعيد... دعنا نراقب حياتهم، لنتعلم منهم، لنعيد بناء علاقتنا.

كان الزوج يتمتع بذكاء وفطنة، فهز رأسه معتذرًا، ووعدها أن يتفرغ لها ولأولاده، أن يخصص وقتًا للمتعة والفسح، أن يعيد ترتيب أولوياته.

وفي صباح اليوم التالي، أرسل أحد عماله إلى جاره الفقير، يدعوه للحديث في أمر يخصه. استقبله بحرارة، وقال له:

- أنت جاري، ويؤسفني أن أراك في هذا الوضع. أود مساعدتك، وأرى أنك تملك وقتًا للعمل معي. يمكنك أن تبقى حطّابًا في أوقات فراغك، وتكسب مالًا إضافيًا.

رد الحطّاب بسعادة:...

- حقًا ما تقول؟ أنا ممتن لعرضك، الحياة أصبحت معقدة مع كبر الأولاد، وسأكون حاضرًا متى شئت.

فقال التاجر:

- ما رأيك أن تبدأ معي بتجارة صغيرة؟ اشترِ البيض من القرى، واجمعه في دكاني. أنا أبيع جزءًا، وأنت تبيع الجزء الآخر على البيوت بأسعار أقل. نقتسم الأرباح، وتكسب رزقًا طيبًا، تطعم أسرتك، وتلبسهم أجمل الثياب، وتعيش حياة كريمة.

وجـد الحطّــاب فــي عــرض جــاره فرصـــة ذهبيــة لتغييــر حياتــه، فرصـــة للارتقــاء، للعــيش بكرامـــة، ولــرد الجميــل لمــن رأى فيــه الإنسان قبل الفقر.

وبــذلك انطلــق الفقيــر يعمــل ويجــد ويجتهــد. يخــرج مــع خيــوط الفجــر، ولا يعــود إلا مــع غــروب الشــمس، يــدور فــي القــرى والأريــاف خلــف غايتــه، يطــوف الأزقــة والبيوتــات يجمــع منهــا البــيض، ثــم يبيعــه علــى بيــوت المدينــة. ومــع كثــرة مــا فــاض بــين يديــه مــن رزق، بــات لا يســتكين، منشــغلًا بنغمــة عــدّ الأمــوال، غارقًا في حساب المكاسب والخسائر.

ومـع مـرور الأيـام، لـم يعـد يجـد وقتًـا يجـالس فيـه زوجتـه وأولاده. تـرك النزهـات، ونسـي اللعـب والمـرح، وصــار لا يعـود إلـى بيتـه إلا متعبًـــا، منهكًـــا، لا يملـــك مزاجًـــا للملاطفـــة أو المغازلـــة، ولا وقتًــا كافيًــا للنــوم أو الراحــة. باتــت المعاشــرة الزوجيــة تقــل وتنــدر، وانشــغل فــي أوقــات فراغــه بتصــنيف البــيض وتحديــد أســعاره، دون أن يلتفت إلى ما ينقصه من دفء العائلة وحنان اللقاء.

وبعــد شــهر مــن العمــل المضــني، ســمعت زوجــة التـــاجر أول مشــاجرة حقيقيـــة بـــين الفقيـــر وزوجتـــه. حينهـــا ارتســـمت علـــى وجههــا ابتســامة عجــب، لا شــماتة، بــل اســتغرابًا. اقتــرب زوجهــا منها، وهمس في أذنها:

- هـل عرفـتِ سـر مشـاجرتهم؟ حـين يتبـع المـؤمن خطـوات الشـيطان، تهـرب منـه الملائكـة. أنظـري إلـى المسـكين، غـرق فـي عـدّ البـيض ومـا جنـاه، فنسـى زوجتـه وأولاده

وسـعادته. أنظـري إلـى وجـه زوجتـه، يكـاد الحـزن يتقطـر مـن جبينهـا، والكآبـة تنـدلق مـن ملامحهـا. اختنقـت بـدخان المـال الـذي صـار بـين يـدي زوجهـا. كلاهمـا بـات يعـيش فــي وادٍ مختلـف؛ هــو يلهـث خلـف الغنــى، وهــي تفتقـد الحنان.

فردت الزوجة:.....

- والله صــدقت، المــال تلاعــب بالأســرة، لا بــد أن فــي الأمر خللًا.

قال التاجر:.....

- الخلل هو أن شيطانه غلب إيمانه.
- ماذا تعني؟

ابتسم وقال:.....

- هـذه هـي حـال الـدنيا... تَبْـيَضْ مـع الحطـب وتَسْـوَدْ مـع البيض! هههههههههه.

وضــحك ضــحكة طويلــة، فيهــا حكمــة وســخرية مــن مفارقــات الحياة.

*من موروثات الوالدة الله يرحمها ويحسن اليها...

7- حسن كاروب *

لم يكن حسن كاروب ينتظر رزقًا إضافيًا ليزداد قناعة بالحياة؛ فقد كان راضيًا بقسمته، شاكرًا لنعمته، مهووسًا بأرضه، صبورًا على رزقه. طالما يكرب أرضه ويزرعها، فلا يرتجي سوى عطفة السماء أن ترفد تربته بوابل المطر. كل شيء عنده محسوب بقدر، وتلك هي جوهر قناعته.

لم يكترث للظروف وإرهاصاتها رغم هوانه وكبر سنه؛ ففي كل عام يزرع أرضه بشتى المحاصيل، ثم يتأمل أن تدر عليه خيرها بهدوء. ذلك هو ديدنه منذ شبابه.

لكن الصدفة ولّدت منعطفًا غريبًا في حياته، أجبرته على تقبل واقع جديد دون أن يستوعبه. حلت عليه كالصاعقة، هيّجت نواميس فكره، وفجّرت الرزق بين يديه كينبوع ماء في لحظة غفلة. أزاحت عقد الحياة من طريقه، وتبدّل حاله، فغمرته راحة بال وسعادة لم يتوقعها قط. تلك الصدفة غيّرت نمط معيشته، وحرفت عجلة الزمن عن مسارها، فارتدى حلة جديدة صار يحسد نفسه عليها.

كل شيء من حوله بات ينطق بالعجب. السعادة التي كان يظنها حقيقية، لم تكن سوى تعاسة متنكرة، والوضع الذي كان يرتعد منه صار ومضة سعد تشع في رواق صبره. انقلبت آية حياته رأسًا على عقب، كأنما ركب مركب القدر وتخطى لعنات الحياة بثوب جديد فضفاض.

بـدأت قصـته مـع الـذئب حـين هـمّ الأخيـر بمهاجمـة بقرتـه الحلـوب، لكنـه جـبُن أمـام تأهـب حسـن، وارتبـك فـي لحظـة ضـعف فـأطلق ضــرطة محرجــة أمامــه. خجــل الــذئب خجــلًا مهينًــا، اصــفرّ وجهـه، تراخـت أطرافـه، وخـارت عزيمتـه. شـعر بمهانـة وعـار لصـقا بـه، وأدرك أن عليـه حـل هـذه العقـدة، إمـا بمواجهـة حسـن، أو بهجر المقاطعة، أو بالاتفاق معه.

فكـر الـذئب مليًـا؛ فهجـر المقاطعـة يعنـي التخلـي عـن مسقط رأسـه، ومرتــع طفولتــه، وخــزين ذكرياتــه. كمــا أنــه سيصــبح موضــع سـخرية بـين الحيوانـات، وقـد يفشـي حسـن سـره، فيعـرف القاصـي والـداني بقصـته. وإذا مـا هـاجم حسـن قـد لا يـنجح وإذا نجـح فقـد تجر عملية الثأر أولاده للانتقام منه لاحقًا.

وجـد الـذئب أن الاتفـاق هـو الحـل الأمثـل: علـى أن يكتم حسـن سـر ضــرطته، مقابــل أن يجلــب لــه خروفًــا كــل صــباح، بشــرط ألا يبـوح قصـته حتـى لزوجتـه. اتفـق مـع حسـن علـى ذلـك الشـرط وإذا أخلا به سينتقم منه.

وافـق حسـن علـى مضـض، فقـد وجـد نفسـه داخـل نفـق مظلـم لا مفـر منـه. رأى أن اسـتغلال الموقـف لصـالحه هـو السـبيل لإعـادة التــوازن لحياتــه. فــالأمر عنــده تفاهــة، لكــن عنــد الــذئب مســألة كرامة وهيبة.

وهكـذا صـار الـذئب يجلـب لحسـن خروفًـا مـع آذان الفجـر، وصـار حسـن وأسـرته يـأكلون هنيئًـا مريئًـا دون التفكيـر فـي عنـاء الغـد. لكـن مـع تـوالي الخـراف، بـدأت زوجتـه تطـرح الأسـئلة. راودهـا

الشك، وألحّت على معرفة مصدر النعمة، بينما ظل حسن عاجزًا عن البوح بسر من أين لك هذا؟... ذلك السؤال الذي أرهق ذهنه محاولا تجنبه، وهو غير مصدق ما حصل له من رغد وسعة في الرزق، أضحى يتهرب من سؤالها، يجيبها بإجابات مربكة غير مقنعة؛ بات محتارا بين الذئب والزوجة... خرافٌ تفتك بالسكينة

لم تعد إجاباته تطفئ نار فضولها، بل باتت تُشعلها. كانت تجد في كلماته استهزاءً صريحًا بشخصها، وكأنها لا تستحق الحقيقة. يقول لها ببرود:-

- كُلي يا بنت الناس، الله يرزق من يشاء بغير حساب. أنت تعرفين زوجك، لا أحتمل السحت ولا الحرام. إنه رزق من الله وقدر مكتوب.

كلماتٌ أراد بها إرضاء الجميع: الذئب الذي يترصده في الظل، والزوجة التي تشتعل شكًا، والرزق الذي لا يريد أن يُغلق بابه. لكنه لم يدرك أن التوازن بين الأطراف المتناقضة لا يدوم طويلًا.

أما هي، فقد ملت أسطوانته المكررة، تلك التي لا تُشفي غليلها ولا تُرضي عقلها. أرادت تفسيرًا، أرادت الحقيقة، لا تبريراتٍ جوفاء. الفضول الذي سكنها لم يكن عابرًا، بل تحول إلى لعنةٍ تنهش نعمة البيت، وتُجفف عروقه. تلك الأفعى المختبئة في أحراش ذهنها، سمّمت فكرها، شلّت قدرتها على الفهم،

وأوهنت قواها. البيت الذي كان يومًا مرفأً للسكينة، صار جحيمًا من الشك والكآبة، وصمتًا يصرخ في الجدران.

ارتفع دخان التعاسة، وصار الخلاف مرئيًا للجار، والزوج يخنس في زاوية اليأس. لم تهدأ، بل تأججت شكوكها بعفة زوجها. كيف له أن يأتي بالخراف؟ من أين؟ وهو لا يملك قوت يومه. أوهامها دفعتها إلى اتهامه بالخيانة، وكأن تلك الخراف جاءت كلعنةٍ على سعادة البيت. لم يشغلها شيء سوى سيرتها، حتى بات حل المعضلة من سابع المستحيلات، والفجوة بينهما اتسعت حتى وصلت إلى الطلاق.

هي ريفية، تربّت على الصدق والعفة، تحفظ الأحاديث وتؤمن بها: "إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به"، "ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يُبالي المرءُ بما أَخَذَ المالَ أمِن الحلال أم مِنَ الحرام". هذا الشرف لا يمكن أن تتخلى عنه، حتى في أسوأ الظروف. جذورها مغروسة في العزة، لكنها لا تريد أن تهدم جدار العشرة.

ما أرهقها هو تكتم زوجها، ذلك السر الذي يخفيه عنها، ذلك الذي يُشغل تفكيرها ليلًا ونهارًا.... أما حسن، فقد دحرجته الظروف بين فكي كماشة: الذئب والزوجة. لا يستطيع إفشاء السر خوفًا من انتقام الذئب، ولا يطيق مرارة العيش مع زوجة تشك فيه. البيت تصدعت جدرانه، والذهن فقد استقراره، والسعادة غابت عن الفراش.

خارت قواه، نبذ الألفة، خف نبض القلب، وكلّ البدن. الحياة لم تعد نزهة، بل صارت شقاءً بلا راحة، ومحبةً بلا دفء، وضحكًا بلا صدق. ترنح فكره بين سعادة الأمس ولهجة الحاضر التعيس. هو يعرف أنه يمسك برأس الخيط، يعرف قوته وامتداده. إنها معادلة الحياة: الربح والخسارة، الجهد مقابل السعادة، إفشاء السر مقابل رضا الزوجة. لكن... هل يستحق السر كل هذا الثمن؟

إذاً لا مفرّ من إفشاء السر للزوجة، علّ المياه تعود لمجاريها، وإلا فالنتائج ستكون وبالاً عليه وعلى الأسرة بأكملها. لكن الذئب لن يترك حسن على سجيته، فقد أحاطه بعيون ومجسات تراقب كل حركة وسكنة، حتى وهو راقد في فراشه. لقد وضعه تحت مراقبة مجهرية، لا يتهاون في شيء يمس كرامته أو شخصيته.

وفي إحدى الليالي، قال حسن لزوجته وهو في مضجعه:

- يا امرأة، كفي عن شكوكك. سأفشي لك سر الخراف، بشرط أن تكتمي الخبر في نفسك، تجنبًا لانتقام الذئب مني. عليك أن تثقي بزوجك، أن تكوني له سندًا لا عبئًا. مثلما يؤلمني الحال، يؤلمك، وما بيننا من عمر هو أكبر من كل أوهامك التي قضت على سعادة البيت، وربما ستقضي على الرزق الجاري.
يا زوجتي العزيزة، السر هو أن الذئب ضرط أمامي، وطلب مني كتمان الأمر مقابل أن يجلب لنا كل صباح خروفًا من الخرفان. وما عليك سوى كتمان السر.

وفـي صـباح اليـوم التـالي، وجـد حسـن الـذئب واقفًـا أمـام الـدار، دون أن يجلـب لـه خروفًـا كمـا اعتـاد. ارتبـك، فقـد رأى فـي ملامحه نزقًا وشرًا، فاستعد لمواجهته. سأله بحذر:...

- أراك لست على ما يرام، ما بك اليوم؟

فرد الذئب بحدة:..

- لقد أخلفت اتفاقنا بإفشائك السر لزوجتك.

ضحك حسن ضحكة ماكرة وقال:...

- مهـلًا يـا صـديقي العزيـز، لا تسـتعجل الأمـور. هنـاك أمـر هـام يخصـك، كأنـك لا تعلـم بمـا يُحـاك ضـدك فـي قصـر الملك.

قال الذئب بقلق:...

- أمر هام؟ ما هو؟

رد حسن:

- أنـت مراقـب مـن قبـل حاشـية الملـك، أنـت مطلـوب حيـا أو ميتا.

ارتبك الذئب وسأل:..

- أفصح! ماذا تقصد؟

أشار حسن إلى الأفق وقال:...

- أتـرى تلـك العجاجـة التـي علـت؟ تلـك الغبـرة التـي غلّـت الطريق؟

قال الذئب:.....

- وما ذاك يا حسن؟

أجاب:..

- إنــه جـيش الملـك، يبحثـون عـن كبـد الـذئب ليجعلـوه دواءً لعين الملك.

ارتعد الذئب، وتوجس خيفة، ثم استنجد بحسن:...

- سـامحني، سـأكون فـي خـدمتك وطاعتـك طـول عمـري، فقــط أرجــوك أن تخبئنـــي فـــي بيتـــك، وسأعوضـــك عـــن إحسانك.

جلب حسن كيسًا كبيرًا (شوالًا)، وقال له:

- ادخـل هنـا، فلـن يـراك أحـد. ثـق بـي، سيظنونك مـن مـؤن المنزل.

دخــل الــذئب المرتعــب الشــوال، فــأحكم حســن ســداد فتحتــه، ثــم جلـب هـراوة غليظـة كـان يحتفظ بهـا لوقـت اللـزوم، وانهـال عليـه ضـــربًا حتـــى فاضـــت روحـــه. وهكـــذا خلّـــص نفســـه مـــن شـــره، وأغلق باب رزقه.

عاد حسن إلى زوجته غاضبًا وقال:

- لـم تصــبري علــى الــرزق، فضــولك الــذي لا يكــل ولا ينتهــي أعمــاك. بـئس التفكيـر السـلبي وبـئس العنــاد. كـاد الـذئب أن يفتـك بنــا لـولا نبـاهتي. فرضــتِ تعاســة علــى البيــت، صــبغتِ كـل شــيء جميـل بلـون قـاتم، ذبحـتِ سـنين العشـرةِ بالشـك. لـم تصـبري علـى رغـدِ العـيش، لـم تراعـي عمـري وانكسـار ظهـري فـي العمـل. تلـك القشــة التــي بحثــتِ عنهــا قصــمت ظهــر البعيــر. الــذئب عــرف بإفشــائي الســر لــك، تربصــني أمــام الــدار، كــاد يقتلنــي لــولا حكمتي. يجب أن تدركي أن بعض الظن إثم.

* (هــذه القصــة مــن المــوروث، كــان قــد حكاهــا لنــا المرحــوم الوالد العزيز، طيب الله ثراه).

8- فروة السبع *

في صباحٍ هادئ، التقى الثعلب باللقلق عند بركة ماء. وبينما همّ اللقلق بالتقاط سمكة دسمة، انقضّ الثعلب عليها بخفة، وحرمه من وجبته المرتقبة. شعر اللقلق بالإهانة، وغلى الغيظ في صدره، لكنه أخفى مشاعره، وتظاهر بالود، ثم دعا الثعلب إلى مأدبة غداء في بيته، مدّعيًا رغبته في صداقة حميمة.

انخدع الثعلب بحسن النية، ولبّى الدعوة في الموعد المحدد. جهّز اللقلق الطعام الحمص(اللبلبي)، وصبّه في صحن عميق لا يستطيع الثعلب أن يأكل منه، بينما التهم اللقلق الحبوب بسهولة. شعر الثعلب بالإهانة، لكنه كتم غيظه، ودعا اللقلق لردّ الجميل بوليمة في بيته.

وفي اليوم التالي، حضر اللقلق على مؤدبة الثعلب، وجهّز الثعلب صينية كبيرة مملوءة بالحساء، فراح يلحسه بسهولة، بينما عجز اللقلق عن تناوله. اشتدّ حنق اللقلق، لكنه حفظ عيضه في داخله. ثم قال للثعلب:

- أتود أن تتعلّم أسرار الطيران؟
- تفاجأ الثعلب، لكنني ليس لدي جناحان.
- لا عليك انا عندما تعلمت الطيران لم تكن لجناحي ريش، اصعد على ظهري وستتعلم رويدا رويدا.

صعد على ظهره وطار به عاليًا. شعر الثعلب بنشوة لم يعهدها، وقال:

- أشعر بمتعة عظيمة وخوف من الارتفاع... كم هي رائعة الحرية!
- صعد به اللقلق أكثر، وسأله: بماذا تشعر؟ ماذا ترى الآن؟
- الأشجار صغرت، والناس بدوا كالنمل.

ثم ارتفع أكثر، حتى لم يرَ الثعلب شيئًا سوى سدم معتمة، وفجأة، رماه اللقلق من ذلك العلو الشاهق. وبينما يهوي كالشهاب، دعا ربه:

- يا رب، أسقطني على فروة الراعي، كي لا تتكسر ذراعي.

استجاب الله لدعائه، فسقط على فروة مرمية فوق بيدر تبن، ونجا من الموت. ارتدى الفروة، وعاد إلى داره، ممتنًا لنجاته، وقد تعلّم ألا يثق بمن لا يشبهه.

في طريق العودة، قابله الأسد، وأعجب بالفروة التي يرتديها، فسأله:

- من أين لك هذه الفروة الجميلة؟

ارتبك الثعلب، ثم قال:

- صنعتها بنفسي، إنها مهنتي التي ورثتها عن أبي وجدي.

طلب الأسد منه أن يصنع له فروة مماثلة، فوافق الثعلب، وطلب من الاسد أن يجلب له خروفًا يوميًا ليصنعها، مدّعيًا أن العملية تحتاج شهورًا من التنظيف والدباغة والتعقيم والتنعيم والخياطة.

وافق الأسد، وصار يجلب له خروفًا كل يوم، فنعِم الثعلب وعائلته بالرزق والحماية. لكن مع مرور الوقت، نفد صبر الأسد، وهدّد الثعلب إن لم يُسلّمه الفروة صباح الغد سينتقم منه.

أدرك الثعلب أن الخدعة اقتربت من نهايتها، فجمع عائلته، واقترح عليهم بتر أذيالهم جميعًا، كي لا يتعرّف الأسد عليهم. نفّذوا الخطة، وربطوا أذيالهم ببعضها، ثم بتروا العقدة بحركة سريعة.... في صباح اليوم التالي، جاء الأسد يسأل عن فروته، فأنكر الجميع معرفتهم بها، وقال الثعلب:

- عن أي فروة تتحدث يا سيدي؟ نحن قوم حللنا هنا ليلة أمس فقط... هاجمتنا الذئاب، فاضطررنا للهرب إلى هنا. ثم لم يكن بيننا أتفاق مسبق، وليس لنا أية معرفة مسبقة بك، وليس لنا فكرة عن صناعة الفروة، نحن قوم ندعى ببيت البتران، أو عائلة البتران.

حين إذ نادى على زوجته، وأبنه، وأبن عمه، و... كل أفراد عشيرته ..

قال له:....

- أنظر يا سيدي كلنا بتران بالوراثة.

حين إذا أقتنع الأسد بتفسيرهم ووجهة نظرهم المعقولة، هؤلاء ليسوا هم من أتفق معهم، فمن هم الذين خدعوه؟؟؟

عاد خائبا مكسور الخاطر، يبحث عن الثعلب الماكر في جوف المستحيل، حينها إذ عَلِمَ بأنه كان مخدوعا طوال تلك الفترة...

فذهبت قصتهم مثلا يضرب بها على كل من يحاول أن يماطل في تأخير عمل ما، أو تأجيل عمل ما، شابه ذلك:...

(قصتك صارت مثل فروة السبع).

*.............

هذه القصة من موروثات المرحوم الوالد، طيب الله ثراه.

9- الأميرة والمؤذن *

كـان يـا مـا كـان، فـي سـالف العصـر والأوان، امـرأة حسـناء، رشـيقة القـوام، تأسـر الأبصـار وتـبهج القلـوب، لـم يتجـاوز ربيـع عمرهـا العشـرين. متزوجـة مـن شـاب نبيـل، عفيـف، ذو شـهامة ووسـامة، لا يقـل عنهـا جاهًـا ولا مكانـة. يعيشـان فـي دارٍ وادعـة قـرب المسجد الكبيـر، فـي ضـواحي بغـداد، حيـث الحفيـف يلاطـف الخرير، وحيث السكينة تهمس في الأركان.

كانـت أميـرة، كمـا يـدل اسـمها، متدفقـة بالحيويـة والبهـاء، تتـأنق كـل مسـاء، ترتـدي أقمشـة السـندس والإسـتبرق، تمشـي ميّاسـة، لطيفـة، شـفافة، كـأن بشـرتها مـن لـدن الـورق. تـداعب زوجهـا بـودّ وحنـان، وتمـرح بـين الـورود كالأطفـال. سـعيدة، عزيـزة الـنفس، رشـيقة البـدن، كريمـة، حليمـة، لبقـة، ذكيـة، لماحـة، ملكـة علـى عرش بيتها.

ورغـم اكتمـال بهجتهـا، كانـت تفتقـد جلسـات السـمر النسـائية، تلـك التـي تـروّض بهـا الـذات، وتضـفي علـى الحيـاة نكهـة الأخبـار، وبهجـة الطرائـف، وقهقهـة النكـات. فـالمرأة، مهمـا عـلا شـأنها، ومهمـا لمـع قـدرها، تبقـى بحاجـة إلـى ألفـة نسـائية، إلـى صـديقة أو مجموعـة صـديقات، تبـوح لهـنّ بمـا يجـيش فـي صـدرها مـن شـجون، وتسـرّ بمـا يلامـس الـنفس ويخـدش الحيـاء. هكـذا خُلقـت، وهكذا يجب أن تكون بين النساء.

تحتـاج إلـى صـحبة تـزيح عنهـا شـبح الوحـدة، وتشـاركها أحاديـث لا ينبغـي للرجـل أن يحضـرها. جلسـات تفـرغ فيهـا مكنونهـا،

وتكسر بها رتابة الأيام، لتبقى إحداهنّ مرتعًا للألق والبهاء. فالمرأة جزء من فسيفساء الحياة: ناعمة، رقيقة، تحتاج إلى الألفة والرعاية، إلى الضحكة والنكتة، إلى التخاطر والمشاركة. ومن خلال قناطر الأفراح والأتراح، تدرك ذاتها، فالشمعة لا تضيء إلا في الظلام، وهكذا هي المرأة، تسعى خلف لحظات البهاء لتمنح نفسها السكينة، خاصة في زمنٍ ضيّق عليها مساحة التألق، أمام عنجهية الرجل وسطوته.

في ذلك الزمان، كانت مقاهي النساء والملاهي العصرية معدومة، وأماكن الاستجمام والهيام شبه غائبة. كانت المرأة تعيش في عزلة، لا تخرج إلا بإذن، وإن خرجت منفردة، تعرضت للتنمر والذم، بفعل عقد العادات والتقاليد.

فالمرأة بطبعها أرقّ من الورق، وأشفّ من النسيم، وأنعم من فراء القطن. سلاحها أنوثتها، وسيفها جمالها. تهفو من همسة، وترقّ من لمسة، وتنساب كنسمة، يشتاق لها الزهر والحجر، كضوء الشمس ورواء المطر. وفي ذات الوقت، هي أحدّ من السيف، وألسع من النار إذا ما غضبت. هي محور البيت، تضفي عليه المرح متى أشرقت، وتكلله بالحزن متى اعتلت. حساسة، رقيقة، سريعة التأثر، فلا غرابة أن تتباهى بلباسها، وزوجها، وجواهرها أمام الملأ.

تستمتع بأحاديث النساء، تتابع أخبار الزواج والطلاق، تتصف بالفضول، وتُشغف بفرض شخصيتها، وتبتهج حين يلمع حضورها في أعين من حولها. فلا بد لها من صداقة تروّض بها الذات، وإلا أصبحت حجر عثرة في طريق سعادة زوجها.

***

خلال تجوالها في الأسواق، تعرّفت أميرة على جارتها أميمة، امرأة لعوب تقاربها في السن، خبيرة بخفايا الحي وأسراره، تعرف ما يدور خلف الجدران وتحت الجحور. كانت أميمة من روّاد جلسات السمر الأسبوعية في بيت "الداده" أو "الشيخة" كما تسميها النسوة، وهي امرأة طاعنة في السن، تجمع في دارها النساء ليتسامرن، يتبادلن الحكايا، ويستطلعن حظوظهن على يد قارئة الفنجان، وسط دخان النرجيلة ورشفات القهوة والشاي، لقاء مبالغ زهيدة.

في ذلك البيت، تُعقد صفقات سرية، وتُنسج خيوط العلاقات من تعارف وفراق، حب وغرام، زواج وطلاق. تُروى فيه القصص الشجية، وتُتداول مشاكل الناس كما لو كانت فصولًا من ألف ليلة وليلة. بيت الداده أشبه بنادٍ اجتماعي، لا خطوط حمراء فيه، تُذكر فيه الأسماء بالسلب أو الإيجاب، وتُكشف فيه الأسرار كما تُكشف الوجوه.

المدينة التي تحتضن هذا البيت معمورة بالخضرة والبساتين، يخترقها نهر دجلة، وتظللها أشجار الزيتون والنخيل. يتنقل أهلها بالعربات المسحوبة بالحصن برًا، وبالكلك والابلام نهراً، وتضيء طرقاتها ليلاً الفوانيس والمسارج الزيتية، قبل أن تعرف الكهرباء طريقها إليها.

وكان المؤذن يصعد منارة المسجد خمس مرات في اليوم، يؤذن للناس، لكنه في كل مرة كان يسرق نظرة إلى بيت

الحسناء "أميرة"، تلك التي سلبت قلبه وأعمت بصيرته. يتأملها طويلاً، حتى تشتعل أحشاؤه بنار الجوى، لا يملك مقاومة هواه، ولا يهدأ له بال إلا برؤيتها. صار يرتقي المئذنة قبل الأذان بوقت، يتلصص على جمالها، وأحيانًا يتأخر عن الأذان، غارقًا في خيالاته. حين يراها تتمختر كالغزال بلباس شفاف، تميل به المئذنة كما يميل الغصن، فيزعق بالأذان ليجذب انتباهها، لكنه لا يلفت إلا أنظار الناس، أما هي، فظلت أبية، لا يغنيها عن حب زوجها شيء.

ذلك المؤذن المراهق يسكن قرب بيت الشيخة، على ضفاف دجلة، شبه عازب بعد أن هجرته زوجته لزيغ عينيه وطيشه.

أما أميرة، فقد شكت لأميمة وحدتها، فنصحتها بمرافقتها إلى بيت الداده، لتكسر رتابة أيامها، وتتعرف على نساء جدد، وتسمع قصصًا حقيقية وخيالية. استأذنت زوجها، الذي نادرًا ما يرد لها طلبًا، وذهبت معها في أحد أيام الخميس. هناك، استأنست بجلسات السمر، شعرت لأول مرة بأنها حرة، قريبة من المجتمع، تتلمس تنوعه، وتدرك أن فيه الصالح والطالح.

تعرفت على نساء كثيرات، صاحبت بعضهن، ونفرت من أخريات. وكان لأميمة الدور الأكبر في نزع وشاح الخجل عن وجه أميرة، روّضتها بلطف، وعرّفتها على عالم جديد. استمعت أميرة لقصص النساء التعيسات، ممن يفضفضن دون خجل، فحمدت الله على نعمة الألفة بينها وبين زوجها، وعلى رقيه الذي يميّزه عن سائر الرجال.

شدّها حديث قارئة الفنجان، حين قالت لها:

- ينتظرك مستقبل مشرق، هناك من يحيك الغدر ضدك، وستكونين سيدة بارزة في المجتمع خلال ستة أيام، أو ستة أشهر، أو سنة..

منذ تلك اللحظة، تقرّبت منها العرافة، وصارت تناديها بـ"الخاتون"، لما رأته فيها من رقيّ وهيبة.

لكن أميرة لم تشغل بالها كثيرًا، فهي لا تؤمن بالبخت، وتدرك كذب المنجمين ولو صدقوا. كانت رزينة، حكيمة، أميرة في كل تصرف، لذا أحبها المجتمع النسوي، لسماحتها، ولباقتها، وجمالها، رغم أنها لم تكن مدركة تمامًا لنوايا من حولها.

كانت تنقل كل ما يحدث في بيت الشيخة لزوجها، ما رأته، وما سمعته، وما دار من طرائف وأخبار، فزاد ذلك من حب زوجها لها، ومن ثقته بها، حتى بات لا يمانع ذهابها إلى بيت الداده، طالما أنها تعود أكثر سعادة وحيوية.

وفي إحدى الجلسات، شاع خبر مرض ملك البلاد، وتداولت النسوة الحديث عن من سيخلفه، إذ لا وريث شرعي له. سألت أميرة زوجها، الموظف المرموق في البلدية:

- أحقًا أن الملك على فراش الموت؟" فأجابها: "يقولون ذلك، والله أعلم. أسرار القصر لا يطلع عليها أحد، ويُقال إنه كتب وصية لن تُقرأ إلا بعد وفاته، أمام الملأ.

تكررت زيارات أميرة لبيت الداده، حتى أصبحت جزءًا من روتينها، لا تستغني عنها، تجد فيها التنوع، والغرابة، والألفة. وتوطدت علاقتها بأميمة، فأخذت منها الضحكة والمكر، وأعطتها العفة والرزانة. تلك الفوارق جعلت كل واحدة تتمسك بالأخرى، كأن كلٍّ منهن كانت بحاجة إلى الأخرى.

أميرة لم تعد تذهب للأسواق أو بيت الشيخة إلا برفقة أميمة، أعجبت بحسن تعاملها مع الباعة والسماسرة، وساعدتها في تجاوز كثير من العقبات، وفّرت عليها الوقت والمال، خاصة في شراء الأقمشة النسائية الراقية التي كانت تستهويها.

***

في كل خطوة تخطوها أميرة، كان المؤذن يتعقب أثرها، يترصد حضورها، ويتتبع علاقتها الوثيقة بصديقتها أميمة. وقد حاول مرارًا أن يستدرج أميمة، عارضًا عليها رشوة مقابل أن توقع بصديقتها في فخ علاقة آثمة، لكن أميمة صدّت محاولاته، لما تعرفه عن أميرة من عفة وكرامة وكياسة، فهي ليست من النساء اللواتي يُؤكل لحمهن، كما يقال.

وبحكم صداقتهن، أطلعت أميمة أميرة على نوايا المؤذن الخبيثة، محذّرة إياها من الوقوع في شراكه. أما أميرة، فلم تخبر زوجها بما دار، إذ لم تعر الأمر أهمية، ورأت في محاولات المؤذن تفاهة لا تستحق الرد، ولا يمكن لها أن تنال منها. كانت تدرك أن إثارة الموضوع قد تجر وراءه فضائح لا تُحمد عقباها، وهي لا ترغب في إشعال نار لا وقود لها، فليس

من الحكمة أن يُحاسب الإنسان على نواياه ما لم تُترجم إلى أفعال. لذا آثرت أن تبقي الأمر في حجمه الطبيعي، دون تضخيم أو تهويل، خاصة في مجتمع يطبل للباطل بأيدٍ وأرجل.

وبعد أن أعيته الحيل، وعجز عن إقناع أميمة، بدأ المؤذن يبحث عن مفاتيح جديدة لاقتحام حصن أميرة المنيع. فلم يجد أقصر طريقًا من الشيخة "الداده"، التي اعتاد أن يرى فيها بوابة لكل مآربه، مقابل دنانير بخسة يدرها عليها. فالشيخة، بطبعها الطامع وخبرتها الطويلة، لا تمانع في تسهيل مثل هذه العلاقات الدنيئة، طالما أنها تدر عليها المال، وتضيف اسمًا جديدًا إلى سجلها الأسود، ذلك السجل الذي ينهال عليها ذهبًا من حين لآخر.

وقد خصصت غرفة معزولة في دارها لهذه الأغراض، لا يدخلها إلا من كان "صاحب شأن"، مجهّزة بسرير قطني، وحمام صغير، ومطبخ يحتوي على بعض المسكرات، من نبيذ وخمر وفواكه، وباب خلفي يؤدي إلى الفنار المطل على شاطئ النهر.

وفي إحدى جلسات السمر، كانت النسوة منشغلات بقارئة الفنجان، كل واحدة منهن تبحث عن ذاتها في عنق الزجاجة، غارقات في إرهاصاتهن ومشاكلهن. استدعت الشيخة أميرة، بلقبها المحبب "الخاتون"، إلى الخلاء الخلفي، بحجة أمر هام وسري، مستغلة مكانتها وعقلها الراجح. وبحسن نية، تبعت

أميـرة خطـوات الشـيخة، حتـى أدخلتهـا الغرفـة المعنيـة، وأجلسـتها على السرير، ثم قالت:

- أمهليني خمس دقائق، سأعود إليك بسر هام وجدي.

لكنهـا لـم تعـد. أوصـدت الأبـواب الداخليـة والخارجيـة، وعـادت إلـى جلسـات السـمر، تـدير شـؤونها وكـأن شـيئًا لـم يكـن، تاركـة أميــرة وحيــدة فــي غرفــة فريســة للمــؤمن، أُعــدّت للغــدر، لا للضيافة.

أمـا أميـرة بقيـت وحيـدة عالقـة فـي الغرفـة تنتظـر عودتهـا دون جـدوى، خالهـا الشـك مـن سـعي شـيخة ومـع ذلـك فضـلت الانتظـار لتعـرف الخبـر اليقـين، كـان للفضـول دور فـي تكبيلهـا، وهـو الـذي شــرع فــي بلــورة فكــرة الجلســات، فمعرفــة الأســرار غايــة تــود خوض غمارها

أميرة بين فكي القدر

لـم تمـضِ لحظـات حتـى انفـتح البـاب بصـوتٍ مريـب، فتأملـت خيـرًا، ظنّـت أن الشـيخة قادمـة، لكنّهـا فوجئـت بـالمؤذن يـدخل الغرفـة، مرتـديًا ثوبًـا أبـيض كأشـباح القصـص الخياليـة. ارتجـف قلبها، وغطّت وجهها بوشاحها، وسألته بتوجّس:

- من أنت؟ كيف دخلت؟ ماذا تريد؟

أجابها بصوتٍ متهدّج:

- أنا من عصفت به ريحك فذرّته أشلاء بين أشواك اليباب. أنا من فقد النوم وصار يناجي القمر، أنا من قيدته زنزانة حبك، أنا قيس الملوّح، أنا مؤذن المسجد، وأنا... مجنونك.
- وما تبغي مني يا قيس؟
- كل شيء فيك يأسرني... هجرت زوجتي، وانشغلت بك، ولن يهدأ لي بال إلا برضاك.

أدركت أنها وقعت في فخ الدادة ومصيدة المؤذن، فقررت أن تخرج من المأزق بدهاء. تذكّرت حديث أميمة عن هذا المعتوه، فخلعت وشاحها، وابتسمت له برقة، وقالت:

- حسناً يا قيس، لن أمنع نفسي عنك، طالما أنك تعشقني... لكن بشروطي.

وافق، فسألته عن المبلغ الذي دفعه للدادة، فأجاب: عشرة دنانير. أعطته المبلغ، وقالت:

- خذ مالك، أنا لا أبيع جسدي، بل أهبه لمن يستحق.

ثم طلبت منه أن يخلع ملابسه ويجلس على السرير القطني بينما تستحم. نفّذ ما طلبت، فأخذت ملابسه ودخلت الحمام، وأوصدت الباب، وفتحت صنبور الماء لتوهمه بوجودها، ثم فتحت النافذة وقفزت منها، هاربةً تحت جنح الليل.

ركضت نحو الشاطئ، مزّقت الأشجار ثيابها، وخدشت ساقها، لكنها لم تتوقف. دفنت ملابس المؤذن بين الأحراش، ثم

واجهت حارسًا ليليًا حاول استغلالها، لكنها خدعته بعد أن وافقت رأيه حتى جردته من ثيابه. عندها سرقت سلاحه وثيابه، وهددته بالقتل.

ارتدت زيّه، وأخفت شعرها تحت القبعة، وصعدت القارب متجهة إلى بغداد. لم يلحظ أحد أنها ليست شرطياً، سوى البلام الذي ارتاب في أمرها.

وصلت الضفة الأخرى مع بزوغ الفجر، وجلست على جرف الشاطئ تستعيد أنفاسها، وتفكر في زوجها، وفي الذنب الذي يثقل قلبها. سارت في طرقات مجهولة حتى وصلت إلى ساحة كبيرة يتجمّع فيها الناس.

سألت امرأة عجوز تبكي بحرقة، فأخبرتها أن الملك الطيب قد مات، وأن اختيار الملك الجديد سيكون عبر "طير السعد" الذي سيحط على رأس من يستحق العرش.

وقفت تشاهد الكرنفال الذي يعد نادرا، أُطلق الطير، فدار مرتين، ثم حطّ على رأس الشرطي أميرة. صُدم الجميع، وأعيد إطلاق الطير، فحطّ عليه مرة أخرى. عندها أعلن رئيس الوزراء تتويجها ملكة، وبعد أن روت قصتها، تعاطف معها الجميع.

احتفلت البلاد، وارتدت تاج العرش، وأصدرت قرارات حاسمة:

إحالة الشرطي للتقاعد.

فض مجالس الشيخة.

سجن الشيخة عشر سنوات.

الحكم بالمؤبد على المؤذن.

تبرئة البلام.

تعيين أميمة وصيفة، والعرافة حكيمة.

احتضان زوجها وتنصيبه ملكًا بدلًا عنها.

وهكذا، من بين رماد الخديعة، نهضت أميرة ملكةً، لا بقوة السلاح، بل بدهاء العقل، وصدق القلب، وجرأة المصير.

*(هذه القصة من الموروث، روتها لي أمي الغالية يرحمها الله وأحسن مثواها، فصغتها بأسلوب شيق).

10- الطرائف في استكان الشاي

عبدالحسين الجايجي: نكهة الطيبة والطرافة

عبدالحسين الجايجي، الرجل الطيب، صاحب النكتة اللاذعة، ذو الملامح العربية الأصيلة: وجهٌ أسمر، قامةٌ فارعة، وجسدٌ رشيق، يكسوه شعرٌ أشيب مشظّى فوق أذنيه، وسحنةٌ شرقية تنضح بالبداهة والكرزمة. كان عنوانًا للبساطة والألفة، لا يُقاوم حضوره، ولا تُملّ مشاكساته.

رغم كبر سنه، وتعبه النفسي، ومشاكله المادية، ظلّ محتفظًا بروحه المرحة، وحركته الدؤوبة، ولسانه الطليق. يخلق من شجون الناس بسمة، ومن تعاستهم طرفة، وكأنه يجلّي النفوس من همومها. كان قريبًا من الجميع، يسأل عن أحوالهم، يواسيهم، ويضحكهم، حتى صار أقرب إليهم من قربهم إليه.

عيناه الغائرتان تحكيان شقاء السنين، وقد عفرت الفاقة وجهه بخطوط الصبر. يحمل في نظراته حيرةً كأطيارٍ تخفق في سماء فكره، يلفظها حسرات دخان من سيجارته التي لا تفارق فمه، وكأنها رفيقة دربه في رحلة الضنك.

كان كشكه الصغير، بجانب دكان محمود دبه في سوق جلولاء، مركزًا للبسمة والونس. خمسة كراسٍ بلاستيكية، نضيدة صغيرة، وموقد في العراء، وسلطانية ألمنيوم لغسل الأقداح. زبائنه من أصحاب الدكاكين المجاورة، ومن المارة،

ومن أصدقاء الطفولة الذين عرفهم منذ أن كان جنديًا في لواء 19 بقيادة عبدالسلام عارف قبل ثورة 14 تموز.

كان عبدالحسين (أبو حافظ) يستقطب زبائنه بروحه الخفيفة، وضحكته المعبّأة بشوكولاتة القهقهة، ونكاته اللاذعة التي لا تُنسى. رغم الحزن الذي يسكن ملامحه، كان بارعًا في رسم البسمة، وفي تخدير الشاي الثقيل بنكهة عراقية أصيلة، يطربنا بمواويله الريفية، ويُضحكنا بطرفه التي لا تُمل.

ذات صباح، مرّت عليه أم صباح، امرأة قصيرة، بدينة، ذات مزاح متجذر، وقالت له:

- صباح الخير أبو حافظ، أشوفك أمتختخ اليوم، الظاهر على وفاق مع أم حافظ!

فردّ ضاحكًا:

- لذلك ترينني مبهدل، هارب من الفجر لأشغل نفسي بالمقهى!

جلست قليلاً، فقدم لها استكان شاي، وقال:

- الدنيا ما تسوى أن نغتر بأنفسنا في هذا المخاض العسير... أسمعي يا أم صباح، هذه الطرفة:
- امرأة في أول أسبوع من زواجها قالت لزوجها: "أراك تنظر في ورقة عقد القران، عن ماذا تبحث؟"

فردّ بهدوء: "أبحث عن تاريخ انتهاء العقد!" هههههههههه

ثم أضاف لها:

ــــ كأنك كيس طحين وتقولين أنا متعبة! ماذا تختارين، بندول أم حبة العافية؟ (وهي حبة تؤدي إلى إسهال شديد)

ضحكت، وقالت:

- أنا فقط مشغولة بابني صباح، تأخر من الجبهة.

فردّ:

- لا تقلقي، ربما تعلق ببنت بصراوية، لأجلها نساكم!
- يوم المنى حين يتزوج

وقبل أن تغادر، طلبت منه طرفة أخيرة، فقال:

- طالب كسلان لم يذهب لاستلام نتيجته، فأرسل أخاه وقال له: إذا كنت رسبت في درس قل لي "محمد يسلم عليك"، وإذا بدرسين قل "محمدين يسلم عليك". عاد أخوه رآه جالسا قرب أبيه فقال له: "أمة محمد تسلم عليك!" ههههههههههههههههه

فن إلقاء النكتة لا يتقنه إلا الماهرون، وكان عبدالحسين من أمهرهم. رغم عمره الخمسيني، بدا أكبر من ذلك، لشظف العيش وقلة الراحة. صار قطبًا من أقطاب سوق جلولاء، يرتدي بدلة رمادية، وقميصًا نيليًا أو أبيضا، وينتعل صندلًا يسحل به الطرقات. سيجارته المتقدة في فمه لها كبرياء، لا تسقط، كأنها عقدٌ أزلي بينه وبين الدخان.

حين نصحته يومًا بترك التدخين، قال لي:...

- يا بني، السيجارة قتلت أمي وأبي! فبيننا ثأر قديم، هل سمعت أحدًا ترك قتال والديه؟!

ضحكت، ورددت:

- لا، أكيد لا، وهل يجوز ذلك؟!

عبدالحسين الجايجي كان شجرة ظلّها يفرش الطمأنينة، شخصية هلامية، معجونة بخميرة الطرفة والكلمة الطيبة، رغم تعاسة الحال. صبره الجميل صقله، وجعل منه جدارًا يضحك رغم التعرية، يغزل الطرائف كغزل بساط الشعر، ويمزج بين الروح والكلمة، فتخرج الطرفة منمقة. هو لبنة من طين الجنوب الطيب، وابتسامة في وجه نكد الدنيا، ومرآة لزمن الطيبة والقناعة.

***

في أحد أيام الصيف، كنت أصغي إليه وهو يتحاور مع محمود دَبّة قبل دقائق من أذان المغرب. محمود رجل قصير القامة، أبيض البشرة، نحيف، أملط، معروف في الحي ببيع قوالب الثلج والمرطبات. أراد أن يعظ عبد الحسين الجايجي، فقال له بنبرة جادة:

- يا عبد الحسين، مضت أيام الشباب، ولم نعد نحتمل المهاترات واللعب. لعبنا كثيرًا، وحان وقت الجد. آن

لك أن تلين وتترك زجاجة الخمر، تعال معي إلى طريق العبادة، فما بقي من العمر ما يُعوَّل عليه.

ضحك عبد الحسين ضحكة طويلة وقال ساخرًا:

- هههههههه، سبحان مغير الأحوال! كنت تشرب الخمر بالطاسة، والآن صرت واعظًا! يا سبحان مغير الأحوال، غير حالي... هههههه.

رد عليه محمود وقد بدا عليه التأثر:

- ذاك زمن ولى، كنا قد انحدرنا في طرق الغي، ولم نكن نعي عواقب الدنيا. غدًا، حين تموت، ستتوسل إليّ لأتوسط لك كي تدخل الجنة.

قهقه عبد الحسين مجددًا وقال:هههههههههه

لا لا، لن أتوسل إليك! حسن لطيف موجود! هههههههه (وكان حسن لطيف غريم محمود في بيع الثلج). ثم هل أنت واثق أنك ستدخل الجنة؟ ليش هي هونطة؟! هههههه... أما نحن، إن ضاقت بنا الدروب، سنسلك طرقًا أخرى. هههههه

وقبل أن يودعه، ذكر عبد الحسين طرفة قائلاً:...

قجغجي (مهرب) مات، وكانت حسناته تساوي سيئاته، فوضعوه في منطقة وسطى بين الجنة والنار. الملعون صار يهرب أهل النار إلى الجنة مقابل مبالغ زهيدة! هههههههههه...

ضحك محمود وقال: هههههههههه

حلوة! اسمع هذه النكتة:

رجل سكران، أول مرة يشرب الخمر في حياته. لعبت الخمرة في رأسه، نزل إلى الشارع العام، أوقف سيارة تكسي، وسأل السائق:

هل أنت فاضي؟

نعم، فاضي كما ترى.

قال له السكران:

طيب يا طيب، انزل خلينا نسولف! هههههههههه.

وفي تلك اللحظة، صدح الأذان لصلاة المغرب: "الله أكبر، الله أكبر".

عندها، اتجه محمود إلى المسجد، تاركًا عبد الحسين الجايجي على كرسيه، يتأمل يومًا أفضل من يومه القانت.

***

كثيرًا ما كنت أفطر في مقهى عبد الحسين الجايجي، بعد أن أبتاع صمونة محشوة بالقيمر من المعيديات - مربيات الجاموس وبائعات القيمر والروبة- اللواتي يفترشن الأرض بصوانيهن أمام محل "الباتا" للمرحوم عبد الرحمن الجلبي، قرب القنطرة الوسطية التي تربط محلة الطليعة بمحلة الوحدة،

فـي قلـب السـوق. كنـت أرتشـف الشـاي علـى مهـل، وأتأمـل صـباح المدينة وهو يتثاءب.

فـي أحـد الصـباحات، دخـل أحمـد دوندرمـه إلـى المقهـى مرتـديًا زيًّـا عسـكريًا، يسـتعد للالتحـاق بالجبهـة ضـمن قـاطع الجـيش الشـعبي. أحمـد رجـل بـدين، طويـل القامـة، ذو كـرش مترهـل، تجـاوز الأربعـين، وكـان دكانـه يقابـل المقهـى مباشـرة. جلـس ليشرب الشاي، فبادره عبد الحسين الجايجي مازحًا:

— ولـك ويـن رايـح؟ هـو أنـت مـال حـرب؟ مـا تشـوف كرشـك الهادل؟

ضحك أحمد وقال:

— يـا أبـو حـافظ، مـاذا نعمـل؟ حكـم القـوي علـى الضـعيف. حسـين عبـد الله ومحمـود رمضـان مـا خلّونـا بحالنـا! (وكانـا مـن مسـؤولي الحزب المشرفين على جمع فلول الجيش الشعبي في المنطقة).

ضحك عبد الحسين وقال:

— أسـمع يـا أحمـد، يقـال إن رجـلاً سـأل إمـام المسـجد: "يـا شـيخ، أنـا اليـوم أكلـت سـمكة وصـحن طرشـي، وبعـدين تـذكرت أنـي صـائم... شسوي؟"

فأجابه الإمام:...

— اعمل استكانين شاي! هههههه...

ثم أردف عبد الحسين بطرفة أخرى:

— يقال إن آمر لواء زار أحد الملاجئ، فوجد جنديًا قد وضع صورته بين صورة صدام والخميني. غضب الآمر وسأله: "ما هذا؟"

فقال الجندي: "سيدي، هذا قائد الأمة" مشيرًا إلى صورة صدام، "وهذا أمام الأمة" مشيرًا إلى صورة الخميني.

فسأله الآمر: "والذي في الوسط من هذا؟"

فأجابه الجندي: "متناكة أم أمه! ههههههههههههههههه...

قالها وهو يضحك بحرقة، وكأنه يصف حاله بين المطرقة والسندان.

كان صباحًا مليئًا بالضحك، فصلًا من البهجة الشعبية، انتهى بتوديع أحمد إلى الجبهة، وسط دعابات خففت وطأة الرحيل.

الضحك، يا صاحبي، ليس مجرد رد فعل عابر، بل هو شكل من أشكال التعبير عن الفرح، ينظمه الدماغ، ويعكس نوايا الإنسان ويزيد من تفاعله الاجتماعي. أحيانًا يكون معديًا، يجرّ الآخرين إلى دائرة البهجة دون مقاومة.

وله فوائد صحية لا تُحصى: يخفف من ضغط الدم، يذيب الكوليسترول المتراكم في الشرايين عبر إفراز هرمون الكورتيزون، ويمنح القلب راحة غير مباشرة. الضحك ينعش الذاكرة، يشد عضلات الوجه والحنجرة، يقلل من الشخير،

ويمنح الإنسان وسامة وثقة بالنفس، بل ويزيد من قدرته الإبداعية.

فاضحك، تضحك لك الدنيا. وإن ضحكت من القلب، فقد ربحت لحظة حياة.

****

في أحد الأيام، التقى عزيز الحلاق بإبراهيم بلور في دكان الأخير. كان اللقاء على استكان شاي من يد حسين جايجي، كما جرت العادة في جلولاء، حيث لا يُشرب الشاي إلا مصحوبًا بحكاية أو نكتة.

عزيز، أشهر حلاق في تاريخ جلولاء، لم يكن مطلوبا لمهارته في الحلاقة فحسب، بل لخفة دمه وروحه المرحة. قصير القامة، بدين الجسد، يتقدم كرشه على صدره، وكان حضوره في أي مناسبة كفيلًا بتحويلها إلى مهرجان من الضحك والفرح.

أذكره جيدًا في عرس أخي الأكبر عام 1968، حين ارتدى بنطالًا أزرق وقميصًا أبيض فضفاضًا، وكان لا يزال في مقتبل العمر. جرت العادة أن يُحلق العريس في يوم الحناء وسط احتفال الأهل والجيران، حيث تُرص الكنبات في ساحة المحلة على شكل مربع، ويجلس العريس في الوسط، وإلى جانبه طاولة عليها أدوات الحلاقة وقارورة صغيرة من عرق المسيح، يرافق عزيز اثنان من عازفي الطبلة والرخ (الجنزار).

استمرت الحلاقة قرابة ساعتين، وفي كل حركة مقص أو سحبة مشط، كان عزيز يرتشف قمعًا صغيرًا من الجعة، ويؤدي رقصة رشيقة حول العريس، يغني بصوته الشجي أغانٍ شعبية، منها مربعات فاضل رشيد، وأغنية "يا حمام"، و"يا حلو شعرك حرير" لحسين السعدي، وأغانٍ تركمانية مثل "هلهله ويرن بوينه" لمحمد قلاي. كان بحق محور الفرح، يضفي على العرس بهجة لا تُنسى.

وفي أواخر عام 1988، التقى عبد الحسين الجايجي بعزيز في نادي جلولاء السياحي، وتعالت ضحكاتهما على ذكريات الماضي. دار الحديث حول شخصية وهمية تُدعى "أبو فخري"، يتداول الناس اسمه في الطرائف.

قال إبراهيم بلور لعزيز:

ـــ احكي لنا نكتة من نكاته.

فقال عزيز:

ـــ تحدث أبو فخري في مقهاه لمجموعة من الزبائن عن مغامراته، قائلاً: في إحدى ليالي الشتاء، فزّ ابني فخري من نومه وهو يبكي ويطالبني أن أجلب له ذئبًا ليتسلى به. كان عمره خمس سنوات. آلمني بكاؤه، فخرجت إلى الوديان أبحث عن الذئاب. وبعد مغامرة طويلة، تمكنت من غبط ذئبين تحت إبطي وعدت بهما إلى البيت. لكن فخري كان قد غطّ في نوم عميق، فأودعت الذئبين في غرفة متروكة وأقفلت الباب. وفي الصباح، أخذته من يده وقلت له: "جلبت لك ذئبين جميلين يا

فخـري". فـرح فرحًـا شـديدًا، ومـا إن فتحنـا البـاب حتـى أصـبت بالدهشة!

سأله الزبائن:

ـــ ماذا حصل يا أبو فخري؟

قال:

ـــ الذئبان، أحدهما أكل الآخر، ولم يبقَ منهما سوى الأذناب!

ـــ ههههههههه...

علت الضحكات، فقال إبراهيم بلور لعبد الحسين:

ـــ رد عليـه إن اسـتطعت يـا أبـا حـافظ! اسـعفنا بنكتـه ثانيـة مـن نكاته!

فقال عبد الحسين:

ـــ مغـامرات أبـو فخـري كثيـرة. يـروي أنـه ذهـب يومًـا إلـى البـراري ليصـطاد الغـزلان، لكـن الشـمس غربـت دون أن يـرى غـزالًا. وبـين الأحـراش، لمـح عينـين تلمعـان، فظنهـا غـزالًا، ونحرهـا بسـكينه، فـإذا بهـا نمـر أرقـط! خـرّ صـريعًا مضـرجًا بدمائـه. ولثقـل وزنـه، وضـع فخـذًا علـى كتفـه الأيمـن وآخـر علـى الأيسر، وسحل به الطريق عائدًا للبيت.

وفـي تلـك اللحظـة، دخـل زبـون إلـى المقهـى طالبًـا اسـتكان شـاي، فاسـتأذن أبـو فخـري مـن جماعتـه وقـال: سـأكمل لكـم القصـة لاحقًـا بعد خدمة الزبون.

وعندما عاد، سألهم:

ـــ يا جماعة، أين وصلنا في القصة؟

قالوا:

ـــ فخذ على الكتف الأيمن وفخذ على الكتف الأيسر.

قال:

ـــ ونيك حتى الصباح! هههههههههههههههه

ـــ هههههههههه...

كنــت جالسًــا فــي محــل إبــراهيم بلــور أســتمع لتلــك الطرائــف الجميلـة، فـي أيـام كنـا نصبّ الـدموع علـى قوافـل شـهداء الحـرب، وكان للضحك وقعٌ خاص، لا يُنسى.

وقبـل أن أسـافر إلـى الـيمن بفتـرة قصـيرة، رأيـتهم يخرجـون مـن بـــاب المســـجد الكبيـــر بعـــد صـــلاة العصـــر، يحمـــدون الله علـــى الهدايـة، يسـيرون جنبًـا إلـى جنـب مـع طيـب الـذكر الملـة حسـن، قـارئ القـرآن المشـهور، طيـب الله ثـراهم أجمعـين. حينهـا التقـاهم السيد كامل محمد مطشر، ملاطفًا عبد الحسين:

ـــ أبـو حـافظ، الحمـد لله علـى الهدايـة، لا أنسـى نكاتـك الحلـوة، بالله اقحمنا بنكته سريعة على الماشي!

فقال عبد الحسين:

ـــ صـار يـا طيـب، يقولـون سـودانية لبسـت فسـتانًا أحمـر، قالـت لزوجها: دلّعني يا زول.

فقال لها:

ـــ أنتِ يا فحم يا مولّع! هههههههه...

ضحك كامل وقال:

ـــ أسـمع هـذه يـا أبـو حـافظ: بخيـل حلـم بأنـه يـوزع فلوسًـا فـي المنام، فأقسم على نفسه ألا ينام مرة أخرى! هههههههه...

وبعـد أن سـافرت، وافـاهم الأجـل. رحمهـم الله وأحسـن إلـيهم. كـانوا شـموعًا تنيـر المدينـة، مـاتوا ولـم نعـرف لهـم طائفـة أو حزبًا يمجدونه، بل كانوا يمجدون الحياة ببساطتهم وطيبتهم.

11- لغة العود والحجر *

لم يخطر ببال سعيد يومًا أن تكون الآنسة بثينة خليلته المقربة، تلك التي تغنيه عن سواها، بما تمتلكه من حسن وفتنة ونباهة ورجاحة عقل. لطالما تأملها مليًّا، ولم يغفل عن ذكر اسمها حين يتحدث عن الصفات النادرة، والحيوية، والأنوثة، وخفة الظل، واللباقة. كانت بثينة تتربع على عرش النساء، لا لجمالها فحسب، بل لما تمتلكه من شأن وجاذبية وكياسة.

تميّزت عن قريناتها، فغدت من صفوة نساء القرية، كجبل شامخ يزهو في نظر من يعنيه الأمر، يصعب تسلقه دون فكر ثاقب. كثيرون تمنّوا الاقتران بها، لكن معضلة الكمال وقفت حائلًا بينهم وبين الاقتراب منها. أما سعيد، فقد وضع نصب عينيه مقارنة نفسه بكمالها، كأنه يحاول ردم الجدار الفاصل بينهما، منتظرًا منها الضوء الأخضر ليشرع في التفكير بها.

لكن حياءها منعها من قدح الإشارة، فازدادت العقدة تعقيدًا، ولم يقوَ على فك رموزها. لم يشأ أن يكون ضحيةً لرفضها، فكرامته فوق كل اعتبار، وعدم يقينه من قبولها به، وضعف تجربته، حائلا بينه وبين تطلعاته نحوها. فآثر الصمت والتأني، رغم أنه لا يقل عنها شأنًا، فهو ابن مشيخة وسليل حسب ونسب، كما هي عريقة الجذور.

حاول الاقتراب مرارًا من خط النار الذي رسمته لنفسها، لكن وجله منعه، خشية أن تُغلق عليه نوافذ الأمل. كان يكنّ لها الاحترام والتقدير، كما كانت تبادله ذات التقدير، وجرى بينهما

تنــاغم صــامت، دون تخطـيط، عبـر الإشــادة المتبادلــة. لـم يشـأ أن يقطـع تلـك الصـلة الخفيـة، كمـا أن عزتهـا وكرامتهـا منعهـا مـن المبادرة.

ظـل حلمـه معلقًـا بـين التبريـر والتأويـل، لا يجـرؤ علـى تجـاوز الخطـوط الحمـراء، يلـوّح لنفسـه بالكـارت الأصـفر كلمـا شـطّ بـه التفكيـر. ظـل يـدور فـي دوامــة الشــك، يعـدّ محاولاتــه البائســة انتصــارًا ذاتيًــا، حتــى لـو اقتصـر علــى مجـرد التفكيـر بهـا. لـم يتجـاوز مراقبـة أخبارهـا عـن بعـد، عـاجزًا عـن كسـر مـرآة الكرامة التي نصبها بينه وبينها.

ومـع مـرور السـنين وتقـدّم العمـر، باتـا علـى أعتـاب العنوسـة. دقّـت بثينـة نـاقوس الخطـر، وبـدأ بريـق عينيهـا يخفـت، يتلاعـب بهـا الشـك، ويثقلهـا الانتظـار. لـم يبـادر سـعيد كمـا كانـت تأمـل، ولـم تكسـر هــي حــاجز الكرامــة، فتمسـكت بالحيـاء، بينمـا كبّلـه هـو الخوف من الفشل.

وفـي لحظـة يـأس، رضـيت بثينـة بـالزواج مـن رجـل غريـب، لا يجمعهـا بـه توافـق، كمـا زُجّ بسـعيد فـي زيجـة غيـر مقنعـة مـن ابنـة عمـه. بقيـت الحسـرة تـدور فـي فلـك ذاكرتهمـا، ولـم يـنسَ أحـدهما الآخـر. ومـع مـرور الأيـام، وولادة طفـل لكـل منهمـا، تعقّـدت الأمور، وكان للقدر كلمته.

بعـد عـام مـن زواجهـا، اشـتدّ الخـلاف بـين بثينـة وزوجهـا، وضـاقت بـه ذرعًـا، حتـى انتهـى الأمـر بـالطلاق. ورغـم أنهـا طلقـة أولـى، إلا أنهـا اعتبرتهـا نهايـة مريـرة لتجربـة فاشـلة. شـاع خبـر

طلاقها، فسرّ سعيد، وتجدد الأمل في قلبه، بعد أن لسعه الزمن بتخاذله السابق. قرر أن يبادر هذه المرة، ألا يدع الفرصة تفلت من بين يديه مجددًا. فقد جرب غيرها، وجربت هي غيره، وتعادلا في الخذلان والمصيبة، وكلٌّ نال نصيبه من الألم والتعاسة.

لا ضير أن يصلحا شأنيهما، فكلٌّ منهما بحاجة للآخر، كما لو أن القدر كان ينتظر هذه اللحظة ليمنحهما فرصة ثانية. كلاهما وقع في مطب الكرامة وعزة النفس والحياء والخوف من المجهول القادم، كلاهما ذاقا ذات الويل من نفس الصحن، كلاهما ندم على ضياع الفرصة في لحظة بهتان، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]}. صدق الله العظيم.

السندباد جال في البلاد وعاد مرة أخرى لبغداد. لم لا ... فلن يتخلى عن هواه مرة أخرى، الشرع يسمح بالزواج من مثنى وثلاث ورباع (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) .صدق الله العظيم.

التجربة الأولى زرعت الجرأة في فكر وقلب الطرفين، حتى لاحت شمس الود تشرق في الأفق من جديد بعد فترة السبات.

بعد نبأ الطلاق ود أن يجس نبض زوجته (أبنة عمه) قبل أن يفاجئها بنيته، ود تليين فكرها وإعِدادها لمواجهة الصدمة التي ستدوي في حضنها، فهو لا يخالف الشرع في زواجه الثاني.

إذا يجب أن تعرف أوليات العقدة كي يسهل إقناعها، وأن لم تقتنع فلن يخسر في المحفل سواها، فهو في قرارة نفسه كان قد اتخذ قراره وأبصم على الزواج من بثينة، فلن يتراجع عن عزمه لو أطبقت السماء على الأرض - هي سعادته ومستقبله، لن يتخلى عن هذا الهدف مرة أخرى أطلاقا، بعد أن تجددت الفرصة التي سرقت منه بلحظة غفلة.

سعيد وقصة القلب الذي لم يهدأ

جلس سعيد إلى جوار زوجته، يتأمل وجهها الذي ألفه، لكنه يحمل في قلبه قصة لم تروَ بعد. أراد أن يشاركها الحقيقة دون أن يصدمها، فبدأ حديثه بأسلوب قصصي لطيف:

– يا حبيبتي، هل سمعتِ عن قصة التاجر الذي أغرم بفتاة من قريته، لكن انشغاله في التجارة حال بينه وبين الزواج بها؟

– عن أي قصة تتحدث؟ احكِ لي.

– كان التاجر كثير الترحال، منشغلًا في أسفاره، فطال غيابه. لم تصبر الفتاة على فراقه، أو بالأحرى، لم يصبر أهلها على عزوبيتها، فزوجوها لرجل غريب عن القرية. الجميع كانوا يعرفون قصة حبها للتاجر، فلم يجرؤ أحد على التقدم لخطبتها. وحين عاد التاجر، بلغه الخبر كالصاعقة: حبيبته تزوجت رجلًا تعرف عليه والدها أثناء الحج. أصيب بكآبة، ثم رضخ لنصيحة أهله وتزوج فتاة من القرية، لعلّه ينسى، أو ليعوض الفراغ الذي تركته في قلبه.

– يبدو أن الأمور عادية، أين المشكلة؟

– المشـكلة أن الفتـاة لـم تحتمـل العـيش مـع زوجهـا الغريـب، فطلقـت بعـد عـام. حينهـا، عـاد الأمـل، واشـتعل الحـب مـن جديـد، فقرر التاجر أن يطلب يدها.

– جميل، إصلاح لما أفسده الزمن.

– لكـن المشـكلة ليسـت فيهـا، بـل فـي التـاجر الـذي أصـبح متزوجًـا. كيـف سـيخبر زوجتــه؟ كيـف سـيقنعها؟ وهـو لا يريـد أن يخسـر عشرتها.

– طالمــا يحبهــا وتحبــه، فليتزوجــا ويضــعا الزوجــة أمــام الأمــر الواقع.

– وإن رفضت؟

– فلتتحمل وزر عنادها.

– هل ترين ذلك عدلًا؟

– ما دام لا يخالف شرع الله، فلتصبر على ضرة.

– حتى لو كانت زوجته ابنة عمه؟!

ساد الصمت، وبدأت الزوجة تستوعب المغزى...

– ماذا تقصد؟ أأنت التاجر؟ لقد غششتني! لا أريد أن أراك.

انهـــارت، ألقـــت بنفســـها علـــى الأرض، غمـــر الحـــزن وجههـــا، واغرورقـت عيناهـا بالـدموع. اقتـرب منهـا سـعيد، يحمـل كـأس ماء:

– اشــربي يــا عزيزتــي، لا تقلقــي، مكانــك محفــوظ. أنــتِ ابنــة عمـي، مـن لحمـي ودمـي. لكـن أرجـوكِ، قـدّري القلـب ومـا يهـواه. لا أريــد أن أغشــك، ولا أن أعــيش معــك وأنــا مشــتت الفكــر. لا أريـد أن أخسـرك، ولا أن أخسـرها. وقـد حكمـتِ بنفسـك، فـأرجو أن تتقبلي الحكم كما قبلتهِ على غيرك.

مــرت الســاعات ثقيلــة، راجعــت الزوجــة شــريط حياتهــا معــه، تـذكرت المواقـف، الأفـراح، والآلام. لـم تكـن حياتهـا مثاليـة، لكنهـا لـم تكـن تعيسـة. أدركـت أنـه جاملهـا كثيـرًا، وأنهـا أحبتـه، لـذا لا تريد أن تفقده.

فكـرت: الحيـاة مـع ضـرة ناقصـة، لكنهـا أهـون مـن الوحـدة. يجـب أن تحافظ على بيتها وزوجها مهما حصل.

وحين استعادت وعيها، قالت له معتذرة ومباركة:

– أنــت ابــن عمــي، أدرك أنــك تزوجتنــي لــتملأ فراغًــا، لا عــن حــب. لكننــي أحببتــك، ولــم أكرهــك يومًــا. لــذا، أقــر لــك وأؤيــد مسعاك، لا أريد أن أعيق سعادتك.

ضمها سعيد إلى صدره، وقبّل رأسها:

– وأنـا أحبـك، لكننـي أحبهـا أيضًـا. لا أسـتطيع مقاومـة ضـعفي أمامهـا. أنـت زوجتـي وحبيبتـي وابنـة عمـي، وهـي خليلتـي وعشيقتي. لن أفرط بكما، ولن أتخلى عنكما.

وهكـذا، أنهـى سـعيد عقدتـه، وقـرر أن يخبـر بثينـة بمـا توصـل إليـه. وجـد فـي زوجتـه أفضـل رسـول، فطلـب منهـا أن تكـون الطيـر المرسـال، ليشـركها فـي قـراره، ويشـعرها بمكانتهـا فـي قلبه.

رغـم أن المهمـة أثقلـت مشـاعرها، وافقـت الزوجـة الأولـى علـى القيـام بهـا لتثبـت حبهـا، وتحفـظ مكانتهـا فـي قلـب سـعيد. لـم تكـن ترغـب أن تتحـول إلـى مجـرد قطعـة أثـاث فـي بيتـه بعـد زواجـه مـن بثينـة. فـأدّت دورهـا كرسـول بينهمـا بإتقـان، ونجحـت فـي فـتح قنـوات القلـب والفكـر والهـوى، لتُرسّـخ العلاقـة فـي أذهـان المحيطين والمتربصين ببثينة.

وبعد انقضاء عدّة بثينة، وفق ما ورد في قوله تعالى:

{وَالْمُطَلَّقَـاتُ يَتَرَبَّصْـنَ بِأَنْفُسِـهِنَّ ثَلَاثَـةَ قُـرُوءٍ} [البقـرة: 228] {وَاللَّائِـي يَئِسْـنَ مِـنَ الْمَحِـيضِ... فَعِـدَّتُهُنَّ ثَلَاثَـةُ أَشْـهُرٍ} [الطـلاق: 4] صدق الله العظيم.

تـم الزفـاف بمباركـة الأهـل والأصـدقاء، دون بهرجـة، كمـا طلبـت بثينـة. دخلـت القفـص الـذهبي الـذي أعـده لهـا سـعيد، فكـان دخولهـا كنسـمة ربيـع كسـرت مـرآة بؤسـه، وجـددت لحظـات سـعادته، وأشـرقت الأضـواء فـي سـمائه. تغيـرت طباعـه، صـار أكثـر حيـاءً

وحنانًا، وأضحت الفرحة جزءًا من أثاث البيت، حيثما حلّت بثينة، حلّ معها البهاء.

كانت هي الغزالة الهيفاء، الزهرة التي حلم أن يغرسها في جنائنه، الفاكهة التي أضاع في خضمها سنين عمره دون أن يجرؤ على الاعتراف بحبه لها. أما هي، فلم تكن أفضل حالًا، فقد غيرتها التجربة الأولى، وأدركت أن الحياة ليست نزهة، بل قرار واستقرار.

زواجها الأول كان عبثًا بمياه آسنة، جردها من الحيوية والضحكة، أنساها مفاتنها، وأحال حياتها إلى رتابة. لذا، حين دخلت زواجها الثاني، شعرت وكأنها تعيش في بيت زجاجي هش، تخشى أن يدوشه حجر طائش، فتعود إلى نقطة الصفر.

رغم حب سعيد لها، بقيت حذرة، تحيط نفسها بصمت، وتخشى أن تكون التجربة مجرد تبديل وجوه. حتى سعيد بدأ يشك في حبها، فقرر أن يختبر مشاعرها بطريقة غريبة: دسّ ثعبانًا ميتًا في فراشه، وتظاهر بالموت.

حين رأته منهكًا، صرخت بأعلى صوتها:

يا ويلاتاه! وا حبيباه!

غلبها البكاء، ونعت زوجها بألم، منشدةً:

قم وأشفع لأبيك عامر، راح ضحية ثعبان غادر، أرى الدنيا ظلمة دونه، رجت النفس بقدر جائر

حين أفاق سعيد من تمثيليته، احتضنها، فرحًا بمحبتها، لكنها لم تتقبل طريقته. جردت نفسها منه، وخرجت بوجهٍ غاضب، وقالت:

ليست بثينة من تُجرب بالوسائل الرخيصة، والله لن أعود إليك حتى ينطق العود والحجر!

أأنتِ مجنونة؟ وكيف ينطق العود والحجر؟

غادرت دون أن تلتفت، تاركةً إياه في دوامة لغزها، نادمًا على فعلته، مشتاقًا لها، يرسل المراسيل والوساطات، لكنها لم تتنازل عن شرطها.

صار سعيد كجذع شجرة خاوية، يدور بين القرى كريحٍ تائهة، يبحث عن معنى لغزها. رقت زوجته الأولى لحاله، وتوسلت إلى بثينة، لكن دون جدوى.

وذات يوم، التقى بعجوز تائهة، دلّها على طريقها، وسألها:

– يا حاجة، متى ينطق العود والحجر؟

– ينطق العود حين يشكو الوتر للوتر، وينطق الحجر حين يدق الحجر بالحجر.

صاح سعيد:

– صح لسانك! إنها الربابة والرحى!

قبّل رأس العجوز، وصاغ شعرًا، وغنى قرب دار بثينة:

جـودي يـا روح لوصـل المحـب جـودي - غـص القلـب ببجـاي والرحـى خـدودي - يـا عـود بسـك حـزن ونـوح- حتـى الربالـة جزعت - قولي متى تعودي

حـين سـمعت بثينـة نغـم الربابـة، رقّ قلبهـا، وعـادت إليـه، مرتميـةً في أحضانه، بعدما علمت أنه أدرك قدرها، وأحسن فهمها.

المحبـة هـي اللعبـة الوحيـدة التـي يشـترك فيهـا اثنـان، يتعـادلان فـي المكسب والخسارة، ولا يُحسم فيها الفوز إلا بالصدق والوفاء.

----

* فوز حبيبة الشاعر الأحنف بن قيس

* مـن مـوروث الوالـدة العزيـزة طيـب الله ثراهـا وأدخلهـا فسـيح جناته.

12- المقصلة*

كانت جزيرة العين مملكةً عظيمة، تلك التي قصدها التاجر الأمين في رحلته الأخيرة، باحثًا عن السكينة وسحر الشواطئ وكثافة الأشجار. هناك، حيث هدأ صخب الحياة، قرر أن يستقر بعدما كثرت أمواله وكلّت قدماه من الأسفار.

قضى حياته أشبه بالرحالة ابن بطوطة، عاشقًا للمغامرات، باحثًا عن النادر والمميز من التحف، مغذيًا فكره بالمعرفة والثقافات، متأملًا في غرائب العادات والتقاليد. ومع بلوغه الأربعين، قرر أن يختتم رحلاته بالاستقرار في الجزيرة، وأن يكلل سعيه براحة البال بزواج من امرأة من عامة الناس.

أغرته جزيرة العين بجمالها الأخّاذ؛ جبالها الشاهقة كستائر خضراء تتدلى من جوف السماء، تحيطها شواطئ زرقاء، يرفأ بها رمل بلون الشفق، كأنها لوحة رسمتها يد الخيال. شعر أن جسده قد أرهق، وأن روحه تاقت للهدوء، فاختار أن يكتب مذكراته هناك، حيث يجد ذاته.

ولعشقه الأزلي للبحر، صار يتردد إلى الشاطئ كل مساء، يستنشق عبير الموج، ويتأمل السفن، ويغوص في صفاء الرمل. البحر كان مرآة حياته منذ الصغر، فصار يقضي وقته في صيد الأسماك والسباحة والاستجمام تحت أشعة الشمس الدافئة. كان يهجس بذاته كطائر النورس، لا يقوى على الابتعاد عن الشاطئ.

وبينما يكتب مذكراته، عادت به الذاكرة إلى أول وجه جذب انتباهه، أول تحفة اقتناها، أول جزيرة زارها، وأول قبلة اهتزت لها أركانه. ذكريات عرجت به إلى أيام المراهقة، حين كان يلتقي ابنة الجار قرب شجرة الصفصاف، تلك الفاتنة السمراء، بشعرها الأدهم المموج كظلال الأشجار، وعينيها الواسعتين كعيون المها، وقوامها الممشوق كغصن الخيزران.

كانت أول من لفت انتباهه، قبل أن يزجه والده في تجارة بعيدة. احتضنها يومًا، وطبع قبلة على خدها، فخرّت بين يديه خجلة، لم يقاوم فيض حسنها، ارتعشت أوصاله، وتاه في لغز القبلة. ارتعدت منه، قاومت إعصاره، فلتت من قبضته كشمس مغشاة بغيوم الخجل، تاركة جمرة القبلة تصلي خدها بلظى النار. أحست بخدش في حيائها، لكنها أسرّت له نظرة إعجاب مغشاة بابتسامة شفيفة. كان حينها ابن العشرين.

ومنذ تلك الحادثة، لم يضطرب قلبه بإشارة حب صادقة. صار حنينه يصب في رحم تلك الأيام الخوالي التي أهدرها خلف جني المال، وكأن الوحدة أيقظت نيران الأمس، فحرّكت أمواج تيار الصبا الراكدة. لقد أضاع عمره بين مدّ وجزر السنين، يشتط كالموج بين المركب والسواحل.

بات ينفث شجونه زفير حسرات في دخان سيجارته، لترسم له هالات بؤس في لوح القدر، وكأنَّ السنين عاقبته على هدر الفرص..

تذكر أمه وهي تخيط له ثوبه، وتعدّ له فطوره قبل ذهابه إلى المدرسة، وتذكر والده الذي علّمه فنون التجارة حين كان يصحبه في رحلاته المكوكية بين الشمال والجنوب، حتى غدت له دراية كاملة بالمشتريات ومواسمها. تلك الآفاق صنعت منه رجلاً حرًّا، شحذت فيه همة الرزق، وعلّمته ألا يركن إلى الظل ولا يستكين إلى رزقٍ آتٍ دون سعي. صار أينما حلّ يقرأ الأوضاع بفطنته وإلمامه، يبسط نفوذه بخطى واثقة خلال مراحل عمره.

استغل هوايته في الجزيرة، فجمع بين التجارة الحرة وصيد السمك في أوقات الفراغ، كي لا يغلبه الروتين، ولا تمضي أيامه في رتابة سقم السنين. وبعد أن استقر به المقام، بدأ يفكر بامرأة تجزل همومه، وتضفي على عمره الباقي لمسة سعادة وراحة بال، قبل أن يمضي به قطار العمر إلى محطته الأخيرة. أضحى يبحث عن سيدة تعينه على وحدته، يدق مسمار عزوبيته في لوح كل امرأة تصادفه على شاطئ البحر، لعلّ واحدة منهن تلتقط نداء قلبه.

وذات مساء، دون موعدٍ مسبق، التقطت هواجسه صورة فتاة غاية في الرقة والجمال. بدت مياسم حسنها تتراقص في وجهها المبلول بمياه البحر، حورية بخصرٍ أهيف وقوامٍ رشيق، يلمع شعرها كخيوط الشمس، ويعكس الضوء ككريستال صافٍ. كانت ترتدي ثوبًا براقًا بلون البحر، يطابق لون عينيها الفيروزيتين، وفي وجهها سحرٌ متوهج يحكي قصة كبرياء يليق بها، يوائم مشيها وجمال قوامها.

تساءل: من تكون؟ من أي أرض بزغت؟ كيف يبهرها بإعجابه؟ لقد ملأت فضاء عينيه، وشغلت خواطره، فكيف سيكون شكل الاستجابة حين ينفض الغبار عن مشاعره؟ لم تمنعه سنوات عمره الأربعين من أن يفكر بفتاة تصغره بعقدٍ من الزمن، فقد رأى فيها فرصة مواتية، ربما الأخيرة في عمره.

علق صورتها على جدران ذاكرته، مدّ إليها نظرة إعجاب، واستحوذ على معانيها، اقترب من وهج النار وعيناه لا تبرحان قوامها الرشيق. تحركت مشاعره من موضع السكون، وزفرت آهاته فتيل صمتها... تبادلا النظرات، وأدرك أن سنارة صيدها قد تلقفته، كما أدرك أن سنارته علقت بزعانفها.

لم تهمله في قرارة نفسها، دخل أفق مزاجها، فهي تجيد فن إدارة اللعبة. ترى... من سيصطاد من؟

يا ترى، ما ذنب الفتاة إن كانت جميلة؟ وما ذنب الشاب إن أُسر بفتنتها؟ الله خلق الإنسان ضعيفًا، تحكمه الأهواء وتدفعه الظروف، تسيّره موجات الرغبة وفق إيقاعها ودفقها. صار يعبر عن نفسه بافتراضات تبرر سلوكه، وتضفي على مبادراته قناعة داخلية، حتى أضحى يأخذ بزمام الأمور إرضاءً لغوايته.

لم تهزه فتاة من قبل كما هزته تلك الحورية. ربما لسلطان العمر يدٌ في خلق الفرصة، وربما للمعرفة والثقافة التي اكتسبها أثرٌ في هذا الهيجان غير الطبيعي الذي اجتاحه. ربما

تغيّـر شـعوره بعـد اسـتقراره، فـراح ينصـب خيمتـه علـى شـاطئ الصبر، منتظرًا سفن أحلامه لترسو في مرافئها.

شـغلت الحوريـة فكـره، أرهقـت ظنونـه، كيـف السـبيل إلـى جـوهرة تـتلألأ أمامـه وهـو لا يملـك مفـاتيح قلبهـا المقفـل؟ راح يخطـط بإمعـان، يبحـث عـن خطـوة جريئـة، وقفـة جديـة تلفـت انتباههـا، تجيز له دخول معبد الشمس قبل أن تُزف إلى بحر الغروب.

كانـت تـأتي إلـى الشـاطئ كـل مسـاء، لا تغـادره عنـدما تغـرب الشـمس، كأنهـا لا تـأتي إلا لتغويـه. وكـان ينتظرهـا وكأنـه عـرف غايتهـا، تجلـس فـي ذات المكـان، تتأمـل أن يشـاغلها، أن يحـرك موجها، حتى هدأت الأشجان، وعرف كلٌ غاية غريمه.

وفـي لحظـة، تبـادلا النظـرات، فابتسـمت لـه. أوقـدت شـرارة عاطفتـه، مسـحت دكنـة حيرتـه، كانـت ابتسـامتها كرصاصـة خرقـت حـواجز قلبـه، أبهجـت فكـره، كشـطت همـه عـن قيعـان ظنـه. لـم يسـتطع مجـاراة عصـفها المفـاجئ، فالخجـل جـنح بـه، لكنـه أطلـق ابتسـامة خجولـة، أرسـلها بلطافـة العاشـق إلـى حمامـة أحلامه.

قـد تكـون ابتسـامتها عـابرة، لكـن جمالهـا السـادي غيـر عـادي. أدرك أنـه بحاجـة إلـى عمـل جـاد يبجـل قـدرها، يشـعرها بقيمتهـا. ومـن خـلال مراقبتـه، اكتشـف أنهمـا يشـتركان فـي صـفة الوحـدة، كـلٌ منهمـا أسـير همـه. ذلـك السـكون العـائم بينهمـا لـن يـدوم، فـلا بد من حركة تمنح المياه الراكدة روحًا جديدة.

تقدم منها بخطوات مهزوزة، يحمل وردة بيضاء، عربون معرفة، تعبر عن بياض قلبه وصدق نيته. كان صامتًا، لكن وجهه فاض بما يجيش به قلبه، وترجم كل ما يود قوله. أخذت الوردة، شمتها، وكأنها بفعلتها تلك أجهشت على هاجس الخوف والخجل، فبثت موجة حبور في أوصاله، وساد الأجواء صمتٌ عاصف.

عرّفها باسمه وعمله، عبّر عن إعجابه، حدثها عن مغامراته ورحلاته وتجارته، ووعدها بهدية ثمينة من آثار الأمم. بادلته المعرفة والمشاعر، عرّفته باسمها "وردة"، دار بينهما حديث سلس شيق، لم يخرج عن دائرة الإعجاب والثناء. كلمته عن صباها، وأهوائها، سرّت به وسرّ بها، تعانقت النظرات، تصافحت الأيادي، وانبلجت لواعج الشوق والهيام.

نثر لها الأشعار، شرح لها رغبته، استغرق في خيلائه، عصفت به الأفكار إلى جنة الفردوس، شعر أنه قريب من أن يلقف حظه، وهي سراج مسراه.

مضى شهرٌ مفعم بالرجاء، يغمرها في كل لقاء بمشاعره وهداياه، يحكي لها قصص مغامراته، استأنست بحديثه وثقافته، وتوضحت دلائل الإعجاب المتبادل. لملم شتات ظنه، وضبها في سرادق قلبه، وعرض عليها الزواج. لكنها أمهلته قائلة:

– لازلنا في بداية المشوار، نحتاج لوقت أطول.

وفي أحد الأيام الباردة، جاءت تمشي الهوينا، وفي يدها وردة جورية حمراء، يفوح منها عبق أنفاسها الشذي. قدمت له وردتها بامتنان وحنان، وابتسامة ساحرة، ثم حضنته وقبّلته من خده، وقالت:

– هذه الوردة دليل محبتي لك، سأذهب في رحلة مع والدي لأسبوع، بعدها أقرر زواجي منك. احتفظ بها حتى أعود إليك بفتنة العاشقة.

صعقته كلماتها، هزت كيانه، تركته كالطير المذبوح يرتجف في مكانه. أحمر وجهه، أغدقت ظنونه بأمل باهت، لكنه قدر ظرفها، قبلها، وتركها تنسلت من بين يديه لفيض الزمن.

– سأنتظر مجيئك على أحر من الجمر.

– سأشتاق لك، مع السلامة.

– مع السلامة...

مضت الأيام جزافًا، ذبلت الوردة، ولم يهل قمر العيد. ترى، ما الذي منعها من العودة؟ لماذا غاصت في غياهب الجب؟ هل للوردة الحمراء مغزى؟ أم أن عائقًا ما حال دون حضورها؟ بغيابها اسودت الدنيا في نظره، حتى البلابل والعصافير ما عاد يسمع لها تغاريد في ذاكرته.

بات يبحث بين ذكريات الأمس عن خيط دلالة يصل به إليها، لكنه لم يجرؤ أن يسأل عنها، فلم يعرف من يثق بهم. لكنها، في الحقيقة، كانت معروفة لكل أهل المملكة. تلك الحسناء هي

عشـيقة الأميـر، أسـطورة خيـال علـى ألسـنة النـاس، لـذا تجنبهـا الشباب، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

كانـت تنـزل للبحـر فـي خلوتهـا، تطـرد الوحشـة التـي تلازمهـا، خاصـة حـين يكـون الأميـر منشـغلًا بـأمور المملكـة أو برحلاتـه البعيـدة. كانـت تشـعر بالوحـدة، فتمضـي للاسـتجمام، أو تسـير بـين الأشـجار الباسـقة، تسـتمتع بتغاريـد العنـادل وزقزقـة العصـافير. وحـين شـعرت بـأن شخصًـا غريبًـا يتبعهـا، فرحـت بـذاتها، أرادت أن تكسـر مـرآة الوحـدة والـروتين، لتـرى نفسـها بمـرآة أخـرى غير مرآة الأمير. فالمرأة تعشق من يفتتن بها ويتغزل بها.

أدركـت بفراسـتها أن هـذا الغريـب صـادق ونبيـل، فاسـتمالت إليـه. فأهـل المملكـة لا يجـرؤون علـى محادثتهـا، فللأميـر عيـون ومجسـات فـي كـل زاويـة، وإن غـاب بجسـده، حضـر بسـلطته. وجـدت فـي التـاجر فرصـة للتنفـيس عـن ذاتهـا، وزهـق الوحـدة التـي كبّلتهـا حتـى عـودة الأميـر مـن رحلتـه. لقـاءات بريئـة، لا يشـوبها مكـروه، لكنهـا أرادت أن تثبـت للأميـر أن تركهـا عرضـة للوحوش يهدد أمنها، ويستوجب اهتمامه.

﴿إِنَّ كَيْـدَهُنَّ عَظِـيمٌ﴾ صـدق الله العظـيم. بـدأت الألسـن تلـوك الحكايـة، إشـاعات ونميمـة، خاصـة مـن أولئـك الـذين يضـمرون الغيـرة والحسـد. تعقّبهـا المخبـرون، ينقلـون كـل صـغيرة وكبيـرة إلـى الأميـر، حتـى اكتملـت عناصـر القصـة، وجُمعـت فصـوص المسـبحة، وعـرف القاصـي والـداني بقصـة الأميـرة والتـاجر الأمين.

حين بلغ الأمير الخبر، لم يتردد. ولإسكات الألسن، وقطع دابر الحديث، قرر أن يقطع رأس الأفعى التي تجرأت على أملاك المملكة. فالأميرة ليست امرأةً عادية، بل جزء من ممتلكاته، رمز سلطانه، لا يحق لأحد أن يقترب منها.

ألقت الشرطة القبض على التاجر، سُحل في الطرقات، أُهين، واستغرب الأمر، لم يعلم سبب اعتقاله. ساقوه إلى المحكمة، فحكم عليه القاضي بالإعدام بالمقصلة، بتهمة التعدي على ممتلكات الأمير، ليكون عبرة لمن يعتبر.

تحدد يوم القصاص، ودُعي الناس ليشهدوا. أذنت النهاية، ولم يكن يدرك أن الجميلة تخبئ في ثناياها سر موته، ولم يعلم أن الوردة الحمراء كانت إشارة للدم، لا للحب. وقع في شرك الأميرة، وحظّه السيئ قاده إلى حتفه.

وفي يوم القصاص، احتشد الناس. منهم من ترحم عليه، ومنهم من كال له الشتائم، متعاطفين مع الأمير، فذلك أميرهم، رمز هيبتهم، لا بد من صون حقوقه، وإلا عمت الفوضى.

وقبل أن يُشرع الجلاد في تنفيذ الحكم، سألوه عن رغبته الأخيرة، كما جرت العادة في المملكة.

قال: "أريد مقابلة ورد."

سألوه: أي ورد تقصد؟

قال: الفتاة التي جرتني للمقصلة.

استُدعيت الأميرة، وقفت أمامه وقفة الظالم أمام المظلوم، القيد يحز ساقيها، والعار يثقل رأسها. دار بينهما حوار صامت، عاتبها عتاب الميت، لا يعلم أنها الأميرة. كأنه قال لها: – أية سعادة ستشعرين بها، وأنا نديم كأسك وكوابيس أحلامك؟ كأنه لف حبل المشنقة على عنقها، فلابد لها من ضمير يفيق.

وفي لحظة، هوت المقصلة، وسقط الرأس. نكست الأميرة رأسها، ومنذ ذلك اليوم، صار الناس يكنّون الأميرة بالمقصلة.

12- الوفاء

في صباحٍ هادئ، استفاقت هيونا على وقع حلمٍ كظيم، ترك في نفسها أثرًا لا يُمحى. كان حلمًا غريبًا، أسعدها للحظة، ثم أغرقها في حزنٍ طويل. حلمٌ جميلٌ في وقعه، مؤلمٌ في أحداثه، ثقيلٌ في معناه، رخيمٌ في مضمونه. أعادها إلى أيام الطفولة، إلى زمنٍ كانت فيه مدللة، تعيش في بيتٍ كبيرٍ في ضواحي القرية، برفقة والديها وكلبها الأبيض، تنعم بالدفء والحنان.

لكن القدر، ذلك الزائر الذي لا يُستأذن، باغتها ذات يومٍ عاصف. حين انزلقت عجلة والديها من فوق تلةٍ إلى بركة ماء، فاختطفهما الموت في لحظةٍ واحدة، وتركها يتيمةً، بلا سندٍ أو قريب. كانت عائدة من المدرسة برفقة صديقتها ماغي، حين بلغها الخبر. الصدمة كانت أكبر من أن تُحتمل، كسرتها، وألقت بها في حضن الميتم، حيث الوحدة والحزن والذكريات.

جلست في سريرها، وأجهشت بالبكاء. فاضت عيناها بسيلٍ من الدموع، وارتسم الحزن على محياها. انتبهت زميلاتها إلى نحيبها، فتجمعن حولها، يواسِينها، يحاولن فهم سبب شجنها. سألنها بلطفٍ وقلق:

– يا هيونا، ما بكِ؟ هل أصابك مكروه؟ هل أنتِ مريضة؟

وبعد أن هدأت، بدأت تروي لهنّ قصتها. تحدثت عن بيتها، عن والديها، عن كلبها الأبيض، عن الأيام الجميلة التي كانت تعيشها قبل أن يختطفها القدر من بين أحضانهم. تحدثت عن

الحادث، عن اليوم الثلجي العاصف، عن البركة التي ابتلعت كل شيء. لم يكن لها أقارب، ولا إخوة يعتنون بها، فكان الميتم هو ملاذها الوحيد.

رغم أنها كانت صغيرة، لم تتجاوز العاشرة، إلا أن ذاكرتها بقيت حية، تحتفظ بكل التفاصيل: البيت، الحديقة، صوت والدتها، دفء الأب، لعبها مع ماغي، ضحكاتهم، وكلبها الذي كان يركض خلفها في الحقول.

وفي ذلك الصباح، وبينما كانت تنظر من نافذة غرفتها إلى حديقة الميتم، شدتها زهرة الأوركيدا. كانت والدتها تعتني بها في حديقة المنزل، تسقيها، تنظف جذورها، تقلم أوراقها. شعرت هيونا وكأن الزهرة تخاطبها، كأنها تحمل روح والدتها. فصارت تزورها كل صباح، تسقيها، تعتني بها، تتحدث إليها بصمت، تستعيد معها ذكرياتها.

نشأت بينهما علاقة خاصة، ألفة ومحبة. صارت الأوركيدا أكثر بهاءً، وكأنها ترد الجميل لهيونا بشذى أنفاسها، بطراوتها، بحيويتها. كانت الزهرة تنمو، وتزدهر، وتزداد جمالًا، وكأنها تعيش على حنان هيونا.

وفي لحظة شرود، تذكرت ماغي، صديقتها التي كانت لا تفارقها. تخيلتها تركض معها بين الأشجار، تلهو، تضحك، تتبادل معها الآراء، تذهبان معًا إلى المدرسة. شعرت بالشوق إليها، فصارت تناجيها من خلف النافذة، تبحث عنها في الأفق، لكن الطيف تلاشى، ولم تجد له أثرًا.

كانت ماغي تزورها كل شهر، لكن غابت لشهرين، مما أقلق هيونا. سألت عنها، فتلقت رسالة منها تعتذر فيها عن الغياب، وتطلب زيارتها في المشفى، إذ ألم بها مرض أقعدها.

قدمت هيونا التماسًا لإدارة الميتم، فوافقت على زيارتها برفقة إحدى العاملات. حين التقتا، احتضنتها بحرارة، وفرحت ماغي كثيرًا، وشعرت بتحسن. لاحظ والدا ماغي عمق العلاقة بين الفتاتين، فتمنيا لو كانت هيونا أختًا لماغي.

وذات يوم، أخبرتها مديرة الميتم أن عائلة ترغب في تبنيها. رفضت هيونا في البداية، فقد تعلقت بزميلاتها، لكن المديرة أقنعتها بأن الأسرة تمنح اهتمامًا خاصًا، على عكس الميتم. وافقت على مقابلة العائلة، وما إن دخلت المكتب حتى فوجئت بأنها عائلة ماغي! تهلل وجهها، وأرتمت في أحضانهم، وشعرت بدفء الوالدين من جديد.

تبنتها العائلة نزولًا لرغبة ماغي، وبدأت حياة جديدة. كانت العائلة غنية، مكتفية، لا ينقصها سوى سعادة ماغي، التي اكتملت بوجود هيونا. نظمت الأسرة برنامجًا أسبوعيًا للترفيه، شمل زيارات للمتاحف، المكتبات، وصيد السمك. شعرت هيونا بأنهم عوضوها عن فقد والديها، حتى أنها صارت تنادي مربيتها بـ"ماما"، مما أسعد والدة ماغي كثيرًا.

وذات يوم، تذكرت زميلاتها في الميتم، فطلبت من والدتها زيارتهم. وافقت، واصطحبتها برفقة ماغي، حاملين الهدايا

والملابس والحلوى. تركت الزيارة أثرًا طيبًا في نفوس الفتيات وإدارة الميتم.

وفي طريق العودة، سألت والدها توماس بلطف:

– يا أبي، هل يمكننا مساعدة أطفال الميتم في التعليم؟ أنا وماغي نذهب للمدرسة، بينما هم لا يحظون بهذه الفرصة. أفكر بتحويل دار والدي المهجور إلى مدرسة لهم. هل تحقق لي هذا الحلم؟

احتضنها وقبل رأسها، وقال:

– نعم يا صغيرتي، سيكون صدقة جارية في ميزان والديك.

فرح توماس بالفكرة، وقرر دعم المشروع، وأسماه "دار هيونا للتعليم". وبعد افتتاح المدرسة، شعر بفخر كبير، وقال لزوجته:

– لقد علمتني هذه الفتاة درسًا في الحياة. السعادة ليس لها مثيل. المال لا يصنع السعادة، بل طريقة صرفه هي التي تفعل.

نظر إلى هيونا نظرة إعجاب، تركت في نفسها بصمة ثقة، مثلما تركت هي بصمة في قلبه منذ أن دخلت حياتهم. هكذا، رغم مأساتها، استطاعت أن تزرع الفرح في قلوب من حولها، وتعيد رسم الحياة بألوان الوفاء والإيثار.

النهاية

للكاتب أحدى وعشرين كتابا
بين رواية ومجموعة قصصية

المؤلف : عباس مدحت البياتي

الروايات

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الاقداح المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراغ
11- القمة
12- عقاب الذات
13- الرؤيا

مجموعات قصصية

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثاني

حالة من الهذيان، عجنت مشاعري بالتيه والغُربةِ والغَرابة، بالخوف المبرر وغير المبرر، كوني قاصدا وسطا مجهولا دون إرادة، تتحكم بيَّ الاهواء، مارقا بصرة زمن تنافى توقعات الظن. أهجس بها حالة هستيرية تعرضت لها، عسرت ولادة مآربي. هكذا عشتُ تلك الحالة بين انفصام وتردي، متبعا حسن الظن والنية.

في الحقيقة تراءى لي الخوف ككائن أسطوري خرافي يتبع قدري، ففي الوقت الذي به تولد اللحظة، تموت تلك اللحظة. هكذا يستمر الوجود في دوامة اللحظات الغير متناهية، وهكذا يتقلب المزاج بين لحظة وأخرى.... الغريب في الأمر بأن اللحظة التي تموت تعيش في سرمدية الذاكرة، بينما المزاج حين يتغير لا يعود لجذوره. حين نسترجع الماضي السحيق؛ نستذكر اللحظات المارقة بتأنٍ، كلحظات الطفولة التي بقيت عالقة بالذكرة، بينما المزاج كصبغة تتأثر بالظرف فيتغير مع الزمن.